

يَعْتَوُّنَ الْجَنَّةَ
فِي

شَرْحِ الْأَمْثَالِ

فِي الْقُرْآنِ

إِسْدَاد

السَّيِّحِ عَلِيِّ مُحَمَّدِ عَبْدِ الْعَالِ الطَّرْطَاوِيِّ

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

مَشْهُورَات

مَحْتَرَفَات

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مستشارات محاسبات بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale
d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur
cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production
écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée
de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبية - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (+٩٦١ ٥)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4571-1



<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

أذكرك ونفسي عزيزى القارئ بقول النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». متفق عليه.

٢- قوله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دبر - بعد - كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»^(١).

٣- وقوله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»^(٢).

٤- وقوله ﷺ: «من قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عدلت له بثلاث القرآن»^(٣).

(١) صحيح الجامع برقم ٦٤٦٤.

(٢) صحيح الجامع برقم ٦٤٦٥.

(٣) صحيح الجامع برقم ٦٤٦٦.

٥- وقوله ﷺ: «ومن قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجمع أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس» (١).

٦- وقوله ﷺ: «ومن قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة» (٢).

٧- وقوله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» (٣).

٨- وقوله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة» (٤) أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق» (٥).

٩- من قرأ سورة «الكهف» في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين (٦).

٩- وقوله ﷺ: «من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ عشر مرات بنى الله له بيتاً في الجنة» (٧).

١٠- وقوله ﷺ: «ومن قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن» (٨).

١١- وقوله ﷺ: «اقرأوا سورة البقرة في بيوتكم» (٩)، فإن الشيطان لا يدخل بيتاً يقرأ فيه سورة البقرة» (١٠).

أيها القارئ الكريم هل ما زلت معي، كل الأحاديث التي سبقت لم يقل فيها النبي ﷺ: «اقرأوا ثم هبوا هذه القراءة للأموات؛ لأن القرآن منا لا يصل للميت، والنبي ﷺ

(١) صحيح الجامع برقم ٦٤٦٧.

(٢) صحيح الجامع برقم ٦٤٦٨.

(٣) صحيح الجامع برقم ٦٤٦٩.

(٤) قال: يوم الجمعة ولم يقول من يوم الجمعة ولم يقول قبل أذان الجمعة، وقال: من قرأ ولم يقول: من سمع أى أن الثواب لمن يقرأها والقراءة لها شروط: فى السر ولا يشوش على أحد، أما قراءة القرآن فى مكبرات الصوت فى المساجد قبل أذان الجمعة فبدعة وضلالة وفى النار، لأن النبي ﷺ لم يكن له مقرئ يقرأ القرآن قبل أذان الجمعة، فعلى أهل الضلال إن يتقوا الله ويتوبوا إليه.

(٥) صحيح الجامع برقم ٦٤٧١.

(٦) صحيح الجامع برقم ٦٤٧٠.

(٧) صحيح الجامع برقم ٦٤٧٢.

(٨) صحيح الجامع برقم ٦٤٧٣.

(٩) قال: فى بيوتكم ولم يقول فى المقابر والأموات، يا أهل البدع والضلال يا ويلكم من الله تعالى.

(١٠) صحيح الجامع برقم ١١٧٠.

لم يقرأ قرآننا للأسموات أبداً (وأتحدى) أى مجرم على وجه الأرض أن يثبت لى بحديث صحيح من البخارى ومسلم: أن النبى ﷺ قرأ قرآننا ووجهه للأسموات، وعلى كل ضال مبتدع أن يضع لسانه فى فمه قبل أن يكذب على رسول الله ﷺ فالويل كل الويل للسادة العلماء إذا لم يستيقظوا من ثباتهم، ويبينوا للناس أن القرآن شريعة ودستور وقانون.

من أجل ذلك عزيزى القارئ الفاضل أقدم لك كتابنا هذا «عون الحنَّان فى شرح الأمثال فى القرآن».

وجعلته فى ثلاثة فصول:

الفصل الأول ويشمل: التمهيد.

الفصل الثانى ويشمل: إلزام القرآن للماديين والمليين.

الفصل الثالث ويشمل: الأمثال فى القرآن الكريم.

واسمح لى عزيزى القارئ أن أحكى لك بعض المهازل والسفالات:

١- رحل مُجرم يدعى أنه يعرف البخت والخط ويكشف السارق !!! يأتى بمصحف كبير الحجم ويفتح عند سورة يس، ويضع مفتاح كبير ثم يكتف المصحف بخيط، ثم يضع المفتاح فى طرف سبابته، ثم يأمر أحد الناس بوضع الجانب الثانى للمفتاح فى طرف سبابته وبذلك يكون المصحف معلق بين أصبعى الحمارين البهيمين السافلين ثم يقول الشيخ للمصحف - على مشهد من الجاموس والبقر: أيها المصحف إذا كان فلان الفلانى هو السارق فعليك بالدوران لليمين، وإذا لم يكون هو السارق فعليك بالدوران إلى اليسار.

٢- شيخ -مجرم سفيه ضال مضل- يقوم بعمل (عدية) يس، وهذه هى الطريقة:

يحضر طشت ملئ بالماء ويضع على الماء (ماء ورد) ثم يأتى بلبنه (قالب طوب) أحمر ويشترط أن لا يكون سبق استعماله قبل ذلك، ثم يضعه فى الطشت، ثم يأتى بقماش بفته أبيض ويضع اللبنة فى القماش، ثم يضعه مرة ثانية فى الماء ثم يقرأ سورة (يس) أربعون مرة، ثم ينادى على صاحب المنزل - المسروق - ويقول له: خذ ادفن هذا الميت - ويشير على قالب الطوب - ادفنه ليلاً، وقبل طلوع الشمس فإن السارق سوف يدفن مثل هذا؟

كنت أنا حاضراً على سبيل معرفة ما يجري في مصر من ضلال - فسألته عن ذلك فقال: إحنا غسّلنا قالب الطوب وكفّناه ودفنّاه، فإن السارق سوف يلحق به !!؟

انظر عزيزى القارئ إلى هذه السفالات والضلالات، كل الدول تتقدم للأمام ونحن نتقهقر للخلف ونباهى الأمم أننا حضارة سبعة آلاف سنة، فلسطين محتله وتضرب بجميع أنواع الأسلحة الحديثة والعراق كذلك. ونحن ما زلنا فى سفالات، فهل من مدكر؟ فهل من عالم يتقى الله تعالى وينصح الأمة ويكشف الغمة؟

أين علمائك يا مصر!!؟

أيها العلماء أفيقوا: يا من توجهون بالريموت كنترول أفيقوا!

يا علماء العصر يا ملح البلد كيف يصلح الملح إذا الملح فسد؟
والله إنى أحبكم، وحبى لكم جعلنى أخاف عليكم من يوم التناد، ويوم الوقوف بين
يدى الله تعالى، وتسالوا «وعن علمه ماذا عمل به»؟

عزيزى القارئ اقرأ وتدبر والله الحمد المنة.

الشيخ/ على أحمد عبد العال الطهطاوى

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

الفصل الأول

التمهيد

القرآن الكريم

وظيفته الأصلية، وكيف يتخذه المسلمون^(١)

يقولون: إذا كان الحى ينتفع بالقرآن فى حياته الدنيوية، فإن الميت كذلك لا يحرم من الانتفاع بالقرآن فى مماته، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فمثلاً إذا قرأ إنسان الفاتحة أو آية من سور القرآن على روح ميت له، فهذا جائز، والميت ينتفع به كانتفاع الحى تماماً.

كما يوردون حديثاً نسبوه إلى رسول الله ﷺ، يدعون أنه يقول فيه: «خذ من القرآن ما شئت لما شئت»، ويتخذون هذا دليلاً لعمل الأحجبة والأدوية لشفاء المرضى، ودليلاً على جواز قراءة القرآن على الأموات.

ونرد عليهم، فنقول: إن الله تعالى أنزل القرآن للأحياء، ليتخذه هادياً لهم يهديهم إلى سعادة الدنيا وفلاح الآخرة إن هم آمنوا به، أو ليكون حجة عليهم إن هم ظلوا على باطلهم، كما يقول المولى: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠]، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقد أخطأ الناس فهم العبارة التى جاءت بالآية الكريمة ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فظنوا أو أفهمهم الشيوخ أن الرحمة هنا هى للموتى، كما أفهمهم تجار الأحجبة أن عبارة ﴿ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩] فى الآية هى خاصة بشفاء أمراض الأجسام، ولكن هذا التفسير للآية تحريف لمعناها، وإخراج لها عن مواضعها، فإن الرحمة والشفاء فى الآية هى للمؤمنين الأحياء.

وفى آية أخرى يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، ويقول الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار فى تفسيره لهذه الآية: أى قد جاءكم كتاب جامع لكل ما

(١) كتاب صراع بين الحق والباطل، وكتابتنا الإبداعات فى مضار الابتداعات.

تحتاجون إليه من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة، وحكمة بالغة لإصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنية، وهداية واضحة للصراف المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمة خاصة للمؤمنين يتراحمون بها فيما بينهم. فمن هذا التفسير نعرف أن الآية خاصة بالأحياء، وليس للموتى نصيب فيها.

ثم نرد أن نسأل هؤلاء: هل الآيات التي تأمرنا بتأدية الصلاة والزكاة والصوم، وتشرح لنا أصول مناسك الحج تنفع الميت بشيء؟ هل الآيات التي تبين لنا أحكام الوصية عند الموت، والتي تبين لنا المباحات والمحرمات من النساء في الزواج، والتي تبين لنا أحكام الطلاق تفيد الميت بشيء؟ هل الآيات التي تتحدث عن عاقبة المفسدين والمنحرفين عن سبيل الله تفيد الميت بشيء؟

هل الآيات التي تبشر المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالجنة، وتبين مكانهم من نعيم الله، تفيد الميت بشيء؟ هل الآيات التي تحبنا بقصص أقوام نوح، وعاد، وشمود، وكفار قريش، وهلاك أولئك الأقوام، وجاءت تحذرننا من اتباع سبل الانحراف والغواية التي سلكها هؤلاء الأقوام حتى استحقوا غضب الله ولعنته مثلهم، هل هذه الآيات تنفع الميت بشيء؟ هل الآيات التي تأمرنا بالإصلاح والتعاون والتأخي، وتحثنا على الصبر والجهد في سبيل الله تنفع الميت بشيء؟

بالطبع كل هذه الآيات وما حملت إلينا من معان وأحكام وعظات وإنذار لا تنفع الميت بشيء، ولو كتبت بماء الذهب على صحائف من ذهب وعلقت على قبر الميت.

معنى سورة الفاتحة: وسورة الفاتحة شأنها شأن سور القرآن، لا تنفع الميت بشيء، وإلى القارئ الدليل على هذا من كتب السنة:

روى مسلم، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الكتاب فصلاته خداج، خداج، غير تام»، فقييل لأبى هريرة: إنما نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال تعالى: أثنى على عبدى، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال الله تعالى: مجدنى عبدى، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال الله تعالى: هذه بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل...» إلخ الحديث.

ومن هذا الحديث نفهم أن الفاتحة هي مناجاة بين الله وبين عبده، وليس للميت فيها شيء تفيده أو تضره.

الميت لا ينفعه إلا عمله: أما الذى يفيد الميت وينفعه، هو أعماله وسعيه فى الدنيا، وذلك كما يقول المولى جل شأنه: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فهذه كلها نصوص تشهد بأن الميت لن يتنفع إلا بعمله وسعيه فى الدنيا؛ لأنها دار عمل، وموته انقطع عمله، وليس له من عمل سوى ما بينه حديث النبى ﷺ.

سوء استعمال القرآن: ولقد أساء كثير من المسلمين استعمال آيات القرآن، فهم يستأجرون المشايخ ليقرأونه فى المآتم، وعلى قبور الموتى؛ لجلب الرحمة والغفران لهم، ويضعون القرآن فى بيوتهم فى مجلد فاخر ليحفظ البيت من العفاريت، أو شبح الفقر، أو ليدفع عن العائلة شر الحاسدين، أو يعلقونه على أبواب المحلات التجارية أو الصناعية، أو بسياراتهم بقصد جلب الرزق ودفع الكساد عنهم، ويعلقونه فى شكل حجاب يجسم المريض ليشفيه، أو يجسم طفل وحيد أبويه ليحفظه من المرض، أو من عيون الحاسدين، أو ليطيل عمره؛ لأن من سبقوه من إخوته ماتوا أطفالاً.

على هذا النحو السيء يستعمل أكثر المسلمين آيات القرآن الكريم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، مع أن الإسلام ينكر هذه العادات الذميمة، ويأمر بتركها، كما جاء فى كثير من الأحاديث النبوية.

حديث: «خذ من القرآن ما شئت لما شئت»: أما هذا الحديث، فلا أصل له، وهو مبتدع، حتى أنه لم يرد له ذكر فى كتب المحققين الذين بينوا لنا الأحاديث الصحيحة والمكذوبة والموضوعة، ويكفى هذا دليلاً دامغاً قوياً على أن هذا الكلام المنسوب لرسولنا ﷺ ابتدعه تجار القرآن؛ ليكون لهم مورد رزق ومصدر عيش؛ لأنهم وجدوا فى هذا العمل حياة سهلة وناعمة، لا عمل فيها، ولا جهد، ولا عرق.

انتفاع الموتى بقراءة القرآن^(١)

يقرأ كثير من الناس القرآن ثم يهبه للميت، فهل ينفعه ذلك؟

آيات وأحاديث: تعرف هذه المسألة بمسألة إهداء ثواب العبادة للموتى، وقد اختلفت فيها آراء العلماء، ومنشأ الاختلاف أنه وجد في القرآن آيات تبين سنة الله فى الثواب والعقاب، وفى تبديل السيئات بالحسنات، ووجدت أحاديث صحيحة صريحة فى أن الوالدين ينتفعان بصدقة ولدتهما، أو صومه، أو حجه عنهما؛ فمن الآيات قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ [النجم: ٣٣]، فهذه الآيات ونحوها ظاهرة فى أن الإنسان لا ينتفع إلا بسعيه وعمله الذى يزكى نفسه بالنية الطيبة والإخلاص لله.

أما الأحاديث التى وردت فى الموضوع، فكلها تدور حول الجواب عن سؤال واحد، هو: هل ينتفع أبى وأمى إذا صمت أو تصدقت أو حججت عنهما؟ وكان الجواب: نعم ينفعه ذلك.

اختلاف العلماء:

وأمام هذه الآيات وتلك الأحاديث اختلفت آراء العلماء، فرأى فريق أن الآيات مقدمة فى العمل على الأحاديث، والأحاديث ليس لها قوة الحكم على الآيات، وبذلك قرروا أن الإنسان لا ينتفع بعمل غيره أياً كان ذلك العمل، وكيفما كان ذلك الغير.

ورأى فريق آخر أن الأحاديث صريحة فى انتفاع الوالدين بصدقة ولدتهما أو حجه أو صومه عنهما، ثم قالوا: لا فرق بين الولد وغيره، وبذلك قرروا أن الإنسان ينتفع بعد موته بعمل غيره متى أهدى ثوابه إليه، وإن لم يكن من ولده، وقالوا: إن الثواب ملك للعامل، فله أن يتبرع به ويهديه إلى أخيه المسلم، ثم خرج هؤلاء الآيات تحريجاً أو هن من موقفهم أمام المانعين، وكذلك كان موقفهم فى قياس غير الولد الذى لم يرد به نص، على الولد الذى ورد به نص مع وجود الفارق بينهما.

أما الدعاء فهو عبادة مستقلة، ثوابها للداعى فقط، والمدعو له إنما ينتفع بالاستجابة إذا حصلت، والاستجابة ليست أثراً لإهداء الداعى ثواب دعائه للميت، وإنما هى شأن

(١) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت.

خاص بالله للأحياء والأموات، أما القول بملكية الثواب للعامل، فواضح أنه ليس ملكاً بالمعنى المتعارف فى متاع الدنيا لصاحبه نقله وتحويله، فهو توجيه فاسد، وبهذا يتبين أن إطلاق القول بجواز إهداء ثواب العمل، أيًا كان من العامل وكيفما كان، لا تنهض له حجة، ولا يستقيم له دليل.

ولد الإنسان من سعيه: والرأى الذى أراه هو أن الآيات محكمة فى معناها، وأنها من شرع الله العام الذى لا يختص بقوم دون قوم، وأن الأحاديث الصحيحة التى أشرنا إليها خاصة بعمل الأبناء يهدون ثوابه للآباء، وقد صح فى الحديث أن ولد الإنسان من سعيه، وعمله من عمله، وبذلك كان انتفاع الوالدين بعمل ولدهما، وإهداء ثوابه إليهما مما تتناوله الآيات.

أما ما جرت به العادات من قراءة الأجنب القرآن، وإهداء ثوابها للأموات، والاستئجار على القراءة والحج، وإسقاط الصلاة والصوم، فكل ذلك ليس له مستند شرعى سليم، وهو فوق ذلك يقوم على النيابة فى العبادات التى لم تشرع إلا لتهذيب النفوس، وتبديل سيئاتها حسنات، وهذا لا يكون إلا عن طريق العمل الشخصى، كيف وقد صرح الجميع بأن ما اعتاده الناس من ذلك شىء حدث بعد عهد السلف، ولم يؤثر عن أحد منهم أنه عمل وأهدى لغير الوالدين، مع ظهور رغبتهم فى عمل الخير، ومحبتهم لإخوانهم الأحياء والأموات؟ والجدير بالمسلم أن يقف فى عبادته وفى شئون الثواب ومحو السيئات عند الحد الذى ورد، فبحسنات الإنسان تذهب سيئاته، ويتقواه تغفر ذنوبه، ولا شأن للإنسان فى الثواب يحوله، ولا فى السيئات يحوها.

* * *

بدع حول القرآن^(١)

فى أكثر من رسالة من الرسائل التى تلقيتها يسأل المواطنون من القراء عن حقيقة الأمر فى التداوى ببعض آيات القرآن الكريم أو الرقى بها، كما يسألون أيضاً عن رقية المريض ببعض العبارات الخاصة المعتادة، وعن حكم الدين فى قراءة القرآن فى الطرقات العامة بقصد الارتزاق، مما نراه ونشاهده فى كثير من المدن والقرى، وما هو الرأى الصحيح فى قراءة القرآن على المقابر؟ وما الرأى فيما يذكر خاصاً بفضل سور القرآن أو بعضها؟

تلك خلاصة جملة من الرسائل أعرب مرسلوها عن رغبتهم فى الإجابة على ما يسألون، وهى كلها تدور حول هذا المعنى.

الغاية من إنزال القرآن^(١)

ليس من شك فى أن القرآن أنزل على محمد ﷺ لغرض هو أسمى الأغراض وأنبلها، وهو هداية الناس إلى الحق عن طريقه، وإخراجهم مما هم فيه من الظلمات إلى النور، أنزله الله ليظهر القلوب من رجس الخسوع لغيره، ويرشد الناس إلى العقائد الصحيحة، وإلى العلوم النافعة، وإلى الأخلاق الفاضلة التى تحفظهم وتحفظ المجتمع من مزالق الهوى والشهوة، وأنزله أيضاً ليرشد الناس إلى الأعمال الصالحة التى تسمو بالفرد والمجتمع إلى مكانة العزة والكرامة، وقد أرشد القرآن نفسه إلى هذه الغاية أو الغايات فى كثير من الآيات، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وبذلك كان القرآن شافياً لأمراض القلب التى تفسد على الإنسان حياته، وأمراض الصدور جهل بالحق، وشبهة تضعف الإيمان، وشهوة تغرى بالفساد، وقد تضمن القرآن الكريم بنصوصه وإرشاداته ما يعالج البشرية من جهلها وشبهها وشهواتها.

ولم يختلف المسلمون الأولون فى هذه الحقيقة، بل آمنوا بها وحددوا الغاية التى لأجلها نزل القرآن، فأقبلوا على حفظه ودرسه، يستخرجون نفاثته، ويتعرفون أحكامه، ثم أخذوا يعالجون به القلوب من رجس العقائد الباطلة، والأخلاق الفاسدة، ويدفعون به المجتمع إلى سبل الخير والفلاح.

ومن هذا نعلم ما كان للقرآن الكريم من أثر وتوجيه فى حياة المسلمين الأولين، بيد أن المسلمين بعد ذلك ما لبثوا أن انحرفوا بالقرآن عما أنزل لأجله، واستخدم لأغراض لا تمت بأوهى الأسباب إليه، ولا هى مما ينبغى أن تستخدم أو تتخذ طريقاً إليه.

انحرف بالقرآن عن وجهته: انحرف المسلمون المتأخرون بالقرآن الكريم إلى جهة

(١) الفتاوى للشيخ عمود شلتوت.

أخرى لم يتجه بها أحد من المسلمين الأولين، والسبب في هذا الانحراف هو ما منى به العلماء من التعصب المذهبي، إذ حملهم هذا على الاكتفاء بما وصل إلى أيديهم من ترك السابقين، وقالوا: إن السابقين كفونا مؤونة البحث في آى الذكر الحكيم استنباطاً لحكم شرعى، أو تفسيراً لآية، وجعلوا بينهم وبين النظر فى الكتاب حجاباً كثيفاً من التقليد والتعصب للمجتهدين السابقين، اعتزازاً بفضلهم، وتابعهم المسلمون فى فهمهم، واتجهوا بالقرآن الكريم وجهة أخرى، حتى إننا نرى المسلمين اليوم، إلا من عصمه الله وقليل ما هم، هجروا القرآن الكريم ككتاب هداية وإرشاد، وشاعت بينهم فكرة تقديسه من جهات أخرى هى:

جهة التداوى به من أمراض الأبدان، وجهة استمطار الرحمة بقراءته على أرواح الموتى، وجهة تسول الفقراء به واستغلال عاطفة الإيمان عن طريقه، هذه البدع الثلاث، أو المنكرات الثلاثة، كانت أثراً لهجر المسلمين كتاب الله من الجهة التى أنزل لأجلها، وكانت فى الوقت نفسه عنواناً سيئاً على إيمان المسلمين من حيث لا يشعرون بمكانة تلك المعجزة الخالدة، التى جعلها الله سبيلاً لإنقاذ البشرية من الأوهام والخرافات، وكانت مع هذا وذاك عنواناً على الجهل بنظام الأسباب والمسببات، الذى نظم الله عليه العالم، وهدى الناس إلى السير فى سبيله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، يجعل الله القرآن سبيلاً لإنقاذ البشرية من الأوهام والخرافات، ويعكس نفر من المسلمين القضية، فيجعلونه سبيلاً من سبل الأوهام، وعنواناً على الجهل بأسرار الله ونظام الله.

الدين والعقل لا يقران هذا الانحراف: وإن تعجب فعجب أن تكتب الآية القرآنية الحكيمة فى إناء ثم تمحى بالماء، ثم يؤمر المريض بشربه، أو تكتب قطع صغيرة من الورق، ثم تلف كالبرشام، ويؤمر المريض بإبتلاعها، أو تحرق تلك القطع ويبخر المريض بها على مرات، أو توضع فى خرقة وتعلق حجاباً فى مكان معين من جسم المريض، وبهذا ونحوه اتخذ الدجالون القرآن الكريم وسيلة لكسب العيش من طريق يأباه الإيمان، ويصدقه كثير من المسلمين.

وذلك فضلاً عن أنه انحراف بالقرآن عما أنزل لأجله، فإن فيه إفساداً للعقول الضعيفة، وصرفاً لأربابها عن طريق العلاج الصحيح، وتغييراً لسنة الله فى الأسباب والمسببات، واحتيالاً على أكل أموال الناس بالباطل، وهذا تصرف لا يقره دين ولا يرضى به عقل سليم، فإذا تركنا هؤلاء الدجالين يعبثون فى القرى والمدن بالقرآن

وبالعقول الضعيفة على هذا النحو، وسرت في شوارع القاهرة أو غيرها من المدن، فإنك ترى المتسولين وقد جلس أحدهم، رجلاً أو امرأة، فى ملتقى الطرقات، أو مواقف المواصلات، أو على أبواب المساجد والأضرحة، يقرأ القرآن، بأسطاً كفه للغادين والرائحين بقصد التسول، ترى هذا المنظر المفجع بين الأحياء، فإذا ما ذهبت إلى المقابر رأيت ما هو أدهى وأمر، رأيت الفقراء من حملة القرآن يتسابقون إلى المقبرة، وقد اندسوا بين أفواج الزائرين والزائرات، يساومونهم على مقدار ما يقرأون، ومقدار ما يأخذون ثمناً لما يقرأون.

وفى هذه المشاهد كلها لا تسمع قرآناً، وإنما تسمع هذرة فى القراءة، وإخلالاً بواجبها، وإخراجاً للقرآن ذى الروعة والجمال إلى ذلك المنظر المزرى الذى يقزز النفوس، ويجرح الصدور، ويبعده فى نظر السامعين عن أن يكون طريق الهداية والإرشاد من رب العالمين.

القرآن ودواء الأمراض البدنية: إن الأمراض البدنية قد خلق الله لها عقاقير طيبة فيها خاصة الشفاء، وأرشد إلى البحث عنها والتداوى بها، وقد صح أن النبى ﷺ دخل على مريض يعوده، فلما رآه طلب من أهله أن يرسلوا إلى طيب، فقال قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ فقال عليه السلام: «نعم، إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء»، فعل النبى ﷺ ذلك إرشاداً لأمته إلى أن التداوى من الأمراض البدنية من طريق الطب البشرى الذى يعرف الدواء، أما القرآن فلم ينزله الله دواء لأمراض الأبدان، وإنما أنزله كما قال: دواء لأمراض القلوب وشفاء لما فى الصدور.

وإذا كانت أمراض الأبدان أمراضاً مادية، وشفائها بأدوية مادية، فأمراض القلوب أمراض معنوية، وشفائها بأدوية معنوية، والقرآن قد عالج مرض الجهل بالعلم، ومرض الشبهة بالبرهان، ومرض الشهوة بالحكمة، وما التداوى فى الأمراض البدنية بالقرآن إلا كقراءة الختمات للنصر على الأعداء فى ميدان القتال، وإلا كقراءة ما يسميه العامة عدية ياسين تحصيلاً للرغبات، كلاهما وضع للعلاج المعنوى مكان العلاج المادى، وكلاهما قلب لنظام الله تعالى فى خلقه، وعروج بالقرآن الكريم عما أنزل لأجله.

القراءة على الموتى^(١): أما استمطار الرحمة على الموتى، فإنه لا يكون إلا بعمل مشروع، كالصدقة، والصدقة، بشرط أن يكون خالصاً لوجه الله الكريم، أما ما لم يشرعه

الله ولم يأذن به أو شرعه، ولكن فعله الإنسان بأجر يأخذه من أخيه الإنسان، فثوابه هو ذلك الأجر، ولا ثواب له عند الله، وإذا لم يكن للقراءة ثواب عند الله لا للقارىء؛ لأنه أخذ أجره ممن استأجره، ولا للمستاجر؛ لأنه لم يقرأ شيئاً، فأى شيء يصل من هذه القراءة إلى الموتى؟ إن رحمة الله للموتى شأن من شئونه الغيبية استأثر بها، ومنه وحده تعرف سبلها، وقد بين تلك السبل فى كتابه الكريم، وكل ما يفعله المرء من تلقاء نفسه فى هذا الشأن هجوم منه على الغيب وتقول على الله بغير علم، وتحكم فيما لا يحكم فيه إلا الله.

التسول بالقرآن: وإذا كان التسول بالوضع الذى نراه اليوم يمقته فى ذاته الشرع والدين، وتأباه الكرامة والخلق، ولا ترضاه لنفسها أمة تريد المجد، فما بالناس به إذا اتخذ القرآن الكريم وسيلة له، واعترض به المارة فى الطرقات، والمصلين فى المساجد، والراكبين فى السيارات والقطارات. علينا أن نبذل قصارى جهدنا فى صيانة كتاب الله عن الابتذال، وأن نوجه الناس إلى جهة الانتفاع بالقرآن الكريم، وإلى ما يحفظ كرامتنا بين الأمم عن طريق الأسباب التى وضعها سيلاً للمجد والكرامة.

فضل بعض السور: أما ما جاء عن فضل سور القرآن وتلاوتها، من درجات الثواب التى يحصل عليها قارئ هذه السورة أو تلك، مما رددته بعض كتب التفسير، فالواقع أنى فى قراءتى لهذه التفسيرات انتهيت إلى أن ما جاء فى ذلك من أحاديث إنما قصد به التناسب بينها وبين ما احتوت عليه هذه السورة أو السور، واعتزنى شك من جهة أن سور القرآن البالغ عددها (١١٤) سورة، كان الرسول ﷺ يتحدث عن كل سورة منها بما يناسبها، والذى نعلمه أن الرسول ما كان يرتب الثواب على مجرد القراءة، وإنما كان يرتبه على الإيمان والعمل الصالح.

والمسألة ليست مسألة مجرد قراءة فحسب، ولعلك تدرى الحكمة القائلة: كم من قارئ يقرأ القرآن والقرآن يلعبه. وقد دفعنى ما وقعت فيه من شك أن أبحث عن أصل الأحاديث، فوجدت أنها ترجع إلى أصل واحد، وأن الذى تحث بها وتكلم بها رجل يسمى نوح ابن مريم، وقد سئل فى هذا، فقال: إنى وجدت الناس قد شغلوا بتاريخ ابن إسحاق، وفقه أبى حنيفة عن القرآن، فأحببت أن ألفتهم إلى القرآن، فوضعت هذه الأحاديث، حسبة لله.

الرؤية دعاء لا دواء: أما الرقى بالأدعية، فإنها تفسر على نوع من الدعاء، ولكنها لا تقبل على أنها دواء للمريض من الداء، فللأدواء علاجها مما خلق الله من العقاقير.

بعد هذا البيان لا يسعني إلا أن أدعو المسلمين إلى أن ينظروا للقرآن النظرة اللاتقة بمكانته، وأن يضعوه في المرتبة السامية التي وضعه فيها المسلمون الأولون، وأن يحوا من أذهانهم أن آياته نزلت لدواء الأبدان، أو لشفاء العليل، وإنما هو هدى ورحمة وتشريع، وتنوير للبصائر، وسمو بالإنسانية، وتقويض للشرك، وهدم للباطل، ونصرة للحق، والله يهدينا سواء السبيل.



وجوب طاعة الله وطاعة رسوله، ووعيد المخالفين

وطاعة الله في اتباع كتابه، وطاعة الرسول في اتباع سنته، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

وقال جل علاه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنْتُمْ كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة:

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور:

٥٢].

وقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ

يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

وقال: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ

الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾

[محمد: ٣٣].

وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

* * *

الأمر بتقدير وتفهم القرآن

﴿حم تنزيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بِشِيرًا

وَنذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤].

وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:

٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ^(١) [القمر: ١٧].

وقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾

[المدثر: ٤٩، ٥١].

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ [الجمعة: ٥].

(١) أى يسرنا لفظه ومعناه فهل من متذكر منزجر به.

وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال لنبينه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٢) [فصلت: ٤٤].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُتِّمْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَكْصُونَ﴾^(٤) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا^(٥) تَهْجُرُونَ أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٦ - ٦٨].



وعيد المعرضين عن القرآن

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبُّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

وقال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠١].

وقال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ^(٦) نُقَبِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

(١) الوقر: الثقل في الأذن.

(٢) أى كان من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون منه ما يقوله لهم «كمثل الذى يتعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون».

(٣) أم: بمعنى بل، أى بل على قلوب أفعالها فهى مطبقة لا يصل إليها شىء من معانى.

(٤) النكوص: الإحجام عن الشىء والرجوع.

(٥) أى تسامرون ويقولون القول الفاحش فى النبى ﷺ.

(٦) الإعشاء: عدم الإبصار بالنهار.

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَّقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال: ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧].



فضائل قراءة القرآن وفضائل بعض سورته وآياته

عن أبي أمامة، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم، رحمه الله.

وعن النواس بن سمعان، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما» رواه مسلم.

وعن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه البخارى.

وعن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة^(١) الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» متفق عليه.

وعن أبي موسى الأشعري، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة^(٢) ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل الثمرة لا ریح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الخنظلة ليس لها ریح وطعمها مر» متفق عليه.

وعن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» رواه مسلم.

(١) السفرة الملائكة، والبررة أى أخلاقهم حسنة وأفعالهم بارة.

(٢) الأترجة: فاكهة.

وعن ابن عمر، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء^(١) الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» متفق عليه.

وعن البراء بن عازب، رضى الله عنه، قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطين^(٢) فتغشته سحابة، فجعلت تدنو، وجعل فرسه ينفّر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال: «تلك السكينة تنزل للقرآن» متفق عليه.

وعن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب» رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عمرو بن العاص، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» رواه أبو داود والترمذى، وقال: حسن صحيح.

وعن أبى سعيد رافع بن المعلى، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟»، فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن، قال: «الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته» رواه البخارى، رحمه الله.

وعن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: فى قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾: «والذى نفسى بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن». وفى رواية أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن فى ليلة؟»، فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ الله الصمد» ثلث القرآن» رواه البخارى.

وعنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقاهها، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى

(١) آناء: ساعات.

(٢) الشطن: الحبل.

بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» رواه البخارى.

وعن أنس، رضى الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنى أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، قال: «إن حبها أدخلك الجنة».

وعن عقبه بن عامر، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] رواه مسلم.

وعن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلت أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] رواه أبو داود، والترمذى، وقال: حديث حسن. وفى رواية أبى داود «تشفع».

وعن أبى مسعود البدرى، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه»^(١) متفق عليه.

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة» رواه مسلم.

وعن أبى بن كعب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟»، قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فضرب فى صدرى، وقال: «ليهنك العلم أبا المنذر» رواه مسلم، وفى البخارى فى حديث آخر طويل: «من قرأ آية الكرسي عند نومه لم يقربه شيطان».

وعن أبى الدرداء، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وفى رواية: «من آخر سورة الكهف» رواه مسلم.

وعن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: بينما جبريل، عليه السلام، قاعد عند النبى ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح

(١) كفتاه ما أهمه.

قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين لم يؤتتهما نبي من قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيتها» الحديث رواه مسلم فى صلاة المسافرين، بأب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

وروى الحاكم فى المستدرک بإسناد صحيح، عن معقل بن يسار، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «اعملوا بالقرآن، أحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، واقتدوا به، ولا تكفروا بشيء منه، وما تشابه عليكم فردوه إلى الله وإلى أولى العلم من بعدى كيما يخبروكم، وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزيور، وما أوتى النبيون من ربهم وليسلم القرآن وما فيه من البيان، فإنه أول شافع مشفع، وما حل^(١) مصدق، وإنى أعطيت سورة البقرة من الذكر الاوّل^(٢) وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب من تحت العرش».

وروى الدارامى والترمذى، رحمه الله، عن أنس، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» ورمز فى الجامع لضعفه، وصححه شارحه، وقال الشوكانى فى التحفة: قال الترمذى: هذا حديث غريب.

وأخرج النسائى، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، رحمهم الله، عن معقل بن يسار، عنه ﷺ أنه قال: «قلب القرآن يس، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، أقرءوها على موتاكم» أى من حضر الموت. قال فى التحفة: وصححه ابن حبان والحاكم.

وأخرج ابن حبان وابن السنى، عن جندب، رضى الله عنه، أنه ﷺ قال: «من قرأ يس فى ليلة القدر ابتغاء وجه الله غفر له»، وأخرجه الطبرانى، عن أبى هريرة، وفى إسناده غالب بن تميم، وهو ضعيف. وأما حديث: «من داوم على قراءة يس فى كل ليلة، ثم مات، مات شهيداً»، فى إسناده سعيد بن موسى الأزدي، وهو كذاب.

وروى البخارى، عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس»، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

(١) أى خصم مجادل مصدق. أ. ه. نهاية.

(٢) وهو الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين.

وروى الترمذى، والحاكم، عن ابن عباس، رضى الله عنه، أنه ﷺ قال: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ [الزلزلة: ١] تعدل نصف القرآن، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] ثلث القرآن، و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١] تعدل ربع القرآن» وصححه فى الجامع وشرحه، ولكن قال فى التحفة: قال الترمذى بعد إخراجها: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة الذى هو العنزى. قال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء. وقال البخارى: منكر الحديث. وضعفه أبو زرعة، والدارقطنى. وقال ابن عدى: لا أرى به بأساً، فالعجب من الحاكم حيث صحح حديثه أهـ.

وأخرج الحاكم، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟»، قالوا: ومن يستطيع ذلك؟ قال: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾» [التكاثر: ١]. أخرجه الحاكم، عن عقبه بن محمد، عن نافع عن ابن عمر. قال المنذرى: ورجال إسناده ثقات، إلا أن عقبه لا أعرفه.

وعن أنس، أنه ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟»، قال: لا، والله يا رسول الله ما عندي ما أتزوج به، قال: «أليس معك ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ ﴾؟» قال: بلى، قال: «ثلث القرآن»، قال: «أليس معك ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾؟» [النصر: ١]، قال: بلى، قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾؟» [الكافرون: ١]، قال: بلى، قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾؟» [الزلزلة: ١]، قال: بلى، قال: «ربع القرآن، تزوج، تزوج» أى بما معك من القرآن». قال فى تحفة الذاكرين: قال الترمذى بعد إخراجها: هذا حديث حسن، وقد تكلم فى هذا الحديث مسلم فى كتاب التمييز، وهو من رواية سلمة بن وردان، عن أنس. قال أبو حاتم: ليس بقوى، عامة ما عنده عن أنس منكر. وقال يحيى بن معين: ليس حديثه بذلك أهـ.

وفى الجامع وصححه: «من قرأ فى ليلة مائة آية لم يكتب من الغافلين». وفى الدرামী: «من قرأ مائتى آية فى ليلة كتب من القانتين»، و«من قرأ فى ليلة ثلاثمائة آية كتب له قنطار»، و«من قرأ ألف آية كتب له قنطار من الأجر، والقيراط من ذلك القنطار لا يفى به دنياكم». وفى رواية: «والقيراط من القنطار خير من الدنيا وما فيها واكتسب من الأجر ما شاء الله»، وهذه الأحاديث، وإن كان فيها مقال، فهى داخلة تحت عموم حديث: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها...» الحديث، والقرآن كلام الله وفضائله لا تحصى.

تحزيب القرآن

قال فى المعنى: يستحب أن يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام ليكون له ختمة فى كل أسبوع.

قال عبد الله بن أحمد: كان أبى يختم القرآن فى النهار فى كل سبعة، يقرأ فى كل يوم سبعا لا يتركه نظرا. وقال حنبل: كان أبو عبد الله يختم من الجمعة إلى الجمعة، وذلك ما روى أن النبى ﷺ قال لعبد الله بن عمر: «اقرأ القرآن فى سبع، ولا تزيدن على ذلك» رواه أبو داود.

وعن أوس بن حذيفة، قال: قلنا لرسول الله ﷺ: لقد أبطأت عنا الليلة، قال: «إنه طرا على حزبي من القرآن، فكرهت أن أخرج حتى أمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث^(١)، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده. رواه أبو داود.

ويكره أن يؤخر القرآن أكثر من أربعين يوماً؛ لأن النبى ﷺ سأله عبد الله بن عمرو: كم تختم القرآن؟ قال: «فى أربعين يوماً»، ثم قال: «فى شهر»، ثم قال: «فى عشرين يوماً»، ثم قال: «فى خمس عشرة»، ثم قال: «فى عشر»، ثم قال: «فى سبع»، لم ينزل من سبع^(٢) أخرجه أبو داود. قال أحمد: أكثر ما سمعت أن يختم القرآن فى أربعين، ولأن تأخيره أكثر من ذلك يفضى إلى نسيان القرآن، والتهاون به، فكان ما ذكرنا أولى، وهذا إذا لم يكن عذر، فأما مع العذر فواسع له. أ.هـ.

* * *

لا تعرض عن قراءة القرآن

إذا عرفت فضل القرآن العظيم، وفضل بعض سوره وآياته، وعرفت وافر وجزيل أجر تلاوته، وعلمت كيفية تحزيب النبى ﷺ وأصحابه للقرآن، وترتيبهم له على الأيام والليالى، حق لنا أن نقول لك أيها المسلم المتبع لأعظم رسول: لا تعرض عن قراءة كتاب ربك إلى قراءة أورد المشايخ وأحزابهم، فإن الأجر كله، والثواب كله، والفضل العظيم كله، والنصح، والإرشاد، والوعظ، والهدى، والنور كله، والصراط المستقيم إنما هو فى تلاوة كتاب الله تعالى.

(١) أى نقرأه فى ثلاث إلخ.

(٢) أى عن سبع.

فيا متبع الرسول الأعظم، إياك ثم إياك وما ابتدع، فإنه ضلالة، واعلم أنه لا يجوز لك أن تقرأ دعاء البسملة، ولا ورد الجلالة ودعاءها للجيلاني؛ لأنه يصدك عن القرآن، ولا يجوز لك أن تقرأ مسبعات، ولا منظومة الدردير، ولا ورد السحر، والميمية، والمنهجة الكبرى، بل اقرأ بدل هذا أحزاباً من القرآن تنفعك قراءتها يوم لقاء ربك، ولا سيما قراءة التدبر والتفقه.

أيها العاقل، هل حزب البر، والبحر، والنصر، وحزب الرفاعي الكبير والصغير، وحزب الدسوقي الكبير والصغير أيضاً، وحزب النووي والبيومي، وحزب الوقاية المسمى بالدور الأعلى، بل وجميع مجموع الأوراد، خير أو حزب واحد، أو سورة واحدة من القرآن العظيم؟! لا بل آية واحدة، بل حرف واحد من كتاب الله، لا شك أنك تعترف أنه أعظم وأجل ألف مرة، بل لا مناسبة بالكلية، وأنت تشهد وتقر معي بذلك، ولا أظنك تنكره، إن جميع ما في مجموع الأذكار الطيبة للطرق السبعة، وجميع ما في كتاب مجموع أوراد الخلوئية والمرغنية، وأوراد الخليلية، وحرز الجوشني، وحرز الغاسلة، والجلجوتية، والبرهتية، لا شك أنه من عند غير الله، ولا شك أنه شرع لم يشرعه الله ولا رسوله، فصار بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ولعلك تقول: إن هذه الأحزاب والأوراد لا تخلو من آيات قرآنية فيها، فنقول لك: القرآن كاللبن النقي الخالص، وأحزابكم وأورادكم كاللبن المخلوط بالدم، أو كاللبن الاصطناعي، فأيهما ترتضيه لنفسك؟ الأول لا شك، بل ما في القرآن من الموعدة، والشفاء، والرحمة، والتذكير، والهداية، والعبرة، والأمر، والنهي، والترغيب، والترهيب، وذكر عظمة الله وكبريائه، وتعريفك برسول الله، ورسوله، وقصص الأنبياء وأتباعهم، وما فعل الله بالطاغين والعاصين، وما أعد له لأهل طاعته من النعيم المقيم، وغير ذلك مما لا يمكننا عدده، ولا حصر بعضه، وليس يوجد من ذلك حرف واحد في أورادكم ولا أحزابكم، فما هي إلا عبادات مخترعات.

وشيء آخر هو أنك لا تقرأ بحرف واحد من كتاب الله إلا أوتيت أجره، كما في الحديث الصحيح: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، والله يضاعف لمن يشاء»، فما هو ثواب من قرأ حزب الجيلاني كله من أوله إلى آخره ألف مرة، وما ثواب من يقرأ حزب البكري، بل وما ثواب من يقرأ جميع مجاميع الأوراد كلها حرفاً حرفاً؟ لا يمكنكم أصلاً أن تقدرُوا لقارئها ثواباً كثواب قراءة أصغر سورة في القرآن، بل ولا آية،

ولا حرف واحد، فإن قدرتم وقلتم فظن و ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، بل ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، بل يكون افتراء وكذباً على الله، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ [الصف: ٧].

فيا أيها المسلمون ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقص عليكم أحسن القصص فى كتابه، فلا تعدلوا عنه وتتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هوكوا وتهوكوا^(١)، يا قوم «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتاب ربهم الذى أنزل على نبيهم»، كذا فى الحديث، يا قوم حذار حذار من الإعراض عن كتاب الله، فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، ويقول: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٢) [الزخرف: ٣٦]، ويقول لنبيه: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْرًا مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠١]، ويقول: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّي سَلْكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾^(٣) [الجن: ١٧].

يا قوم، إنى أقول والحق أقول: إنه لا يرغب عن كتاب ربه إلى مخترعات الشيوخ إلا من سفه نفسه، وضل سعيه، وزين له الشيطان عمله، فصدته عن السبيل، فحزبوا وجزئوا القرآن، وقسموه على أيامكم ولياليكم، وحلوا وارتحلوا فيه من أوله إلى آخره، واجعلوا المصحف فى جيوبكم دائماً وأبداً، بدل المجموع، ولكن أكبر ما تمنعون فيه النظر بعد القرآن أحاديث الرسول، والتعبد بالأدعية والأذكار المروية عنه فى الكتب التى ذكرناها لكم، وهذا فيه الغنية التامة، والكفاية العظمى عن جميع ما تقرأونه من الأوراد، والأحزاب، والدلائل، والتوسلات التى لم يتعبد بحرف واحد منها أحد من الصحابة، ولا التابعين، ولا أئمة الدين، أسأل الله لى ولكم الهداية والاعتصام بكتابه وسنة نبيه، آمين.



(١) التهوك: كالتهور وهو الوقوع فى الأمر بغير روية، وقيل: هو التحير. اهـ. نهاية.

(٢) قرين: أى صاحب ملازم له.

(٣) صعداً: أى متزايداً؟.

بدعية جمع القراءات فى سورة أو آية واحدة

سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، عن جمع القراءات السبعة، هل هو سنة أم بدعة؟ وهل جمعت على عهد رسول الله أم لا؟ وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية أم لا؟ فأجاب بقوله: الحمد لله، أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة، فإن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول، فمعرفة القراءات التى كان النبى ﷺ يقرأ بها، أو يقرهم على القراءة بها، أو يأذن لهم وقد أقرئوا بها سنة، والعارف بالقراءات الحافظ لها، له مزية على من لم يعرف ذلك، ولا يعرف إلا قراءة واحدة، وأما جمعها فى الصلاة أو فى التلاوة، فهو بدعة مكروهة، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس، فهو من الاجتهاد الذى فعله طوائف فى القراءة، وأما الصحابة والتابعون، فلم يكونوا يجمعون، والله أعلم.

وقال فى موضع آخر: وأما الجمع فى كل القراءة المشروعة المأمور بها، فغير مشروع باتفاق المسلمين، بل يخير بين تلك الحروف، وإذا قرأ بهذه تارة وبهذه تارة كان حسناً. وقال بعد حديث الصحاح وهو: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فاقروا بما تيسر»، ومعلوم أن المشروع فى ذلك أن يقرأ أحدها أو هذا تارة وهذا تارة لا الجمع بينهما، فإن النبى ﷺ لم يجمع بين هذه الألفاظ فى آن واحد، بل قال هذا تارة وهذا تارة.أ.هـ.



بدع وضلالات متعلقة بالقرآن العظيم

فمن ذلك أخذ الفأل والبخت من المصحف، ولا أدرى ماذا يصنع صاحب البخت إن وقف على آية: ﴿فَأَذِنُوا لِحَرَابٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، أو: ﴿لَنْسَفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، أو: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]، أو: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] مثلاً. وفى كتاب أدب الدنيا والدين، أن الوليد بن يزيد تفاعل يوماً فى المصحف، فخرج له قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فهأنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد
فلم يلبث إلا أياماً حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره، فنعوذ بالله.

وهذا فعل مذموم جداً يجب تركه ومحاربه، وكذا قولهم: إن النبي ﷺ يحزن ويتألم من قراءة سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١] لأجل عمه، فلا تقرأ ولا يصلى بها، وكيف ذلك وقد أنزل الله: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المتحنة: ١] الآية، واعتقادهم أن من حلف على المصحف يصاب بالعمى والكساح هو من خرافاتهم وجهالاتهم المضحكة، وإنما هو يمين يكفر عنها إن رأى أن غيرها خير منها على بعض المذاهب، وإلا فهو يمين غموس، أى يغمس صاحبه فى النار، وقراءتهم سورة يس أربعين مرة بدعائها المخترع المحدث لإهلاك شخص، أو فك مسجون، أو قضاء حاجة، جهل أيضاً وبعد عن اتباع الحقائق الشرعية.

وحديث: «يس لما قرئت له». قال الحافظ السخاوى: لا أصل له، وكذا حديث: «خذ من القرآن ما شئت لما شئت»، فتشت عنه كثيراً فى الكتب، فلم أجد له أصلاً، وفى آخر تفسير سورة يس من البيضاوى والنسفى أحاديث موضوعة فى فضلها، فينبغى أن لا يعول عليها، وجمع آى سجديات القرآن والسجود عند كل آية بدعة تقدم الكلام عليها، وجمع تهليلات القرآن كما فى حزب البيومى، ابتداء فى الدين، واختراع لا يرضى، وقراءة النساء القرآن على الرجال فى المحافل وغيرها ممنوع شرعاً، وقد قال الرسول ﷺ: «إذا نابتكم نائبة فى صلاتكم فسيبوا، إنما جعل التصفيق للنساء»، كذا فى الصحيح، أينهاهن الرسول عن التلفظ بسبحان الله فى الصلاة ونجسهن بيننا للتغنى بالقرآن على مقعد خاص فى محافل الرجال؟ ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، وكتب آيات السلام كـ ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ [الصفات: ٧٩] بدعة ضلالة أيضاً.

وجعلهم المصحف حجاباً يعلقونه على أنفسهم، وعلى مواشيهم جهل شنيع وبدعة، وحمل النساء له أيام حيضهن، ونفاسهن، ووقت جنابتهن، ضلال كبير، وامتهان لكتاب الله القدير، وخبر نزول دم عثمان عند قتله على كتاب الله على لفظ: ﴿ فسيكفونهم الله وهو السميع العليم ﴾ [البقرة: ١٣٧] باطل لا أصل له، كما فى أسنى المطالب، وحديث شهورش قاضى الجن الذى فيه: حدثنى سيد المرسلين محمد ﷺ قال: «حدثنى جبريل، قال: حدثنى إسرافيل عن رب العزة أن من قرأ سورة الفاتحة فى نفس واحد لقضاء حاجة قضيت»، هذا باطل معارض بما عرف من أنه ﷺ كان إذا قرأ يقف على رءوس الآى ويمدها، ثم لماذا وما فائدة قراءتها فى نفس واحد؟ إن هذا لمن أفرى الفرى على الله ورسوله، ولو كان صحيحاً لثبت فى الصحاح والسنن، واشتهر على

السنة الصحابة والتابعين، ولم تقتصر روايته على شهورش الجنى.

وإننى لأعجب كيف يروج هذا على عقول العلماء؟ وكيف يقبلونه؟ وكيف يحفظونه ويقروونه على الناس، وفي مصنفاتهم يكتبونه؟ وقد سمعت هذا الحديث من شيخ أزهري يقال له: عالم، وقرأته على ظهر كتاب لشيخ من المتأخرين، فيا للأسف على فساد عقول رؤساء الدين، ورواج الأباطيل والأضاليل والترهات على من اشتهر من بين الناس بأنهم كبار المسلمين، وعلى عدم معرفتهم بين الصحيح والمكذوب على الرسول الأمين ﷺ.

وإننى والله لا أثق أبداً بعلم ولا دين هؤلاء ما داموا لا يفرقون بين الحق والباطل، والصحيح والموضوع، ولا بين الأنوار الربانية الحمديدية، والظلمات الشيطانية.

والدعاء الذى فى آخر المصاحف لا يجوز التعبد به قطعاً، بل هو مذموم وممنوع شرعاً؛ لأنه مخترع وليس مأثوراً، بل كله بدع ضلالات، وتوسلات موضوعات، فلا تحل قراءته، بل ولا كتابته فى آخر المصاحف، والقرآن والسنة كافيان شافيان، قال الله تعالى مسفهاً وعائباً أحلام من لم يكتبوا بكتاب الله: ﴿أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ [العنكبوت: ٥١]، وفى الحديث: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتاب نبيهم أنزل على نبي غير نبيهم» رواه أبو داود فى مراسيله.

فكيف بكم وقد أصبحت جل عباداتكم لا هى عن نبي من أنبياء الله المتقدمين، ولا هى عن نبيكم محمد ﷺ، ولا عن أصحابه، بل أوحى بها الشيطان على بعض المتعالين، فحذار من التعبد بما لم ينزل على نبيكم، ولا فعله أصحاب نبيكم، إذ المتعبد به بدعى، جاهل، غبى.

وقراءة الختمات التى يعملونها للأموات ويجمع لها القراء ويفرقون على بعضهم أجزاء الأربعة - المصحف - ثم يستفتحون القراءة ويختمونها جميعاً فى ساعة، ثم يهدون ثواب ما قرأوه للمتوفى، بدعة ضلالة فاعلها غاية الجهالة، ولو عاشوا عمر نوح يبحثون فى الشريعة الغراء على دليل يدل على ذلك لما وجدوه، وهؤلاء لو أن الداعى لهم أخرج لهم الغداء أو العشاء قليلاً، أو أعطاهم قروشاً قليلة، لفضحوه وسبوه ولعنوه لعناً كبيراً، فنعوذ بالله من الجهل والشقاء والخيبة.

والقارئ، الفقى، الراتب فى البيوت دائماً وفى رمضان بدعة، ودخولهم على النساء

حال غياب الرجال مفسدة ودياته، وشحذ القراء بالقرآن فى الشوارع والطرقاى ضلال كبير، وشر خطير، ولو استغنوا بتجارة أو صناعة لغناهم الله قطعاً: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وفى الحديث عنه ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً» رواه الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجه، والحاكم، عن عمر بسند صحيح كما فى الجامع، فاتقوا الله أيها القراء، وتوكلوا على الله وتحرفوا لدياكم، «فإن الله يحب العبد المؤمن المحترف، واعرفوا ربكم وادعوه، فإنكم لو عرفتم الله حق معرفته لزالى لدعاكم الجبال» وذكرهما فى الجامع.

وقراءة الفاتحة زيادة فى شرف النبى ﷺ بدعة لا أصل لها، وقد قال تعالى: ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ولم يقل: اقرءوا عليه، وقراءة الفاتحة بنية قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهلاك الأعداء، بدعة لم يأذن بها الدين، وقراءة الفاتحة بالسماح كما يفعله الفقراء بدعة، وقراءة الفاتحة عند شرط خطبة الزواج واعتقادهم أن قراءتها عهد لا ينقض بدعة واعتقاد فاسد وجهل.

وقراءة سورة الفيل إلى ﴿ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ٥] ثم تكرير ﴿ كَعَصْفٍ ﴾ مرات لأجل إسكات الكلاب عن النباح، واعتقادهم أنها تمنع الكلب عن عض الإنسان، وأنه إذا قرأ لفظه ﴿ مَأْكُولٍ ﴾ عضه الكلب، هذا هو كلام واعتقاد من لا عقل له ولا دين.

والمسبعات: الفاتحة، والمعوذتان والإخلاص، والكافرون سبعاً سبعاً بدعة، لم يرد فيها ولا حديث ضعيف، ولم يتعبد بها الرسول ﷺ، ولا أحد من خلفائه، ولا أصحابه، فما هى إلا منام رآه إبراهيم التيمى، وليست المنامات شريعة يتعبد بها.

والفائدة التى يعملونها لجلب الرزق، ويصومون عن أكل كل ذى روح أياماً، ويحتجبون عن الناس فى الخلوة فى مكان مظلم، ويكررون عقب كل صلاة مئات المرات آية: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢] هى باطلة قطعاً، ولا تعود على صاحبها بأدنى فائدة، بل بالخيبة الدائمة، والذى يجلب الرزق حقاً، ويفتح لك بركات السماء والأرض، إنما هو تقوى الله، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقولهم: كان السيوطى إذا أراد أن يفسر القرآن، خرج إلى الجبل ففسره هناك خوفاً من الخطأ فى التفسير، فإنه ينزل الغضب على أهل البلد، كلام باطل لا أصل له البتة، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان، ليصدهم به عن سبيل الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، أى متذكر ومتعظ به، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ولهذا الجهل الفاشى بينهم، ترى الناس جميعاً، حتى حملة القرآن، يتحاملون عن التكلم فى معنى آية من كتاب الله، وإن كان أحدهم حافظاً لمعناها، وإن كان سمع تفسيرها عشرين مرة، وإن كان قرأها فى التفسير مائة مرة، فتراهم يتناهون بحدة وشدة، يقولون: ارجع ارجع أحسن تنزل علينا الغضب، ما لك وما للتفسير، خلى التفسير لأصحابه يا عم.

ومن هنا عم فىنا الجهل وطم، وساءت أخلاقنا، وسفهت أعلامنا، وقست قلوبنا، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وعصى الله ورسوله جهاراً، وبعدنا عن كل فضيلة، ووقعنا فى كل رذيلة، حتى صرنا أذل وأحقر الأمم بعد أن كانت العزة والسلطان لنا، وكل هذا بسبب هجرنا وبعدنا من تعاليم القرآن السامية، وعدم اعتناقنا لأوامره ونواهيه، وإعراضنا عن فهمه وتدبر معانيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقوله: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاةُ﴾ [الكهف: ٥٧].

واعتقادهم كفر من غلط، أو لحن فى قراءة سورة الكافرين اعتقاد باطل فظيع شنيع، ومتى يتعلم الإنسان دينه، وكتاب ربه، إذا كان بغلطة ينزل عليه وعلى أهل بلدته المقت والغضب، ويلحنه يكفر ويخرج من الدين؟ نعوذ بالله من ضلال المضلين، ومن الشيطان الرجيم، لما علم الشيطان عظم أجر هذه السورة ألقى هذا بين الناس.

فقد روى الطبرانى، والحاكم، أنه ﷺ قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، ﴿وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن» حديث صحيح، كما فى الجامع، وقد تقدم فى الحديث المتفق عليه أن: «الذى يقرأ القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق له

أجران»، وورد: «من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف منه عشر حسنات، ومن قرأه ولحن فيه، فله بكل حرف حسنة» وصححه ابن قدامة.

وكتاب الدر النظيم فى خواص القرآن العظيم لا تجوز قراءته، ولا العمل بما فيه، وليس فيه جملة نافعة، ولا فائدة صادقة، بل كل فوائده وجملة كاذبة خاطئة، ومثله كتاب الفوائد فى الصلوات والعوائد، إلا أن هذا خلط، فجمع بعضاً من الصحيح، والضعيف، وبقيته أكاذيب، وخرافات، وأباطيل، وترهات، وأضاليل، وتمويهات، أعاد الله منها المسلمين والمسلمات.

وقولهم لقارئ القرآن: الله الله، كمان، كمان يا أستاذ، هيه هيه، الله يفتح عليك، حرمة الله بقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، والحق أنهم لم يلتذوا بألفاظ القرآن؛ لأنهم لم يفقهوا لها معنى، بل ما كانت لذتهم إلا من حسن نعمة القارئ، والدليل على ذلك أنه لو قرأ قارئ ليس حسن الصوت، السورة بعينها، التى كانت تتلى عليهم لانفضوا من حوله، ساين لاعتين له ولمن جاء به، قائلين: جايب لنا فى حسه زى حس الوابور.

ولقد وصف الله المؤمنين من عباده بأنهم: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال فيهم أيضاً: ﴿تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].



ذكر أسباب إعراض الناس عن القرآن

هذه الأسباب كثيرة جداً، وليس منها ما يعد عذراً مقبولاً عند الله تعالى، وسنين لك هذا إن شاء الله، فنقول: المعرضون طوائف:

الطائفة الأولى: العلماء، ولإعراضهم عن القرآن سببان:

السبب الأول: أن الكتب التى يقرأونها ويتدارسونها لم توصلهم إلى إدراك حقائق هدايته، ولم تكشف لهم أنواره الربانية، وأسواره الصمدانية، ومواعظه الرحمانية، وإرشاداته المؤثرة، وترغيبه وترهيبه، وقصصه، وعجائبه، ومحاسنه، وغير ذلك مما لو أنزله الله: ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ذلك لأنها مشحونة بالمسائل المنطقية والبيانية والفلسفية، وإظهار وجوه الإعراب والصرف،

ولذلك كانت الهداية والدلالة بها على الله ودينه قليلة جداً، ولذا نرى كثيراً منهم يتركون الصلاة، وينقرونها نقراً، مخلين بها، ويرتكبون الكبائر من المحرمات، فقطعاً هم لم يذوقوا طعم القرآن، والله لو ذاقوا طعمه وحلاوته ولذة مناجاته تعالى لما وقعوا في محارم الله، ولأداهم ذلك إلى الجهاد في سبيله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، وخصوصاً في عصرنا هذا الذي سالت فيه سيول الفتن والأضاليل، وكادت عواصف الملحدين والزائغين والمبتدعين تنسف أنوار الهداية الحمودية نفساً.

وهذا هو مقتضى القرآن والإيمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فليس صادقاً في إيمانه من لم يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، وأى جهاد أعظم من دعوة الناس جميعاً إلى الاستمسك بالقرآن ونواحيه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإلا فبالعنف والشدة، كما قال تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] الآية.

فلما لا تظهرون للناس عجائب القرآن السامية، ومعجزاته الهداية، وعلومه العالية، وقصصه الوعظية، وسياسته الاجتماعية، وإدارته المدنية بأساليب الإقناع العصرية، التي انتهجها أخوكم صاحب المنار في تفسيره، وفي كتابه الوحي المحمدي، الذي أظهر فيه علوم القرآن ومعجزاته ما يحتاج إليه العالم الإنساني، فتضاربون بأعاجيب كتاب ربكم، وسنن نبيكم، وحلاوة فصاحتكم، وعدوية بلاغتك، أعاجيب السينمات والتياترات واللونباركات ومسارح الرقص والغناء، إنكم لما أعرضتم عن تعليم وإرشاد وجهاد أبنائكم وإخوانكم، أعرضوا عنكم وانصرفوا إلى ملاذهم وشهواتهم، فاللوم عليكم.

ثم لماذا لا تكاتبون حكومتكم الإسلامية بذلك؟ لماذا لا تتخذون رؤساء الحكومة إخواناً لكم، فترغبون في القرآن والإيمان ورضاء الرحمن؟ وجنة عالية قطوفها دانية؟ وترهبونهم من ترك القرآن ومعصية الرحمن، ومن ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١١] ومن ﴿سَمُومٌ وَحَمِيمٌ وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٤٢ - ٤٤]، إنكم لو فعلتم ذلك لوجدتم وفاقاً، واتفاقاً، وألفة، ومحبة، ومودة بين سائر المسلمين، فلما لم تفعلوا أحل بنا ما حل، فأنتم المسئولون بين يدي ربكم عن ضياع هذه الأمة بسبب إعراضكم عن كتاب الله.

السبب الثاني: مرتباتهم الضخمة، وجراياتهم الكثيرة، فإن الذين يأخذون خمسين وستين جنيهاً، إلى تسعين ومائة، إلى خمسمائة وستمائة، مرغمون ومضطرون إلى تميق

مآكلهم، ومشاربهم، وملابسهم، ومناكحهم، ومساكنهم، وأتوميلاتهم، وجراجاتهم، واستثمار أموالهم، وتكثير أطيانهم وعزبهم، وقصورهم، وبنائهم، وتشبيدهم، وتجديدهم، وتصليحهم، لكل ذلك وهذا وغيره يحتاج ضرورة إلى ضياع أكثر الأوقات.

ثم اعلم أنا لا نقول لهم: ألقوا بأموالكم فى البحر، أو بددوها، أو وزعوها على الناس، كلا كلا، بل نحن نعلم أن عزة الإسلام والمسلمين لا تكون إلا بالأموال، ولكننا نقول لهم: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١]، انشروا علوم الإسلام على المسلمين، وافتحوا لهم فى البلاد المدارس، وقرروا فيها حفظ القرآن، وتدريس التفاسير وكتب السنة والتوحيد، ووظفوا فيها العلماء العاملين، ورتبوا لهم المرتبات، واحبسوا عليها الأوقاف، فإن خريجي الأزهر يكثرون عاماً بعد عام، ولا يجدون كسباً يعيشون به كما تعيشون، بل هم عالة على أهليهم وأقاربهم وعلى الناس، يعملون كل الوسائل للحصول على وظيفة بمسجد يتعيشون منها، ويجلسون ينتظرون السنين العديدة حتى يبيعوا كتبهم ويخرجوا إلى بلاد الأرياف كى يسهر الواحد منهم فى رمضان عند رجل بجنيه واحد، وبعضهم يعطون فى المساجد، وبعد الوعظ يقول الواحد للناس: إننى عالم مسافر إلى بلدى، وليس معى ما يوصلنى فساعدونى، وبعضهم يبكى ويقول: احترق منزلى أو ثيابى، أو يقول: سرقنى النشال، وهم كاذبون.

وإنما أوقعهم فى الكذب شدة ما هم فيه من الفقر والفاقة، فهلا كفيتم هؤلاء المساكين ذل السؤال؟ هلا سافرتم إلى البلاد ففتشتم على بلد ليس فيه علم فأسستم فيه مسجداً ورتبتم فيه عالماً؟ هلا أرسلتم على نفقاتكم وعاطفاً يجوبون البلاد، ويعلمون العباد، وينشرون الإصلاح، ويخمدون نار الإفساد؟ كلا بل أهتكم أموالكم عن تبيان أوامر الله ونواهيه، وهلا تدبرتم قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

الطائفة الثانية: جماعة الأغنياء البخلاء، أطغتهم الأموال، وأهتهم الآمال، فكانوا ممن أو كمن قال الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، منعوا الزكاة المفروضة، والنفقات الواجبة والمندوبة، فعشوا عن

القرآن الكريم، والذكر الحكيم، فسلط الله عليهم الشياطين، يدعونهم إلى الشر، ويأمرونهم بالنكر، وينهونهم عن المعروف، ويجرونهم إلى السينمات، وحفلات الرقص والغناء، ويصدونهم عن الجمعة والجماعات، وسماع القرآن والخطب، فهم يجاهدون في سبيل الشيطان بأموالهم وأنفسهم معرضون عن الحق، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فيا أغنياء المسلمين ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

الطائفة الثالثة: القراء الذين لا يقرءون القرآن إلا لجمع حطام الدنيا، فيتلونه في حفلات المآتم والختمات والليالي، وكثير منهم يتعلمون القراءات لأجل التعيش، ولأجل أن يرغبوا فيه أكثر من غيره، ولأجل أن يكتسب هو أكثر منهم، ولو سألتهم عن معنى كلمة واحدة من كتاب الله لعجزوا، ومن الناس من لا يحفظون أولادهم القرآن إلا لأجل إعفائهم به من القرعة العسكرية، ومنهم من يعلمونه أبناءهم وبناتهم العميان لأجل المعيشة والارتزاق، وما لهذا أنزل القرآن.

الطائفة الرابعة: المتصوفة، والسبب في إعراض هؤلاء الناس عن القرآن إنما هو اشتغالهم بأحزاب مشايخهم، وأورادهم، وبالبيارق، والبازات، والليالي، والختمات، والموالد، والحضرات، والمنامات، والتخمير بسانوريا مانورياسبا بينيرا، والواجب على العلماء أن يجاربوا هؤلاء الأقوام.

الطائفة الخامسة: جماعة المتفرنجين والصناع، وهؤلاء قد شغلوا بقراءة الجرائد السياسية، والمجلات الفكاهية والهزلية، وكتب الحكايات والروايات والقصص والأشعار، كالزير سالم، وأبو زيد، والمهلل، فتراهم يحفظون الكثير من المسائل الطويلة السياسية، والحكايات والقصص والفكاهات والشعر وغير ذلك، ويحفظون قليلاً ولا كثيراً من علوم الإسلام، بل يعدون المقبلين على فهمها والعمل بها مجانين، أو عقولهم متأخرة، وهؤلاء كل آية في القرآن نزلت فيمن يعرضون عن ذكر ربهم تصفعهم هم على نواصيهم، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقد وصف الله المعرضين عما ذكروا به بالحمر، فقال: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (١) [المدثر: ٤٩، ٥١].

وقال فى أمثالهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ^(١) مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ^(٢) بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ لَكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ﴾^(٣) [المؤمنون: ٦٣ - ٦٦]

الطائفة السادسة: الجماعة الأميون، وهؤلاء يحفظ أحدهم مائة موال، ومائة حدوده، وكثيراً من الأحرار والفوازير، ويذكر لك كل ما يسمعه من الحكايات، وكل ما يقرأ أمامه من قصة الظاهر بيبرس، أو عنتره، أو خليفة، ثم إذا خاطبته فى حفظ شىء من القرآن ليصحح به صلاته يعتذر لك بعدم القراءة والكتابة، ويقول لك: يا سيدى بعد ما شاب يودوه الكتاب، هذا جوابهم مع أنا نرى منهم من يخاطب الإفرنج بلغاتهم، وإنسى لأعرف أناساً أميين يجيدون قراءة وكتابة اللغات الأجنبية، ولا يحسنون النطق بسمع الله لمن حمده، ولا بالفاتحة، فالمسألة راجعة إلى العناية والاجتهاد، فلو اجتهد رجل أمى فى حفظ ما يسمعه من أوامر الدين ونواهيها، ومن آيات القرآن وسنن النبى ﷺ، كبعض محافظته على التعاليم الأجنبية لحفظ شيئاً كثيراً، بل لو شاء حفظ القرآن كله، وألف حديث نبوى لكان ذلك سهلاً عليه جداً، وجماعة العميان أكبر شاهد ودليل على ذلك، ولكنهم أعرضوا ونأوا ف﴿وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، واذكروا قول ربكم لنبيه: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠٢].

الطائفة السابعة: جلاس حانات الخمر، وآلات اللهو والطرب، وجلاس المقاهى، ولاعبى النرد، والطاولة، والكتشينة، والضمنة، وأصحاب الحشيشة، والأفيونة، والكوكايين، والتبغ، والدخان، والتبناك، وغير ذلك، وهذه الأشياء الخبيثة الملعونة قد أضرت وأفسدت أخلاق كثير من الشبان، بل والشابات، وكم قد خربت من بيوتات كانت عامرات، فهى التى فتكت بكثير من العائلات، وإنه لا سبيل إلى الخلاص من

(١) غفلة.

(٢) أغنياءهم ورؤساءهم.

(٣) يرجعون القهقرى ويتأخرون عن الإيمان.

هذه الدواهي كلها والطوام والرزايا العظام إلا اتفاق العلماء جميعاً على الدعوة إلى الله، وإلى الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، بالاجتهاد والمثابرة والصبر على الدعاية إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن مع أهل الزيغ والضلال، والمبتدعة الجهال.

لكن لا يتم هذا العمل إلا بمساعدة الحكومة لهم، ولن تساعدكم الحكومة أبداً إلا بعد اتفاقهم التام مع رؤسائها، ولن يتفق معهم رؤسائها إلا بعد تبيانهم لهم حقائق الدين ومحاسنه العالية الغالية، وعظمته، وأبهته، وجماله، وجلاله، وكماله، ورحمته، وعدله، وإحسانه، وفضله، وبعد أن يدخلوا نور القرآن والإيمان والعلم الصحيح في قلوبهم، وبهذا يتم العمل، وينشر الدين، ويتحد المسلمون ويتصرون على عدوهم، وتكونون أنتم علماء عاملين مجاهدين في سبيل الله، هذا وإلا فمن قومكم من استحبه الكفر على الإيمان، ومنهم أوف يسبون الدين بغير مبالاة، بل ومنهم من يسبون الله ويسبون رسول الله، ورأينا منهم من يرى أن العار الكبير في الأذان والصلاة ويقف على باب بيته حيث يمنع ابنه من الخروج لأداء الصلاة، وقد سمعناهم جهاراً يقولون: ليتنا خلقنا إنكليزاً، أو يهوداً، أو نصارى، حيث إن المسلمين اجتمع عليهم أشقى الشقاء، فقر الدنيا وعذاب الآخرة، فإننا لله وإنا إليه راجعون.



حكم الجهر بقراءة سورة الكهف بالمسجد، وسماعها من المذياع في المسجد

س: سبق أن أديت فريضة الجمعة بأحد مساجد الوجه القبلي، فوجدت أهالي القرية يستعملون جهاز الراديو لتلاوة القرآن الكريم بدلاً من المقرء، فهل يجيز الشرع ذلك؟

الجواب: إن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة في المسجد في الوقت الذي اعتيد أن تقرأ فيه، وعلى الكيفية التي تقرأ بها، شيء حدث بعد العصور الأولى في الإسلام، ولم يؤثر حتى عن عصر الأئمة أنها كانت تقرأ بتلك الكيفية، فهي من هذه الجهة تدخل في دائرة البدع، وقراءتها تحدث تشويشاً على المتنفلين والذين يؤدون تحية المسجد، فإذا فرضنا أنها لم تقرأ أصلاً لكان خيراً.

وسماعها عن طريق الراديو ليس إلا سماع قراءة جهرية لسورة الكهف بالكيفية المبتدعة، وحكمها حكم سماعها أو قراءتها من نفس القارىء، فمن شاء أن يترك سماعها عن طريق الراديو فليترك قراءتها عن طريق قراءة القارىء.

والعبارة مأثورة عن الشرع لا يصح الزيادة فيها بما لم يؤثر عنه ﷺ، وبخاصة إذا أحدث ذلك في نفس الجمهور أنها عبادة مشروعة بهذه الكيفية في ذلك الوقت. ومن هنا خاصة نرى الكف مطلقاً عن قراءة سورة الكهف في ذلك الوقت وبتلك الكيفية حتى لا يعتقد الناس أن غير المشروع مشروع^(١).



الفصل الثانى

إلزام القرآن للماديين والمليين

١ - معنى المادة والماديين

كثير إطلاق المادة على مجموع الأجرام التى يتألف منها العالم المشاهد، وعلى ذلك فالماديون هم الذاهبون إلى نفى كل موجود سوى المادة المذكورة، وأن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس، لا يتناول شيئاً وراءه، ويقال لهم: الطبيعيون، وذلك أنهم سئلوا عن منشأ الاختلاف فى صور المواد وعوارضها، والتنوع الواقع فى آثارها، فنسبوه إلى طبيعة هذه الأشياء، ومن زعمهم أن المادة وجدت بنفسها، ويستحيل أن تكون من العدم، قالوا: لأن العقل لا يمكن أن يتصور مادة تتلاشى إلى درجة العدم، فكيف يحكم بوجودها فى زمن من الأزمان فى حالة لا يمكن أن تصير إليها، وزعموا أن العالم لم يزل ولا يزال لا يتغير ولا يضمحل، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التى فيه، إلى آخر مفترياتهم وادعاءاتهم الفارغة.

وقد بطل قولهم: أن العقل لا يمكن أن يتصور مادة تتلاشى إلى درجة العدم، بما ثبت فى هذه الأيام عن طريق الحس والتجربة من تحول المادة وتلاشيها إلى قوة صرفة، ومعنى محض.

وبما أنهم قالوا بأزلية المادة، فقد أنكروا الخالق، وبما أنهم قالوا بعدم زوال هذا العالم، وأنه لا يضمحل أبداً، فقد أنكروا البعث، وبضرورة الحال ينكرون رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ.

هذا وقد أبطل العلماء قدم المادة، حيث قالوا^(١): وبما أحال قدم المادة، أن القديم لا بد من كونه كاملاً، موجوداً بذاته، لا يقبل تغيراً، هذه أخص أوصافه، وذلك لأنه لو كان غير كامل، للزم أن يتكامل بغيره متصاعداً، حتى يصل إلى كائن كامل فى ذاته، لا يفتقر إلى غيره، ولو كان غير موجود بذاته، للزم أن يكون له علة قد أوجدته، فلا يكون أزلياً، ولو كان يقبل التغير، لتواردت عليه البدايات والنهايات، فكان غير قديم.

(١) من كتاب دلائل التوحيد، للعلامة القاسمى، بتصرف.

وأوصاف القديم هذه لا تنطبق على المادة بوجه؛ لأن المادة ناقصة تتكامل دائماً وأبداً، متعددة، ليس لها وجود من ذاتها، تتغير وضعاً، وفعلاً، واتصافاً، إذ يتعلق الواحد فيها بالآخر، مما يجره إليها كل من التدافع والتجاذب، وحينئذ فلا تكون المادة قديمة، ومعنى ذلك أن المادة حدثت من العدم.

فإن قال قائل: كيف تحدث المادة من العدم؟ قلنا: قال بعض المحققين: دعوى أن الحدوث من العدم محال، يقال عنها: إنها محال بنفسها، لا بفعل قادر أزل، وعدم إدراكنا لذلك وكونه مما يفوق طور العقل لا ينفيه، إذ لا يلزم من جهل الأمر نفيه، وقد اعترف الماديون بتعذر معرفة أصل المادة، وكم من أشياء مشهورة يعسر على الإنسان إدراك حقيقتها، وكما أنه لا يحق لمن لا يبصر أمراً أن ينكر وجوده، فهكذا ليس لمن لم يفهم حقيقة الخلق أن ينكر وجوده، لاسيما وهي من غيب الغيوب، وأبطن البطون. وقال آخر: لا يخفى أن الاعتراض يرجع إلى هذا، وهو لاشيء يصير من لا شيء.

فنقول: إن أريد به أنه لا موجود بدون موجد، فهو صحيح إجماعاً، وأما إذا كان المراد به لا شيء، يمكن أن يصدر من لا مادة، ففيه تفصيل، فبالنظر إلى الأسباب المتناهية القوى التي تشاهد في عالم الحس، لا خلاف فيه؛ لأن الخليفة أيًا كانت لا تقدر أن تصنع من لا شيء شيئاً.

وأما بالنظر إلى الخالق جل وعلا، فباطل، إذ من شأن القوة غير المتناهية ألا تتقيد بشيء خارج عنها، فيمكنها أن توجد الشيء من العدم البحت، أى لا من مادة كيفما شاءت، ومتى شاءت، وإلا كانت متناهية محدودة، وذلك محال عليها، ولا يلزم من قدمه تعالى قدم المخلوقات، إذ هو تعالى فاعل مطلق، لا يضطره شيء، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. أ.هـ.

هذا موقف العقلاء من بيان فساد مذهب الماديين في إنكارهم الخالق جل وعلا، والبعث، ونبوة خاتم الأنبياء. أما موقف القرآن، فقد ألزم كل مكلف من إنس وجن، ذكر وأنثى، بهذه المطالب الثلاثة، وفي أوائل سورة البقرة بيان لها، ففي قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، إيمان بالخالق وتوحيده، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، إيمان بنبوة محمد والأنبياء جميعاً، عليهم الصلاة والسلام، وفي قوله جل شأنه: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، إيمان بالبعث والمعاد.

وقد خص هذا بالذكر بعد دخوله في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، لمزيد العناية به، ورفعة شأنه، وقد بينت الآية بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، أن هؤلاء المؤمنين بهذه المطالب الثلاثة، هم المتمكنون من الهدى الإلهي، وأنهم دون غيرهم المفلحون، الظافرون بكل محبوب، الناجون من كل مكروه. وقد سلك القرآن الكريم في إثبات هذه المطالب عليهم، وإلزامهم بها، طريق النظر والفكر، فبه يتوصل إلى العلوم، ويهتدى إلى الحقيقة.

قال جمال الدين الخوارزمي فيما نقله عنه العلامة القاسمي: النظر هو قانون الاستدلال في الأمور، وقاضي الصدق، وبرهان الشريعة، وترجمان الإيمان، وحجة الأنبياء، ومحجة الأولياء، والسيف القاطع على الأعداء، وهو رأس السعادة في الدين، فأساس التدبير، وصحة الاعتقاد، وخلاصة التوحيد في ناصية النظر، كما أن أساس الكفر والشرك في جانب التقليد.

وما دام في العالم حق وباطل، ولكل منهما مشايعون، فلا يتصور معرفة الحق من الباطل إلا بالنظر، والإنسان خلق كامل الرأي، عظيم الفكر، دراكًا للمعاني، وأعطى الإدراك وهو العقل، فإذا استعمله على وجهه، وقع عنده العلم للمنظور فيه، كما يقع العلم بالمدرجات عند الإدراك، فعند فتح الأجفان يبصر الأشياء، وعند الاستماع يسمع، وعند استعمال اللسان يتكلم، كذلك عند النظر يعلم.

فنحن معشر المسلمين نعرف الحق من الباطل بالنظر، ونعرف الكفر من الإيمان بالنظر، ونعرف الله ورسوله بالنظر، ونعرف أن التقليد بلا برهان باطل، ولا معصوم إلا رسول الله ﷺ، كل ذلك بالنظر، وبالجملة فالناس من عهد آدم، عليه السلام، إلى منقرض العالم، إذا نزلت بهم نازلة يرجعون إلى النظر والفكر، سواء كان في أمر الدين أو الدنيا، ويقول بعضهم لبعض: انظروا وتفكروا، فلولا أنه طريق واضح، ومنهج لائح، لما فزعوا إليه. أ.هـ. بتصرف.

ونحن نسير مع القرآن الكريم في إثبات وبيان هذه المطالب الإيمانية الثلاثة:

المطلب الأول: وجود الصانع وتوحيده:

الآيات في هذا المطلب كثيرة جداً، فهي أكثر من أوراق الأشجار، كما أنها أجلى من ضياء النهار، وسوف تقتصر من هذه الكثرة على النذر اليسير؛ لاقتضاء المقام ذلك،

وسوف نجعلها تحت عناوين أربعة، وإن كان بعضها يتداخل في البعض الآخر.

أولاً: آيات في خلق الإنسان ونشأته.

ثانياً: آيات في إمداده بما يحتاج إليه من رزق وطعام.

ثالثاً: آيات في بعض مظاهر الكون.

رابعاً: آيات في مظاهر التدبير الإلهي في أحوال الإنسان الخاصة.

ثم بعد ذلك نذكر ما سبق به العلامة ابن رشد من الكشف عن المنهج القرآني الذي سلكناه واخترناه، وهاك التفصيل:

أولاً: خلق الإنسان:

الإنسان آدم أبو البشر، أول موجود على ظهر البسيطة، وأول نبي نزل عليه الوحي، كان خلقه من تراب، ولا يغيب عن البال ما قدمناه من إبطال أزلية المادة، وأنها لم توجد بنفسها، بل أوجدها الفاعل المختار، وعلى ذلك فآدم من تراب، والتراب مخلوق من العدم، ثم تحول التراب بعد صب الماء عليه إلى طين، فصار هذا الطين حمأ مسنوناً، طيناً متغيراً، ثم جف هذا الحمأ المسنون فصار صلصلاً كالفخار، ثم سوى الله جل جلاله صورة آدم، عليه السلام، من هذا الفخار، ثم نفخ فيه من روحه، فكان إنساناً أصلاً لأبنائه الموجودين عموماً إلى أن تنتهي الدنيا.

ولا نريد أن نذكر هذا للماديين، فهم لا يصدقونه؛ لأنه غيب، ولا يؤمن بالغيب إلا المؤمنون الصادقون، وإنما نريد أن نذكر لهم كيف كان خلق ذرية آدم من بعده، فذلك محسوس لهم ومشاهد، فتكون الدلالة فيه ألزم، والحجة فيه أقوى. وسوف لا نتعرض لتفسير الآيات المسوقة إلا بالقدر الذي يتضح به المراد، وتظهر عنده الحقيقة.

كيفية خلق الذرية: قال الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

إن الماديين لا يستطيعون أن ينكروا هذه الأطوار في خلق الذرية بحال من الأحوال، ولا يمكنهم أن يدفعوا منها شيئاً، اللهم إلا إذا أمكن أن تنكر الشمس وهي طالعة، وينكر سواد الليل وبياض النهار.

قال المفسرون في بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله تعالى أمر بالعبادات في أول السورة، حيث قال جل ذكره: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، إلى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١]، ولما كان الاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفته سبحانه، عقبها بذكر ما يدل على وجوده، واتصافه بعنوان الجلال والكمال، فذكر الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة، وأدوار الفطرة.

فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾، أي آدم ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾، أي خلاصة ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] ^(١) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾، أي نسله، فحذف المضاف، ﴿ نُطْفَةً ﴾، أي منياً من الصلب والترائب ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٣]، وهو الرحم، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾، أي صيرنا النطفة البيضاء علقة، أي قطعة دم حمراء، ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾، أي صيرنا قطعة الدم الحمراء قطعة لحم قدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾، أي جعلناها عظاماً من رأس ورجلين وما بينهما، يعني أصبحت ذات شكل مخصوص، ووضع معين، ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾، أي كسونا بما لنا من قوة الاختراع تلك العظام لحماً بما ولدنا منها ترجيحاً لحالها قبل كونها عظاماً، وقوبناها وشددناها بالروابط والأعصاب، ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، مبيناً للخلق الأول مبينة ما أبعدها، حيث جعله حيواناً وكان جهاداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع ظاهره وباطنه، بل كل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه، عجائب وغرائب لا تدرك بوصف الواصف، ولا تبلغ بشرح الشارح.

وإذا كان لنا أن نتكلم عن تفاوت العطف بالفاء وثم، فإننا نقول: إن المعطوف بكلمة «ثم» مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف عليه، فجعل هذا الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء تراوية غريب، وكذا جعل النطفة البيضاء دماً أحمر، وهذا بخلاف جعل الدم لحماً، ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وبخلاف تصليب المضغة وجعلها عظاماً النبيء عنه قوله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾، وكذا مد اللحم على العظم ليستره، المصرح به في قوله

(١) من العلماء من يرى أن المراد بالإنسان بنو آدم، وخلقهم من سلالة من طين، أي خلاصة من الأغذية التي مصدرها التربة.

سبحانه: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

فإن العطف فى هذه المواضع الثلاثة كان بالفاء؛ لأن المعطوف فيها ليس ببعيد ولا غريب عن المعطوف عليه، وحيثئذ فلا يعترض بما قيل: إن مدة كل طور أربعون يوماً، وذلك يقتضى عطف الجميع بكلمة «ثم» إن نظر لآخر المدة وأولها، أو يقتضى العطف بالفاء إن نظر لآخرها فقط.

ووجه دفع الاعتراض ظاهر مما قدمنا، وهو أن المتعاطفات بكلمة «ثم» بينها غاية البعد العقلى، فنزل منزلة البعد الحسى الزمنى، وكان العطف بـ«ثم» بخلاف المتعاطفات بالفاء، فلم يكن بينها هذا البعد العقلى، وإن كان بينها مطلق بعد، فجاءت الفاء على أصلها ووضعها للترتيب والتعقيب.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أى تنزه عن كل شائبة ونقص، وحاز جميع صفات الكمال، والمراد بالخالقين المقدرين، أى الصانعين، يقال لمن صنع شيئاً: خلقه، إذ الخلق معناه إيجاد الشيء بتقدير معين ووضع مخصوص، فيقال لصانع الباب أو الكرسي مثلاً: إنه خلقه، أى أوجده على شكل مخصوص وهندسة معينة، فكلمة الخلق لا تنفى عن البشر بمعنى الصنع، وإنما هى منفية عنهم بمعنى الاختراع، والإيجاد من العدم، فليس ذلك إلا لله الواحد القهار.

روى أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، قال عمر، رضى الله عنه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وروى أن عبد الله بن سعد بن أبى السرح كان يكتب لرسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، فنطق بذلك قبل إملائه، فقال له الرسول ﷺ: «اكتب، هكذا نزلت»، فقال عبد الله: إن كان محمد نبياً يوحى إليه، فأنا نبى يوحى إلى، فلحق بمكة كافراً، ثم أسلم يوم الفتح^(١).

نظائر لهذه الآية: هذه الآية فى إيرادها المعنى السابق أشباه ونظائر من آى القرآن الكريم، جاءت بهذا المعنى بأساليب مختلفة، وجميع هذه الأساليب فى أعلى درجات الإعجاز، وتلك خصيصة القرآن، يأتى بالمعنى الواحد فى عدة مواضع بأساليب مختلفة،

(١) هذه الرواية ضعيفة؛ لأن السورة مكية.

والكل فى أعلى درجات البلاغة والإعجاز، وهذا ما تنقطع دونه الأعناق، من هذه الآية:

١ - قوله تعالى فى سورة النحل: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤]، تذكر هذه الآية مبدأ التطور فى خلق الإنسان، ثم نهايته، مع الإعراض عن المراحل والتطورات التى بينهما، والحكمة فى ذلك أن هذه السورة جاءت لتعديد نعم الله تعالى على خلقه، حتى سماها بعض المفسرين سورة النعم.

من أجل ذلك ذكرت الآية المبدأ الأول لتصوير الإنسان وتخليقه، ثم طوت المراحل المترتبة على هذا المبدأ، وأتت بالنتيجة والغاية، وهو أنه ﴿ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤]، إذ أن ذلك فى باب تعداد النعم ظاهر، واضح، ومشاهد محسوس، وما يدل على أن هناك وسائل وأطواراً فى الآية الكريمة، وجود فاء التعقيب، وإذا التى للمفاجأة، فإن كونه خصيماً لا يعقب ولا يفاجئ كونه نطفة، والمعنى أنه قوى واشتد بتقلبه فى هذه الأطوار، حتى أعقب ذلك وفاجأه أنه خصيم مبين، ومعنى أنه خصيم مبين، أى شديد الخصومة بينها يفصح عما فى نفسه بالنطق والبيان.

٢ - قوله تعالى فى سورة الزمر: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر: ٦]، تتصل هذه الجملة الكريمة بأول الآية قبلها: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر: ٦]، فهى بيان لكيفية خلق ما ذكر من الأناسى، إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [الزمر: ٦]، أى حيواناً سويماً من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عادية، من بعد مضغ، من بعد علق، من بعد نطف. وأما قوله سبحانه: ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر: ٦]، فقد قال أئمة التفسير إنها ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التى هى غلاف الولد، وظلمة البطن.

أما أهل التشريح، فقد قالوا ما قرب من هذا، فقد جاء فى مجلة لواء الإسلام، العدد الثانى، شوال سنة (١٣٨٧هـ) (١٥) فبراير سنة (١٩٦٤م)، للأستاذ صلاح أبو إسماعيل، ما نصه: ثم نرهب السمع إلى علم الأجنة لنسمعه يقرر أن الجنين فى بطن أمه يكون محاطاً بثلاثة أغشية صماء، لا ينفذ منها الماء، ولا الضوء، ولا الحرارة، ونرى هذا يلقي ضوءاً على قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر: ٦]. أ.هـ.

ولا نرى تفاوتاً كبيراً بين الرأيين، فقد تكون المشيمة التي قال بها أئمة التفسير إحدى هذه الأغشية، ويعلوها الغشاءان الآخران.

٣ - قوله جل شأنه في سورة عبس: ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٣].

قال البيضاوي عند هذه الآية: دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره يدل على سخط عظيم، وذم بليغ.

فإن قيل: الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز، فكيف يليق ذلك بالقادر سبحانه؟ والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء، فكيف يليق ذلك بالعالم جل شأنه؟

فالجواب أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب؛ لبيان استحقاقه لأعظم العقاب، حيث أتى بأعظم القبائح، كقولهم إذا تعجبوا من شيء: قاتله الله ما أخبثه، وأخزاه الله ما أظلمه، وقيل: ما أكفره بالله ونعمه، مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، وأياً ما كان فهو ذم وتقييح للإنسان حيث أعرض عن النظر والتفكير.

قوله سبحانه: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس: ١٨]، شروع في بيان ما أنعم به عليه بعد المبالغة في وصفه بكفران نعم خالقه، والاستفهام فيه للتقرير، أي إيقاف الإنسان الكافر على حال شأنه وتعريفه بها، وهي حال حقيرة لا تستدعي أن يكون كافراً متكبراً.

وذكر الجواب في قوله تعالى: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس: ١٩]، لا يقتضى أن الاستفهام حقيقى؛ لأن المراد بهذا الجواب ما هو على صورته؛ لأنه بدل من قوله: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس: ١٨]، فكانه قيل بادئ ذي بدء: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس: ١٩].

وقوله جل شأنه: ﴿ فَقَدَرَهُ ﴾ [عبس: ١٩]، أي علقه، ثم مضغة، إلى آخر خلقه، وقيل سواه، كقوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]، أي قدر كل عضو في الكيفية والكمية، بالقدر اللائق لمصلحته، كقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، والفاء على هذه الأقوال للترتيب في الذكر، لا في الوجود الزمني، إذ المعنى أنه خلقه مصاحباً للتقدير، وقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس: ٢٠]،

يصح أن يكون المراد بالسبيل طريق خروجه من بطن أمه، فتكون «أل» عوضاً عن الضمير، والمعنى: ثم سبيله، أى طريق خروج الإنسان من بطن أمه، يسره الله له، وسهل عليه خروجه، ويصح أن يكون المراد به أيضاً السبيل العام، أى طريق الخير والشر، ويكون منصوباً على الاشتغال بفعل مقدر تقديره: ثم يسر السبيل يسره، فالضمير فى يسره للسبيل، أى سهل السبيل للإنسان، كقوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١] عد الإماتة من النعم؛ لأنها وصلتته فى الجملة إلى الحياة الأبدية، والنعم المقيم، ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ أى جعله فى قبر يستره، وإنما لم يقل: فقبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، والمقبر هو الله تعالى، يقال: قبر الميت، إذا دفنه، وأقبره، إذا أمر غيره أن يجعله فى قبر، وكان القبر إكراماً للإنسان، حيث لم يكن كغيره من بقية الحيوانات يلقى على الأرض عند موته تأكله الطير، والهوام، وتنهشه السباع.

وقد أشارت الآية إلى إيجاب المبادرة بتجهيز الميت من غسله، وتكفينه، والصلاة عليه، بالفاء التى تفيد التعقيب من غير مهلة فى قوله: ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢]، أى أحياه بعد موته للبعث، ومفعول شاء محذوف، أى شاء إنشاره، وأنشره جواب ﴿إِذَا﴾، وعبر بكلمة ﴿إِذَا﴾؛ لأن وقت المشيئة غير معلوم، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل، فتعلم أوقاتها من بعض الوجوه، ثم تفوض إلى المشيئة.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ [عبس: ٢٣]، ردع للإنسان عما هو عليه من الكبر، والترفع، والإصرار على إنكار التوحيد والبعث، وعلى هذا تكون متعلقة بما قبلها، والوقف عليها حسن، ويكون قوله سبحانه: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، سبباً لهذا الردع، وهذا ما قاله الزمخشري، وتبعه البيضاوى، وقيل: معناها حقاً، وبه قال الجلال المحلى، وأبو السعود، وعليه تكون متعلقة بما بعدها، أعنى قوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، والوقف حينئذ قبيح.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، أى لم يفعل الإنسان من أول مدة تكليفه إلى حين إقباره ما أمره الله به مما افترضه عليه، فالضمير فى ﴿يَقْضِ﴾ للإنسان

بمعنى العموم، ويصح أن يكون راجعاً إلى الإنسان الكافر فى قوله: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ ﴾ [عبس: ١٧]، والمعنى عليه أن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمره به ربه من التأمل فى دلائل عجائب خلق الله تعالى^(١).

ثانياً: آيات فى إمداد الإنسان بما يحتاج إليه من رزق وطعام:

قدمنا دلائل القرآن على الماديين فى إثبات وجود البارى بذكر خلق الإنسان، وتطوراته، وبيان نشأته، وهى وقائع محسوسة، وآيات ملموسة لا يتأتى لعاقل إنكارها، ولا يستطيع ذو فطرة سليمة أن يجحدها، اللهم إلا عند من خسر نفسه، وكفر بالضروريات والمشاهدات، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢].

ثم إن الله تعالى أمد الإنسان بإمدادات هى قوام حياته، وأصل غذائه ومعاشه، وأساس منافعه وحاجاته، هى أيضاً براهين ودلائل على وجود الخالق سبحانه، منعماً عظيماً، وبراً رحيماً، ومتفضلاً دائم الفضل، عميم الكرم. ونسوق فيما يأتى بعض هذه الإمدادات، وتلك النعم، بياناً للضالين، وعظة وعبرة للمتقين.

(١) قبل أن ندع الحديث عن خلق الإنسان، أحب أن أشير إلى رأى علمى ساقه الدكتور جمال الدين حسين مهران، بكلية الصيدلة، جامعة القاهرة، ونشر فى جريدة الأهرام (١٩٨١ / ٨ / ٢٨) بياناً للآية الكريمة: ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾: يأمرنا الله أن ينظر الإنسان فى نشأته كى يحس بدلائل قدرة خالقه؛ ليستدل بذلك أن الذى أنشأه قادر على إعادة خلقه بعد موته. وقد خلق الإنسان من ماء متدفق يندفع من بين الصلب، وهو منطقة العمود الفقرى، والترائب وهى عظام الصدر.

وقد أبانت دراسات علم الأجنة الحديثة أن نواة الجهاز التناسلى والجهاز البولى فى الجنين تظهر بين خلايا الطبقة الجرثومية الوسطى الموجودة بين المنطقة الصدرية والمنطقة القطنية أو البطنية للعمود الفقرى، وتبقى الكلى فى مكانها، وتنزل الخصية إلى مكانها المعروف فى الصنفن عند الولادة، وعلى الرغم من انحدار الخصية إلى أسفل، فإن الشريان الذى يغذيها بالدم طيلة حياتها يتفرع من الأورطة بجذاء الشريان الكلوى.

كما أن العصب الذى ينقل الإحساس إليها، ويساعدها على إنتاج الحيوانات المنوية، وما يصاحب ذلك من سوائل، متفرع من العصب الصدرى العاشر الذى يغادر النخاع الشوكى بين الضلعين العاشر والحادى عشر، مما يظهر أن الأعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع فى الجسم بين الصلب والترائب، أى بين المنطقة القطنية والمنطقة الصدرية للعمود الفقرى.

١ - قال الله تعالى فى سورة عبس: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلَآئِعًا لَكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

تفسير إجمالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ﴾، أى يوقع النظر التام بكل شىء يقدر عليه من بصر وبصيرة، ﴿ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤] الذى هو قوام حياته، كيف هيا له أسباب المعاش ليستعد بها إلى المعاد.

وقوله تعالى: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ [عبس: ٢٥]، بفتح الهمزة على البدل من ﴿ طَعَامِهِ ﴾ بدل اشتمال، بمعنى أن صب الماء سبب فى إخراج الطعام، فهو أى إخراج الطعام، مشتمل عليه، أو بمعنى أن هذه الأشياء، أعنى صب الماء وشق الأرض، مشتملة على الطعام؛ لأن معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ إلى حدوث طعامه، فالاشتمال على هذا من باب اشتمال الثانى على الأول؛ لأن النظر والاعتبار إنما هو فى الأشياء التى يتكون منها الطعام لا فى الطعام نفسه، وقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ [عبس: ٢٦]، أى بعد مهلة من إنزال الماء شققنا الأرض بالنبات، الذى هو فى غاية الضعف عن شق أضعف الأشياء، فكيف بالأرض الصلبة!؟

ثم سبب عن هذا الشق ما هو كالتفسير له، فقال تعالى: ﴿ فَأَنْبَتْنَا ﴾ بما لنا من القدرة التامة ﴿ فِيهَا حَبًّا ﴾ [عبس: ٢٧]، جمع حبة، بفتح الحاء، هو ما يحصده الناس ويدخرونه، كالقمح، والشعير، وأما الحبة، بكسر الحاء، فهو كل ما ينبت من البذور لا يحفل به، ولا هو يدخر، وقدم الحب على غيره من المذكورات؛ لأنه كالأصل فى التغذية.

﴿ وَعِنَبًا ﴾ ذكره بعد الحب؛ لأنه غذاء من جهة، وفاكهة من جهة، ﴿ وَقَضْبًا ﴾ [عبس: ٢٨]. قال ابن عباس، رضى الله عنهما: هو الرطب؛ لأنه يقتضب من النخل، أى يقطع، ورجحه بعضهم لذكره بعد العنب؛ لأنهما يقترنان كثيراً.

﴿ وَزَيْتُونًا ﴾، وهو ما يعصر منه الزيت، ﴿ وَنَخْلًا ﴾ [عبس: ٢٩]، جمع نخلة، فكل من هذه الأشجار يخالف للآخر فى الشكل والحمل، وغير ذلك، مع الموافقة فى الأرض، والسقى، فليتدبر هذا جيداً.

﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ [عبس: ٣٠]، الحديقة الشجر الذى قد أحدق بجدار ونحوه،

﴿ غُلْبًا ﴾ جمع أغلب وغلباء، كحمر فى أحمر وحمراء، والمراد بساتين كثيرة الشجر غلاظه، ﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ وهى ما تأكله الناس من ثمار الأشجار، كالتين والخوخ، فهو من عطف العام على الخاص، إذا قلنا: إنه معطوف على قوله: ﴿ عِنْبًا ﴾، وأما إذا عطف على ﴿ حَدَائِقَ ﴾ كما هو المتبادر، فهو عطف خاص على عام.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَبًا ﴾ [عبس: ٣١] مأخوذ من أبه إذا أمه، أى قصده؛ لأنه يؤب، أى يؤم، أو من أب لكذا، إذا تهيا له؛ لأنه متهيب للرعى. وفى المصباح: الأب المرعى الذى لم يزرعه الناس مما تأكله الدواب والأنعام.

وقوله تعالى: ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٣٢] متاعاً مفعول لأجله أو مطلق، والعامل فيه محذوف وتقديره فعل ذلك متاعاً لكم أو متعكم كذلك تمتيعاً، والمعنى تتمتعون به أنتم وأنعامكم، فابن آدم فى السبعة المذكورة، والأنعام فى الأب، وخصصت الأنعام بالذكر لكثرة الانتفاع بها، وإلا فغير الأنعام تتنفع بما تتنفع به الأنعام.

٢ - قال تعالى فى سورة النبأ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ١٤ - ١٦]، ونرى فى هذه الآى سوق المعنى فى إيجاز بليغ، وأسلوب بديع، شأن القرآن الكريم فى تكرير المعنى على صور شتى من البلاغة الخارقة، والإعجاز المنقطع النظير.

قوله سبحانه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾، المعصرات هى السحاب الماطرة، وهو مأخوذ من العصر؛ لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء، والعاصر لهذه السحب هو الريح، ومعنى الشجاج السريع الاندفاع، كما يندفع الدم من العروق فى الذبيحة، ومنه قول النبى ﷺ وقد قيل له: ما أفضل الحج؟ فقال: «العج والشج»، أراد بالعج التضرع إلى الله تعالى بالدعاء الجهير، وبالشج ذبح الهدى.

قوله تعالى: ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾، أى الماء، ﴿ حَبًّا ﴾، أى نجمًا^(١) ذا حب مما يتقوت به، كالحنطة، والشعير، والأرز، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾، أى ما يعتلف به كالتين، والحشائش، كما قال تعالى: ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه: ٥٤].

﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾، أى بساتين تجمع أنواع الشجر والنبات، ﴿ أَلْفَافًا ﴾، أى ملتفة الأغصان والأوراق، جمع لفيف، كشريف وأشرف.

(١) النجم من النبات: ما ليس له ساق.

٣ - قال سبحانه فى سورة الزمر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فِتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١].

تبين لنا هذه الآية أن ماء المطر قد يدخله الله تعالى فى الأرض فى أمكنة قريبة ينبع منها، بحيث لا يستعصى على الناس إخراجهم، ولا يتعذر عليهم الحصول عليه عند ضرورياتهم وحاجتهم، رحمة منه بخلقه، ولطفًا بعباده، وتدبيرًا محكمًا لسد عوزهم، وإنجائهم من المهلكات، فالآية الكريمة توقف المخاطب على ما يشاهده من نزول الماء على هذه الصفة، وعلى هذا النحو الذى لا ينكر، وقوله: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ ﴾ [الزمر: ٢١]، أى أدخله ينابيع فى الأرض، وهى عيون ومجار كائنة فيها، وكانت هذه العيون وتلك المجارى قريبة من سطح الأرض، ولم تكن بعيدة فى أسفلها جدًا، بحيث يشق على الناس إخراج الماء منها.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ [الزمر: ٢١]، المراد بالزرع جميع ما يستنبت من الأرض، ومعنى اختلاف ألوانه خضرته، وصفرته، وبياضه، إلى غير ذلك، ويشمل اختلاف الأصناف كذلك من برّ، وشعير، وسمسم، وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَهِيَجُ ﴾، أى ييبس، ﴿ فِتْرَاهُ ﴾ بعد الخضرة مثلاً مصفرًا من ييبسه؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن ينفصل عن منابته، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ فتاتًا، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾، التدبير ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ تذكيرًا وتنبهًا ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١]، أصحاب العقول الصافية، فيتذكرون هذه الأحوال فى النبات، فيعلمون أنه لا بد لها من صانع حكيم دبر أحوالها، وهياها على هذا النحو العجيب.

٤ - قال تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨]، أتت هذه الآية بالمعنى المتقدم، مع بيان أن إنزال الماء كان بميزان مضبوط يتمشى مع مصالح البلاد والعباد، وتحيا به الخلائق والكائنات، فليس فيه زيادة على المصلحة، فيكون الغرق والهلاك، وليس فيه نقص، فيكون القحط والجذب.

ونريد أن نقف قليلاً عند قوله سبحانه: ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون: ١٨]، فهذا يدل على أن نزول الماء لم يكن من طبيعة السماء، ولا من مادتها، ولا يحكم أنها سماء، وإلا لكان

إما زائداً عن المصلحة، وإما ناقصاً عنها، وإما متمشياً، وفي حال تمشيه معها، لم يكن عن قصد أو تدبير، وإنما هو بالمصادفة، فليس إنزاله على تلك الضوابط العجيبة والموازين الدقيقة إلا للقادر المختار، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

كما أن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، ما يفيد هذا المعنى أيضاً، فلم يكن وجود الماء في الأرض من ذاتها أو طبيعتها، ولا بحكم أنها أرض، وإلا لبقى دائماً أبداً لا يزول ولا يجول، وكما سمعنا ورأينا ذهاب الماء من أرض كان في باطنها، وخلوها منه بعد أن كان متمكناً فيها.

فقدرة الله سبحانه على إذهاب الماء من الأرض قدرة فائقة، لا يتعاضدها شيء، ولا يقف أمامها مانع، كما هو ظاهر من التعبير القرآني، فما دام الموجد لهذا الماء والمخترع له هو الله الفاعل المختار، فهو كذلك القادر على رفعه، وإزالته، وزواله، فعلى العباد أن يستنبطوا النعمة في الماء، ويقيدوها بالشكر الدائم.

٥ - قال سبحانه في سورة يس: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦].

نرى في هذا تصريحاً بأن عملية إنزال الماء، وإخراج النبات به، وما إلى ذلك، دليل واضح، وبرهان ظاهر على توحيد الله تعالى وقدرته الباهرة.

وإذا كان جل ذكره يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ويقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، فعلى المؤمن العاقل أن يتدبر هذه الآية التي نحن فيها وأمثالها مما قدمنا؛ لاستخراج ما فيها من المعاني الدالة على جلال الخالق سبحانه وكماله. ومن هنا أنشد الإمام القشيري معنفاً وموجهاً من أهمل ذلك ولم يحفل به، يقول:

يا من تصدر في دست الإمامة في مسائل الفقه إملاء وتديسا^(١)
غفلت عن حجج التوحيد تحكمتها شيدت فرعاً وما مهدت تأسيسا

(١) الدست: فارسي معرب، بمعنى اليد، يطلق على التمكن في المناصب والصدارة.

ثالثاً: آيات فى بعض مظاهر الكون:

آية اختلاف الليل والنهار: وسوف نطيل الكلام فيها؛ لما لها من عموم النفع، وظهور دلالتها على المراد، فكل من الليل والنهار يتوارد على الآخر، فبينما النهار مضى يجلى الأرض بنوره، ويعمها بضياؤه، إذا بالليل يغشاه، فترى المعمورة وقد عمها الظلام الحالك، وسادها السكون القاطع للأعمال، والمريح للأبدان، فهذا التوارد، أعنى ذهاب إحداهما ومجيء الآخر مكانه دون توقف أو تغير، آية دالة على وجود الله سبحانه، وتوحيده، وعظيم قدرته، كما أن اختلافهما بالزيادة والنقصان دون أن يحصل لهذه الزيادة أو ذلك النقصان أدنى تغير على مر السنين والأعوام، لأقوى دليل على المراد.

وقال بعض العلماء: وعندى فيه وجه ثالث، وهو أن الليل والنهار كما يختلفان بالطول والقصر فى الأزمنة، فهما يختلفان فى الأمكنة، فإن من يقول: إن الأرض كرة، فكل ساعة عينتها، فتلك فى موضع من الأرض صبح، وفى موضع آخر عصر، وفى آخر مغرب، وفى آخر عشاء، وهلم جرا، إذا اعتبرنا البلاد المختلفة فى الطول، أما البلاد المختلفة فى العرض، فكل بلد عرضه للشمال أكثر كانت أيامه الصيفية أقصر، وأيامه الشتوية بالضد من ذلك، فهذه الأحوال المختلفة فى الأيام والليالى بحسب أطوال البلاد وعرضها أمر عجيب.أ.هـ.

يضاف إلى ما تقدم انتظار أحوال العباد فى معاشهم بالراحة فى الليل، والسعى فى النهار، مصداق قوله تعالى فى سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

وما أبدع قوله سبحانه فى سورة الرعد فى التعبير عما فى الليل والنهار من آية بقوله: ﴿ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ [الرعد: ٣]، وذلك أن قوله: ﴿ يُغْشَى ﴾ يفيد صراحة أن الليل بظلمته يستر النهار كله، فلم يبق هناك موضع للضوء أصلاً، مع ما فيه من الاستعارة البديعة، وبيان ذلك أن الإغشاء إنما هو إلباس الشئ، ولما كان إلباس الليل النهار، وتغطية النهار به غير معقول؛ لأنهما متضادان لا يجتمعان، واللباس لا بد أن

يجتمع مع اللابس، كان لا بد من تقدير مضاف، أى يغشى الليل مكان النهار، ومكان النهار هو الجو، فيكون الجو هو الذى يلبس ظلمة الليل ويجتمع معها، ولا منافاة فى ذلك.

أما الاستعارة، فهى أن يقال: شبه إحداث الظلمة فى الجو الذى هو مكان الضوء بإغشائها إياه، وتغطيته بها بجامع مطلق الستر فى كل، واستعير الإغشاء بمعنى إلباس الظلمة للجو، لإحداث الظلمة به، ثم اشتق منه يغشى بمعنى يلبس على طريق الاستعارة التبعية.

وإنما لم يذكر عكسه: ويغشى النهار الليل؛ للعلم به من باب الاكتفاء بذكر أحد الضدين، كما فى قوله تعالى: ﴿سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أى والبرد.

وهذا الاكتفاء والحذف فى هذه الآية يشبه الاكتفاء والحذف فى سورة يس: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]، فإنه صرح بأية الليل دون آية النهار، مع أن السياق يرشد حتماً إلى أن التقدير: والنهار نسلخ منه الليل، فإذا هم مبصرون.

وفى ﴿نَسَلَخُ﴾ استعارة تصريحية تبعية، وذلك أنه شبه انكشاف ظلمة الليل بكشط الجلد من الشاة، والجامع ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر، واستعير كسط الجلد، أى سلخه، لانكشاف ظلمة الليل، واشتق منه ﴿نَسَلَخُ﴾ بمعنى نكشف، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

والعجيب فى أمر الليل والنهار أن كلا منهما فى مدته وما حدده من زمن، لا يغلب أحدهما الآخر، فكل منهما مقهور فى خصائصه ومميزاته بإرادة الفاعل المختار، وقدرة القادر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهذا ما يعطيه قوله جل جلاله فى سورة يس أيضاً: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

فالشمس التى هى آية لا ينبغى لها، أى لا يسهل عليها، ما دام هذا الكون موجوداً على ذلك الترتيب والنظام البديع، أن تدرك القمر فتجتمع معه فى الليل، فما النهار سابق الليل، ولا الليل سابق النهار، أى فلا يأتى أحدهما قبل انقضاء الآخر، فالآية من الاحتباك؛ لأنه نفى أولاً إدراك الشمس للقمر، ففيه دليل على ما حذف من الثانى من

نفى إدراك القمر للشمس، أى فيلغيتها، وإن كان يوجد فى النهار، لكن من غير سلطنة فيه بخلاف الشمس، فإنها لا تكون فى الليل أصلاً، ونفى ثانياً سبق الليل النهار، وفيه دليل على حذف سبق النهار لليل، وكل من الشمس والقمر فى فلك محيط به، وهو الجسم المستدير، أو السطح المستدير، أو الدائرة؛ لأن أهل اللغة على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها، وفلكة الخيمة هى الخشبة المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لثلا يمزق العمود الخيمة.

ولما ذكر لها فعل العقلاء من كونها على نظام محرر لا يختل، وسير مقدر لا يعوج، جمعها جمعهم بقوله سبحانه: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يعنى جمعها جمع العقلاء، لا أنها ذات عقل وحياة، بل لما تقدم من نظامها الدقيق، وسيرها العجيب، خلافاً لما قال به بعض المنجمين من أن لها عقلاً وحياة.

قال الرازى: إن أردتم القدر الذى يصح به التسييح فنقول به؛ لأنه ما من شىء من الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله، وإن أردتم شيئاً آخر، فلم يثبت ذلك، والاستعمال لا يدل عليه، كما فى قوله تعالى فى حق الأصنام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ [الصفات: ٩٢]، وقوله: ألا تنطقون^(١). أ.هـ.

ومما يزيد معنى اختلاف الليل والنهار وضوحاً وتبياناً، قوله سبحانه فى سورة النور: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، فالله الذى له الأمر كله يحول الظلام ضياءً، والضياء ظلاماً، ويزيد أحدهما تارة، وينقصه تارة أخرى، مع المطر تارة، والصحو أخرى، فينشأ من ذلك التقلب من الحر والبرد، وغير ذلك ما يبهر العقول، ولهذا قال سبحانه منبهاً على النتيجة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، على وجود الصانع القديم، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفاذ مشيئته.

هذا وفى قوله سبحانه فى سورة الزمر ما يؤكد هذا المعنى، وهو قوله جل شأنه: ﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، والمعنى يدخل الليل على النهار، ويدخل النهار على الليل. وقيل: ينقص من الليل فيزيد فى النهار، وينقص من النهار فيزيد فى الليل، فما نقص من الليل دخل فى النهار، وما نقص من النهار دخل فى الليل.

(١) انظر: التفسير الكبير (ج ٢٦) (ص ٧٧) طبعة دار الفكر.

قال البغوي: ومنتهى النقص تسع ساعات، ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة. وقال الرازي: إن النور والظلمة عسكريان عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك، وذاك هذا، وفي ذلك دلالة على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره، وهو الله تعالى. رحم الله الرازي، وجزاه عن الإسلام والحقيقة خير الجزاء.

دلائل من سورة الرعد: هذا وقد رأينا أن نسوق أوائل سورة الرعد، فقد جمعت ثمانية أدلة، منها اثنتان سماويتان، وستة أرضية، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَّجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢ - ٤].

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]: ذكرت هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، برهاناً قوياً على التوحيد، ودليلاً ساطعاً على عظمة الباري وقدرته، ومعنى قوله: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الرعد: ٢]، أى أنشأها مرفوعة لا أنها كانت موضوعة فرفعها، ولكن جعلها فى الابتداء مرفوعة، ودلالة ذلك على التوحيد ظاهرة، فإنه لا يقدر على رفع ما فيه سعة وبعد بغير عمد إلا الله الواحد القهار.

وتوضيح تلك الدلالة أن ارتفاعها على سائر الأجسام ليس مقتضى جسميتها، ولا مقتضى ذاتها أو ذات غيرها، وإلا كان كل جسم كذلك، ولا مقتضى خصوصيتها النوعية؛ لأننا نقل الكلام إلى اختصاصها بتلك الخصوصية، فنقول: إن اختصاصها بها ليس لجسميتها، وإلا كان كل جسم كذلك، وليس اختصاصها بهذه الخصوصية لذاتها ولا لذات غيرها؛ لأن الأجسام والأحياز متساوية، فتعين أن يكون لارتفاعها مخصص خارجى ليس جسمياً ولا جسمانياً، وإلا لكان له حيز يشغله بذاته، أو بتبعية موضوعه، ولا بد أن يكون ذلك المخصص أيضاً فاعلاً مختاراً يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَلٍ﴾، أى رفعها خالية عن عمد مرئية، وانتفاء العمد المرئية يحتمل أن يكون لانتفاء العمد والرؤية جميعاً، أى لا عمد لها فلا ترى، ويحتمل أن يكون الانتفاء للرؤية فقط بأن يكون لها عمد غير مرئى، وهو القدرة، فإنه تعالى يمسخها مرفوعة بقدرته، فكأنها عماد لها، فقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَلٍ﴾ معناه بغير عمد مرئية، فكلمة النفس وإن كانت متقدمة فى الذكر، فهى متأخرة فى المعنى، وكونها مرفوعة بعماد غير مرئى مثل كونها مرفوعة بغير عماد أصلاً فى كون ذلك الرفع عجبياً خارجاً عن دائرة العقل والخيال، فإننا لا نتعقل ارتفاع السقف الواسع الرفيع السميك بغير عمد مرئية، ونظير الآية فى الاحتمالين قولك: ما رأيت رجلاً صالحاً، فإن صدقه يحتمل أن يكون لانتفاء الرجل والصلاح جميعاً أو لانتفاء الصلاح وحده.

ويصح أن يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استثناءً، والضمير فيه يعود على السموات بعد أن كان راجعاً إلى العمدة فيما تقدم، والجملة لا محل لها من الإعراب، كأنه قيل: ما الدليل على أن السموات مرفوعة بغير عمد، فأجيب بأنكم ترونها غير معمودة، أو فاستشهد على كونها مرفوعة بغير عمد برؤية الناس لها كذلك.

الدليل الثانى: قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]: والمعنى أنه سبحانه ذلل الشمس والقمر لمنافع خلقه مقهورين، يجريان على ما يريده سبحانه، كل منهما فى فلكه إلى وقت معلوم، وهو فناء الدنيا وزوالها، فعند ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات، وتبطل تلك التسخيرات، كما وصف الله تعالى ذلك فى قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

ويصح أن يكون معنى الأجل المسمى هو المدة المعينة لكل منهما التى يتم فيها أدواره فى منازل المخصصة له، والتى ينجم عنها الشهر بالنسبة للقمر، والسنة بالنسبة للشمس، على ما يقوله أهل الفلك.

ووجه الدلالة على المراد فى هذا الشأن أن اختصاصهما بالحركة الدائمة على وجه مخصوص من البطء والسرعة، ونسق معين، مع كون الأجسام متماثلة، لا بد له من مخصص، كما تقدم ذكره عند الدليل السابق.

هذا ولما كان خلق السموات والأرض غيباً لتقدمه، وكان مقصودنا إلزام الماديين بما

يشاهدون بالحس ويرون بالعين، كان الاستدلال برفع السموات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر، وغير ذلك بما سيأتى أدخل فى بيان المراد، وإلزام لهم مما لا يشاهدونه، وإن كان فى خلق السموات والأرض ذاته دليل من غير شك على وجود الصانع سبحانه لمن عنده عقل صحيح خال من الشوائب والكدورات.

ولما ذكر تعالى دلائل وحدانيته، وكمال قدرته من رفع السماء بغير عمد، وأحوال الشمس والقمر، أردفها بذكر الدلائل الأرضية كما يأتى.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ [الرعد: ٣]:

والمعنى أنه سبحانه بسط الأرض طولاً وعرضاً؛ لتثبت عليها الأقدام، ويتقلب عليها الحيوان، ووجه الاستدلال بامتداد الأرض أن كونها ممدودة، أى ذات امتداد من الطول والعرض والعمق على قدر معين، مع جواز كونها أزيد مقداراً مما هى عليه الآن، أو أنقص منه، لا بد له من مخصص كما تقدم، ومد الأرض لا ينافى كونها كرة؛ لأن الكرة إذا كانت فى غاية الكبر، كانت كل قطعة منها تشاهد كالسطح.

الدليل الرابع: قوله جل شأنه: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ [الرعد: ٣]:

أى أنه سبحانه خلق فى الأرض جبلاً ثوابت باقية فى حيزها، غير متنقلة، لا تتحرك ولا يتحرك ما هى راسية فيه، وهذا لا يكون إلا بتخليق القادر الحكيم، فضلاً عن أن حصولها فى بعض جوانب الأرض دون البعض الآخر، مع أن طبيعة الأرض واحدة، لا بد أن يكون بتخصيص الفاعل المختار.

الدليل الخامس: قوله سبحانه: ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ [الرعد: ٣]:

أى وجعل فى الأرض أنهاراً جارية لمنافع الخلق، والنهر هو المجرى الواسع من مجارى الماء، وأصله الاتساع، ومنه النهار؛ لاتساع ضوئه. فمن ذا الذى هياها لهذا النفع الدائم المتواصل للخلائق كلهم من إنسان، وحيوان، ودواب، وهوام، إنه ليس إلا الله الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً.

ثم إن فوائد مجارى المائية كثيرة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢].

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الرعد: ٣]:

أى جعل فى الأرض من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين، والاختلاف إما من حيث الطعم، كالحلو والحامض، أو اللون، كالأسود والأبيض، أو الحجم، كالصغير والكبير، أو الطبيعة، كالحار والبارد، وتوضيح ذلك وبيانه أن الحبة إذا وقعت فى الأرض نبتت وريت، وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها، فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة، ويخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة، وهذا من جانب العجائب؛ لأن طبيعة الحبة واحدة، وتأثير الطبايع والأفلاك والكواكب فيها واحد، ثم إنه خرج من أحد جانبي تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء، ومن الجانب الآخر جرم غائص فى الأرض، ومن المحال أن يتولد من طبيعة واحدة طبيعتان متضادتان، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم.

ثم إن الشجرة النابتة يكون بعضها خشباً، وبعضها نورة^(١)، وبعضها ثمرة، وتلك الثمرة يحصل فيها أجسام مختلفة الطبايع، فالجوز مثلاً له أربعة أنواع من القشور، قشره الأعلى، وتحت القشرة الخشبية، وتحت القشرة المحيطة باللب، وتحت هذه القشرة قشرة أخرى فى غاية الدقة تمتاز عما فوقها، وأيضاً فقد يحصل من الثمرة الواحدة الطبايع المختلفة، فالعنب مثلاً قشره وعجمه باردان يابسان، ولحمه وماؤه حاران رطبان، فتولد هذه الطبايع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوى تأثيرات الطبايع وتأثيرات الأنجم والأفلاك لا بد وأن يكون بتدبير العليم الحكيم.

الدليل السابع: قوله جل شأنه: ﴿ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ [الرعد: ٣]:

أى يغطى الليل بظلمته النهار، وكذلك يغطى النهار بضوئه الليل، فيستدل بفعلهما على ما قدره الله تعالى لهما فى السير من الزيادة والنقصان، وقد تقدم لذلك مزيد إيضاح فى آية الليل والنهار، ولما كان غشيان الليل النهار ظاهرة تظهر للناس على سطح الأرض ويتنفعون بها فى معاشهم، عدت من الأدلة الأرضية.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ [الرعد: ٤]:

ذكر تعالى دليلاً آخر ظاهراً جداً، وهو أن الأرض التى أنتم سكانها ﴿ قِطْعٌ ﴾ بقاع

مختلفة ﴿مُتَجَاوِرَاتُ﴾، أى متقاربات يقرب بعضها من بعض، واحدة طينية، والأخرى سبخة لا تثبت، وأخرى صالحة للزرع لا للشجر، وأخرى بالعكس، وأخرى قليلة الريع، وأخرى كثيرة.

ولولا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه، لم تكن كذلك؛ لاشتراك تلك القطع فى الطبيعة الأرضية، وما يلزمها ويعرض لها من الأسباب السماوية، فليست هذه القطع الأرضية فى خواصها وأحوالها مستندة إلى الاتصالات الفلكية والحركات الكونية؛ لأن قطع الأرض مختلفة فى صفاتها، مع اشتراكها فى الطبيعة الأرضية، وكونها متجاورة متقابلة، بحيث يكون تأثير الشمس وسائر الكواكب فيها على السوية.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ [الرعد: ٤]، أى بساتين فيها أنواع الأشجار المختلفة، ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]، جمع صنو، وهى النخلات، يجمعها أصل واحد، وتتشعب فروعها، ﴿وَعَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]، أى متفرقات مختلفة الأصول.

ولما كان الماء بمنزلة الأب، والأرض بمنزلة الأم، وكان الاختلاف مع اتحاد الأم والأب، أعجب وأدل على الإسناد إلى الواحد المسبب، قال تعالى: ﴿يُسْقَى﴾ [الرعد: ٤]، أى الجنات بما فيها، ﴿بِمَاءٍ وَأَحْلٍ﴾ [الرعد: ٤]، فتخرج أغصانها وثمراتها فى وقت معلوم، ﴿وَنَفَّضْلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤]، أى فى الطعم ما بين حلو وحامض، وفى الشكل، والرائحة، والمنفعة... إلخ. وذلك مما يدل على القادر الفاعل المختار، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

دلائل من سورة النحل: ونتقل إلى سورة النحل، فنأتى منها ما يقوى المراد، ويزيد فى إيضاحه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

من المعلوم والمشاهد أن النبات نوعان:

أحدهما: معد لرعى الأنعام، وقد ذكره تعالى بقوله: ﴿تُسِيمُونَ﴾.

وثانيهما: مخلوق لأن يكون غذاء للإنسان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾.

وكان الظاهر أن يقدم ما يأكله الإنسان، إلا أن مرعى الحيوان يكون بنية الحيوان الذى هو غذاء حيوانى للإنسان، وهو أشرف من الأغذية النباتية، فهذا الاعتبار يكون مرعى الحيوان أشرف مما يأكله الإنسان، فلذلك قدم الأول على الثانى.

ثم إن الغذاء النباتى قسمان: حبوب، وفاكهة، فهو تعالى أشار إلى الحبوب بلفظ الزرع، وإلى الفواكه بقول: ﴿الزَيْتُونُ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾، ولا شك أن الحبوب أشرف فى الغذائية من الفواكه، وأشرف الفواكه من الزيتون والنخيل والأعنان، فلذلك خص هذه الفواكه بالذكر، وأشرف هذه الثلاث هو الزيتون؛ لأنه فاكهة من وجه، وإدام من وجه؛ لكثرة ما فيه من الدهن، ومنافع الأدهان كثيرة، حيث تصلح للأكل، والطلبى، واشتعال السرج، وأشرف الباقيين النخل، فلذلك قدم الزيتون على النخل، وقدم النخل على الأعنان، وكان ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، تنبيهاً على أنه لا بد من مزيد التفكير فيما حوته الآية، وما اشتملت عليه، حتى يحصل المقصود تاماً كاملاً.

وذلك أن أحوال النبات، وإن كانت دالة على وجود الله تعالى، إلا أن دلالتها تحتاج إلى تأمل، فإنه لما ذكر تعالى أنه أنزل من السماء ماء، فأنبت به الزرع والزيتون... إلخ، قد يتوهم أن الاختلاف فى الفصول الأربعة، وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب هى الموجدة لهذه الأشياء، فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال، لا يكون الاستدلال بأحوال النبات وافياً بإفادة المطلوب، قاطعاً للشكوك والريب، وهذا الختم فى هذه الآية نظير ما ختمت به آية الرعد السابقة: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، وقد بينا هناك ما فيه التفكير بالنسبة للحبة التى توضع فى الأرض، فيخرج أعلاها فى الهواء شجراً يحمل زهوراً، وثماراً، ويغوص أسفلها عروفاً فى الأرض، لا تحمل زهراً ولا ثمرأ، إلى غير ذلك مما بيناه.

ثم قال تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، فالتسخير مراد به هنا أنه جل جلاله هياً هذه الأشياء وجعلها على أحوال وصفات وأوضاع، بحيث ينتفع بها الإنسان، وتتنظم بها أحواله، وكان قوله: ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ إعلماً بأن تأثير هذه الكونيات فى حوادث العالم السفلى ليس مستنداً إلى الحركات الفلكية، وإلا لاحتاجت تلك الحركات إلى أن تستند إلى حركات أخرى، ولا شك أن الحركات

الكوكبية لا يمكن استنادها إلى أفلاك وكواكب أخرى، وإلا لزم الدور أو التسلسل، وكلاهما محال^(١).

ولا يمكن استناد تلك الحركات والأوضاع إلى قوة الأفلاك من حيث إنها أجسام متماثلة في الجسمية، فلو كان جسم معين من تلك الأجسام علة لصفة، ووضع معين في هذا الجسم، لكان كل جسم واجب الاتصاف بذلك الوضع والصفة، ولا يمنع اختلاف الصفات والأوضاع، أى لأن السبب واحد، وهو الجسمية، وهو موجود فى الكل، ولكن الاختلاف فى الصفات والأوضاع موجود لم يمنع، فالجسمية ليست هى السبب، فثبت أن الجسم يمنع أن يكون متحركاً لكونه جسمًا، وبقي أن يكون متحركاً لغيره، وذلك الغير إما أن يكون قوة قائمة به، أو أمراً مبايناً له.

والأول باطل كما تقدم بأن يقال: لم يختص ذلك الجسم بعينه بتلك القوة بعينها دون سائر الأجسام، فتعين أن تكون تلك الحركة مستندة إلى أمر مباين عنه، وذلك المباين لا يخلو إما أن يكون موجباً بالذات إلى جميع الأجسام على السوية، فلا يكون بعض الأجسام يقبل بعض الصفات المعينة أولى من بعض، لكن ثبت أن بعض الأجسام أولى ببعض الصفات من بعض الأجسام الأخرى، فتعين أن ذلك المباين فاعل مختار، وأن الحركات الفلكية على تقدير استناد الحوادث السفلية إليها حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه جل شأنه. ولما تم هذا الدليل فى هذا المقام، ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

رابعاً: آيات فى مظاهر التدبير الإلهى لأحوال الناس الخاصة:

١ - أعمار الناس وآجالهم: ضبط بعض الباحثين أعمار الإنسان فى أربعة مراتب:

المرتبة الأولى: سن الطفولة والنمو، وهو من أول العمر إلى بلوغ ثلاثة وثلاثين سنة، وهو غاية سن الشباب وبلوغ الأشد.

المرتبة الثانية: سن الوقوف، وهو من ثلاثة وثلاثين سنة إلى الأربعين، وهو غاية القوة وكمال العقل.

(١) الدور هو توقف معلول على علة توقفت عليه بمرتبة أو مراتب، وهو باطل؛ لأنه يلزم تقدم الشيء على نفسه، وإن استمرت سلسلة العلل والمعلولات إلى غير نهاية، فهو التسلسل المحال يراهين متعددة ذكرها العلماء.

المرتبة الثالثة: سن الكهولة، وهو من الأربعين إلى الستين، وهذه المرتبة يشرع فيها الإنسان في النقص، لكنه نقص خفى قد لا يظهر.

المرتبة الرابعة: سن الشيخوخة والانحطاط الظاهر، وتماه عند الأطباء إلى مائة وعشرين سنة.

فهذا الاختلاف في الجسم الإنساني بالتزايد، والنقص، والانحطاط الخفى والجلي، مع استواء أحوال التربية والتدبير الكائنين من قبل نفسه، يدل على أنه بتدبير الفاعل المختار، قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

فقوله: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾، أى بأجال مختلفة، فلا يقدر الصغير أن يؤخر، ولا الكبير أن يقدم، فمنكم من يموت على حال قوته، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾.

وقوله سبحانه في آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، يعنى عليم بمقادير أعمارهم، يميت الشاب النشيط، ويبقى الهرم الفانى، وفي ذلك تنبيه على أن تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركب أبنيتهم، وعدل أمزجتهم على قدر معلوم، ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبيعيون، لم يبلغ التفاوت بينهم هذا المبلغ.

٢ - البر يلد الفاجر، والفاجر يلد البر: أما أن البر يلد الفاجر، فهو ما يصرح به قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وولده إسحاق، عليهما السلام: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصفوات: ١١٣]. قال صاحب الكشاف عند هذه الآية ما نصه: وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر، وهذا ما يهدم أمر الطباع والعناصر.

وأما أن الفاجر يلد البر، فهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، على أرجح الأقوال أنه أبوه لا عمه.

ولا شك أن الماديين يرون هذه المخالفات بعقولهم، ويبصرونها بأعينهم، فيماذا يعللون بها وقد انقطع أصلهم، وانهدم ركنهم بمثل هذه الوقائع وتلك المشاهدات. وإنما لا نأتى إليهم بمثل هذه الحقائق من حيث إن القرآن الكريم قالها، فهم قاتلهم الله لا يؤمنون به، وإنما نأتى إليهم من حيث إن القرآن ذكرها حقيقة محسوسة، وواقعة ملموسة

لا يستطيعون لها نكراناً. وما أجمل قول القائل:

إذا طاب أصل المرء طابت فروعُه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ليظهر سر الله فى العكس والطررد

٣ - الأحق المرزوق: هو آية ظاهرة على تدبير الله تعالى، وحكمته، وتفردته بالملك والسلطان، فليس غنى هذا الكثير الأحق من كياسته، ووفرة عقله، فهو خلو من ذلك، ولا بكثرة سعيه واجتهاده، فهو خامل غير مصيب فى رأيه، كما أن فقر العاقل ليس من بلادته، ونقصان عقله، وقلة سعيه، فإنك ترى أكيس الناس وأعقلهم يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا، ولا ينال ذلك، وترى أجهل الناس وأخسهم عقلاً تفتح عليه الدنيا، فلما رأينا الأعدل الأفضل أقل نصيباً، والآخر الأجهل أوفر نصيباً، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام الذى يفعل ما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف: ٣٢]. وما أجمل قول من قال:

كم عالم يسكن بيتاً بالكرى^(١) وجاهل يملك دوراً وقرى
لما قرأنا قوله سبحانه نحن قسمنا بينهم زال المرا

وهكذا تجاوب المؤمنون الصادقون مع هذا التدبير الإلهى العظيم، وهذا الوضع الربانى الحكيم. ومن ذلك قول الإمام الشافعى، رضى الله عنه:

ومن الدليل على القضاء وحكمه يؤس اللبيب وطيب عيش الأحق
وقول سفيان بن عيينة:

كم من قوى قوى فى قلبه . مهذب الرأى عنه الرزق ينحرف
وكم ضعيف ضعيف فى قلبه كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الإله له فى الخلق سر ليس ينكشف

أما من لم يفطن لهذه الحكمة، وغابت عنه تلك الدقيقة، فقد تبرموا وضجروا، حتى قال قائلهم:

كم عالم ضاقت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا

ولو اهتدى هذا القائل بنور الحقيقة، واستضاء بنور الشريعة، لانقلب صديقاً لا زنديقاً، على نحو ما قدمنا عن الأئمة السابقين.

٤ - الذكاء والبلادة، أو العلم والجهل: كم يؤسف العالم ويجزئه أن يرى ولده لا يابيه بالعلم، ولا يتهججه، ولكن ما الحيلة أمام قضاء الله وتدبيره، فليس فى طرق الإنسان الحكيم أن يورث ولده الحكمة، أو أن يذيقه كأس المعرفة، وهنا يتجلى صدق الله فى قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وفى هذا المعنى يقول العالم الفاضل حفنى ناصف، رحمه الله تعالى:

أنتضى معى إن حان حينى^(١) تجارى
وأبذل جهدى فى اكتساب معارف
ويجزئنى ألا أرى لى حيلة
إذا ورث الجهال أبناءهم
وما نلتها إلا بطول عنائى
ويبنى الذى حصلته بفنائى
لإعطائها من يستحق عطائى
غنى وجاهاً فما أشقى بنى الحكماء

لكنه كما قلنا شىء خارج عن الطوق الإنسانى اقتضته حكمة العليم الحكيم، الذى أحاط بكل شىء علماً، والذى دلنا بهذا التدبير على أنه ذو الجلال والإكرام.

المنهج القرآنى فى الدلالة على وجود الصانع: كما يراه ابن رشد^(٢):

إذا تصفحت آيات الكتاب العزيز، وجدتها تنحصر فى ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيه على العناية، أعنى كون الشىء على وضع معين وصفة معينة، وإما آيات تتضمن التنبيه على الاختراع لجواهر الأشياء، وإما آيات تجمع بين الأمرين جميعاً.

آيات العناية فقط:

مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٦، ٧]، إلى

(١) الموت.

(٢) ابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ، وهو أعلم أهل عصره بعلوم الفلسفة، والطب، والرياضة، وتولى منصب قاضى القضاة بقرطبة بعد خلو المنصب بوفاة والده، وأشهر مؤلفاته: تهافت التهافت، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، وكتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد فى الفقه، وقد توفى عام ٥٩٥هـ.

قوله: ﴿ وَجَنَّاوُ الْفَافَا ﴾ [النبا: ١٦]. ومثل قوله سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١]. ومثل قوله جل شأنه: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤] الآيات.

ففى هذه ومثيلاتها عناية بالإنسان، وهذه العناية هى الدليل على وجود الصانع الحكيم، وذلك أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان، ومكملة لمصالحه، ومتممة لنظام حياته، وهذه الموافقة بالضرورة من فاعل قاصد، إذ لا يمكن أن تكون بالاتفاق، فمن أراد معرفة الله تعالى المعرفة التامة، فليبحث عن منافع الموجودات من أرض، وماء، ونار، وهواء، وتسخير للشمس والقمر، وتذليل الحيوان، وغير ذلك مما هو مشاهد وملموس، بل إن العناية لتظهر كذلك فى تكامل أعضاء الإنسان وأجزاء بدنه.

آيات الاختراع فقط:

مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥، ٦]. ومثل قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧] الآيات. ومثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج: ٧٣]. ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم، عليه السلام: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

ففى هذه الآيات ومثيلاتها دلالة على وجود مخترع، وذلك أن المادة ليست أزلية كما قدمنا فى أول البحث، يعنى لم تخلق نفسها، وأن الله قادر على أن ينشئها من العدم، فهذه الموجودات مخترعة، وكل مخترع لابد له من مخترع، وتدلنا دقة نظام هذه المخترعات، وانتظام سيرها، على أن هذا المخترع فاعل مختار، لهذا كان واجباً على أن من أراد معرفة الله حق معرفته، أن يعرف جواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقى فى جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشئ، لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

آيات تجمع بين الدالتين:

وهى كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قِيلَ لَكُمْ ﴿البقرة: ٢١﴾، إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فإن قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، تنبيه على دلالة الاختراع، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] تنبيه على دلالة العناية.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿وآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]، وقوله جل شأنه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم على ذلك بما جعل في فطرهم من إدراك هذا المعنى، وإلى هذه الفطرة الأولى المستقرة في طباع البشر أشار بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ولذا قد يجب على من كانت رغبته طاعة الله، والإيمان به، وامتنال ما جاءت به رسله، أن يسلك هذه الطريقة، حتى يكون من العلماء الذين يشهدون لله بالربوبية مع شهادته لنفسه وشهادة الملائكة، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ومن الدلالات الموجودات من هاتين الجهتين وجود الأشياء مسبحة لله تعالى، المشار إليه بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالكائنات من حيث كونها موجودة، فيها دليل الاختراع، ومن حيث كونها خاضعة لله منقادة لما أَرَادَهُ منها، مثل دوران الأفلاك، وسيلان الماء، وهطول الأمطار، وما إلى ذلك، فيه دلالة الغاية والعناية.

فقد بان من هذه الأدلة أن الدليل على وجود الصانع منحصر في هذين الجنسين دلالة العناية ودلالة الاختراع، وأن هاتين الطريقتين بأعينهما طريقة الخواص، وأعنى بالخواص العلماء، وطريقة الجمهور، وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل، أعنى أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على الحس، وأما العلماء فيزيدون على ذلك ما يدرك بالبرهان، حتى قال بعضهم: أن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا

وكذا آلاف منفعة، وإذا كان هذا هكذا، فتلك هي الطريقة الشرعية والطبيعية التي جاء بها الرسل ونزلت بها الكتب.

والعلماء ليس يفضلون الجمهور في هذين الاستدلاليين من قبل الكثرة فقط، بل من قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه، فإن مثال الجمهور في النظر إلى الموجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها، فإنهم يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط، وأن لها صانعاً موجوداً، ومثال العلماء في ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها، وبوجه الحكمة فيها، ولا شك أن من حاله العلم بالمصنوعات هذه الحال هو أعلم بالصانع من الذي لا يعرف من تلك المصنوعات إلا أنها مصنوعة فقط^(١). أ.هـ.

وبعد: فهذه الأدلة وما أكثر نظائرها في القرآن تدل على وجود الخالق جل وعلا، بل على وجوده أزلاً وأبدًا، وأنه واحد، له كل صفات الجلال والإكرام.

أما عن أزليته، فنسوق دليل ابن رشد، وهو أن الموجودات الممكنة لا بد لها من علل تتقدم عليها، فإن كانت العلة ممكنة، لزم أن يكون لها علل، ويمر الأمر إلى غير نهاية، وذلك هو التسلسل المحال، وإن لم يكن هناك علة لزم وجود الممكن بلا علة، وذلك مستحيل، فلا بد من أن ينتهي الأمر إلى علة ضرورية، فإذا انتهى الأمر إلى علة ضرورية، لم تخل هذه العلة الضرورية أن تكون ضرورية بسبب أو بغير سبب، فإن كانت بسبب، سئل أيضًا في ذلك السبب، فأما أن تمر الأسباب إلى غير نهاية، فيلزم أن يوجد بغير سبب ما وضع أنه موجود لسبب، وذلك محال، فلا بد أن ينتهي الأمر إلى سبب ضروري بلا سبب، أي بنفسه، وهذا هو واجب الوجود ضرورة. أ.هـ.

وقوله: فيلزم أن يوجد بغير سبب... إلخ، وذلك لأن التسلسل محال، يعني فلا وجود له، فقد تبين أن ما فرض أنه بسبب وهو العلة الضرورية في وجود الممكنات أصبح بلا سبب، وهذا خلاف الفرض، وهو محال.

وأما عن كونه أبدياً، فإننا نقول: ثبت في أصول التوحيد وقواعد المنطق أن ما ثبت قدمه استحالة عدمه.

أما عن كونه واحداً، فإننا نسوق الدليل المتعين على كل طالب علم أن يعرفه، فهذه

(١) انظر: مناهج الأدلة لابن راشد، تحقيق د. محمود قاسم (ص ١٥١ - ١٥٥) بتصرف.

الممكنات لا بد لها من موجد قادر حكيم يوجد على ما تقتضيه حكمته ومشيتته، متعالياً عن معارضة غيره، إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه، فإما أن يتفقا وإما أن يختلفا.

فإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم والآخر إعدامه، فإما أن ينفذ مرادهما، فيلزم عليه وجود العالم وعدم وجوده، وهو جمع بين التقيضين، وهو محال، وإما ألا ينفذ مرادهما، فيلزم عجزهما وعدم وجود العالم، وهو باطل بالمشاهدة، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فيكون الآخر عاجزاً فلا يكون إلهاً، والأول غير إله لمائلته للثاني فرضاً، وهذا يسمى برهان التمانع، وإن اتفقا فلا جائز أن يوجداه معاً بالاستقلال في آن واحد لما يلزم عليه من اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وهو باطل، ولا جائز أن يوجداه مرتباً بأن يوجداه أحدهما ثم يوجداه الآخر بعده، لما يلزم عليه من تحصيل الحاصل وهو باطل، ولا جائز أن يوجداه على سبيل المعاونة لما يلزم عليه من عجز كل منهما فلا يوجد العالم.

ولا جائز أن يوجد أحدهما بعض العالم، والآخر البعض الثاني، للزوم عجزهما؛ لأن كلا منهما عاجز عن التصرف فيما تصرف فيه الآخر، وهذا يسمى برهان التوارد.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقال جل شأنه: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢]. وقال سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وبعد: هذا هو التوحيد، أحد مطالب الإيمان الثلاثة التي أنكرها الماديون، قد ثبت بما لا يقبل الشك على ما تقدم بيانه وإيضاحه، وبقي الأمران الآخران: البعث والرسالة، إلا أنه لا يفوتنا الآن أن نذكر أن إثبات التوحيد يستلزم المطالبين الآخرين، وذلك أن آثار الحدوث والإمكان ظاهرة في جميع الأجسام، فكان الاعتراف بأنها كلها لله تعالى وتحت تصرفه وقدرته سبحانه، كان ذلك لازماً على كل عاقل لا سبيل إلى إنكاره.

والاعتراف بذلك يستلزم الاعتراف بوحدانيته سبحانه كما تقدم، والاعتراف به يستلزم الاعتراف بصحة الإعادة؛ لأن من قدر على الإبداء، فهو أقدر على الإعادة، كما سيأتي، كذلك يستلزم الاعتراف بأحقية الرسالة وبعثه الرسل؛ لأن الصانع الحكيم

لا يصدر عنه مثل هذه المصنوعات العجيبة، إلا الحكمة وعاقبة حميدة، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وذلك يستدعى أن يتلى عباده ويكلفهم بأوامره ونواهيه، حتى يظهر المطيع من العاصي، ويجازى كل واحد منهم على حسب استحقاقه، وهذا التكليف لا يكون إلا بمبلغ يبلغ الأحكام، فدل ذلك على إن إرسال الرسل مما تقتضيه الحكمة.

فلا اعتراف بأن ما فى السموات والأرض لله، يستلزم الاعتراف بحقية هذه المطالب الثلاثة.

المطلب الثانى: البعث:

نسوق ثلاثة مواضع من القرآن الكريم تحت هؤلاء المنكرين على النظر والاستدلال.

الموضع الأول من سورة النحل:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٨ - ٤٠].

ادعى هؤلاء البديهة فى إنكار البعث، فقالوا: إن الإنسان ليس إلا هذه البنية المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه، وبطل المزاج والاعتدال، امتنع عوده بعينه؛ لأن الشيء إذا عدم فنى، ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فناءه، فالذى يعود يجب أن يكون شيئاً مغايراً للأول.

وأشاروا إلى ادعائهم ضرورة ذلك الإنكار بالإقسام واليمين، وهذا هو ما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة يس، عن أبى بن خلف حين أخذ عظماً قد رمى وبلى، ففتته بيده، وقال للرسول ﷺ: أترى أن الله يحيى هذه؟ قال: «نعم، ويبعثك ويدخلك النار»، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] الآيات.

وقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد، فقال: ﴿بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، أى يعيئهم بعد الموت، فإن لفظه ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد النفى. ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿ [النحل: ٣٨]، أنهم يبعثون، إما لعدم علمهم بأن البعث من مواجب الحكمة التي جرت عليها عادته سبحانه بمراعاتها، وإما لقصر نظرهم على المألوف حين يشاهدون الميت يمكث مدة مديدة، وأحقاباً طويلة لا تطراً عليه حياة، فيتوهمون امتناع البعث، ثم بين سبحانه الحكمة في البعث بقوله: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ﴾ [النحل: ٣٩]، وذكر سبحانه إمكانه، وأن مألوفهم وما يشاهدون من عدم طريان الحياة على الميت في أزمان متطاولة أمر عادي لا يتنافى مع قدرة القادر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

وإيضاح ذلك وتفصيله كما يلي:

حكمة البعث: إن الحياة كما هو مشاهد تجمع بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والإنصاف والجور، فإذا لم يكن للمغلوب أمل يحتمى به، ويعيش عليه، في أنه سينتصر يوماً، وأنه سيأخذ حقه حتماً، كان ذلك قضاء على وجوده، وقتلاً لحياته، وهذا ما يبابه المنطق الصحيح والعقل السليم، فضلاً عن الحكمة الإلهية.

وإذا لم يكن لذوى الحق والخير وأولى الفضيلة والكرم أمل في أن يحسب لهم هذا ويجازون عليه، انعدم الحافز على الخير، وبطل الداعى إلى المعروف، وكانت حياة تعسة مردولة تأباها الحيوانية المحضة، فضلاً عن الإنسانية الكاملة، وإذن فلا بد من ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]. فعلى الماديين أن ينظروا في هذا نظر استدلال واعتبار، وأن يتأملوا عن فكر واسترشاد.

إمكان البعث: وهو كما تقدم ذكره: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، فالمقصود كما قرره العلماء بيان سهولة خلق الإنسان عليه سبحانه، وأنه متى أراد الشيء كان، فمثل الله تعالى تكوينه للمكونات بمجرد تعلق إرادته من غير توقف وامتناع، بأمر الأمر المطاع إذا أمر المأمور المطيع المسارع في الامتثال، فعبء عن سرعة تكوينه على الوجه المذكور بالأمر المستلزم للامتثال، فإنه تعالى لو أراد خلق الدنيا والآخرة بما فيهما في قدر لحمة بصر ما عاقه شيء. والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو أهون من الإبداء بالنسبة إلى عقولنا.

الموضع الثاني من سورة الحج:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّتَبَيَّنَ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ساق الله تعالى خلق الإنسان هنا دليلاً على البعث، وفي سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، ساقه سبحانه دليلاً على وجوده، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فخلق الإنسان في أطواره المذكورة كما يصلح دليلاً على وجود الخالق وتوحيده، يصلح أيضاً دليلاً على البعث كما يأتي:

فالآية تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥]، أى شك وتهمة وحاجة إلى البيان، فتفكروا في خلقكم الأولى، لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانياً.

ثم إنه ذكر مراتب الحلقة الأولى أموراً سبعة هي:

المرتبة الأولى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُّرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، أى أنشأناكم بقدرتنا التي لا يتعاضدها شيء، ﴿مِّن تُّرَابٍ﴾ لم يسبق له اتصاف بالحياة. وفي الخلق من تراب وجهان:

أحدهما: إنا خلقنا أصلكم، وهو آدم، عليه السلام، من تراب، كما قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُّرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

الثاني: من الأغذية، والأغذية إما حيوانية، وإما نباتية، وغذاء الحيوان ينتهي إلى النبات قطعاً للتسلسل، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء، فصح قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُّرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

المرتبة الثانية: ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وحالها أبعد شيء عن حال التراب، فإنها بيضاء سائلة لزجة صافية، كما قال تعالى: ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦].

المرتبة الثالثة: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، أى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان، ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة.

المرتبة الرابعة: ﴿ثُمَّ مِنْ مَّضْغَةٍ﴾، أى قطعة لحم صغيرة، وهى فى الأصل قدر ما يمضغ، قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾، أى مسوأة لا نقض فيها ولا عيب، ﴿وَعَبْرٍ مُخَلَّقَةٌ﴾ [الحج: ٥]، أى غير مسوأة، فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة وأملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، ويتبع هذا التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم، وصورهم، وطولهم، وقصرهم... إلخ.

وقيل فى معنى المخلقة غير ذلك، والذي اخترناه أوفق لوجود بناء تفضيل التخليق الدال على تكثير الخلق، فإن الإنسان ذو أعضاء متباينة، وقوى متفاوتة، فإذا أكمل فيه جميع ما يتم به خلقة النوع، فقد كثر فيه الخلق.

وقوله تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]، معناه إنا فعلنا لنبين لكم بهذا التدرج قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر من التراب والماء، ثم من نطفة ثانياً، ولا تناسب بينهما، وقدر على أن يجعل النطفة علقة، وفيها تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاماً، من قدر على ذلك قدر على إعادة ما بدأه، بل هو أدخل فى القدرة وأهون فى القياس.

وأما قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، فهو معطوف على ﴿نُبَيِّنُ﴾ فى إحدى القراءتين، ومعناه إنا خلقناكم من حال إلى حال، ومن خلق إلى خلق، لأمرين اثنين:

أحدهما: تبين قدرتنا على الإعادة، كما تقدم آنفاً.

وثانيهما: الإقرار فى الرحم لغاية التمام، ثم الخروج طفلاً حتى يبلغ الأشد، أى حد التكليف، فيكلفوا معرفة الله وتوحيده وطاعته، فينالوا سعادة الآخرة.

المرتبة الخامسة: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]، أى تولدوا فى حالة الطفولة، من صغر الجثة، وضعف البدن، والسمع، والبصر، وجميع الحواس، لثلاث تهلوكوا أمهاتكم بكم أجرامكم وعظم أجسامكم.

المرتبة السادسة: ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥]، وقد دخلت اللام هنا تأكيداً لها،

كما فى ﴿لَتَبَيِّنَنَّ﴾ اعتناءً ببلوغ الأشد، حيث يكون عنده التكليف، إذ هو المقصود من الإقرار فى الرحم، والمعنى: نمد أجلكم لتصلوا بهذا الانتقال إلى كمالكم فى القوة والعقل.

المرتبة السابعة: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]، أى ومنكم من يتوفى عند بلوغ الأشد أو قبله، ومنكم من يرد بالشيخوخة إلى أحسن العمر، وهو سن الهرم، فتنقص جميع قواه، ويعود كهيئته الأولى فى أوان الطفولة من سخافة العقل وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر من عرفه، فما أعظم هذه الدلالات على المراد، وما أوضح هذه الحالات على المقصود، ﴿فَالِئِهَآ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ولما تم هذا الدليل بأحكام المقدمات وأصح النتائج، وكان أول الإيجاد فيه غير مشاهد، وهو قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، ذكر سبحانه دليلاً آخر على البعث مشاهداً فى كل أحواله وملايساته، وهو قوله جل شأنه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾، أى ساكنة يابسة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا﴾ بما لنا من القدرة، ﴿عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ﴾ تحركت وتأهلت لإخراج النبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ أى ارتفعت، وذلك أول ما يظهر منها للعين، وثمرت بما يخرج منها من النبات الناشئ من التراب والماء ﴿وَأَنْبَتَتْ﴾ فيه مجاز؛ لأن الله تعالى هو المنبت، وأضيف إلى الأرض توسعاً، ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بِهَيْجٍ﴾ [الحج: ٥] حسن المنظر، نضير باختلاف الألوان، والطعوم، والروائح، والأشكال، والمنافع، والمقادير.

الموضع الثالث من سورة الروم:

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

قوله تعالى: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾، إما أن يكون ظرفاً للتفكير، والمعنى: أو لم يشغلوا قلوبهم الفارغة عن الفكر بالفكرة الصالحة، والتفكير وإن كان محله القلب، إلا أنه زيد قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ لزيادة تصوير حال المتفكرين، كما يقال: أبصره بعينه وأضمرة فى نفسه، وعلى هذا يكون المتفكر فيه هو قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على ما هما عليه من النظام المحكم، والقانون المتقن، فيعلموا أن الله تعالى لم يخلقهما

عبثًا ولا جزافًا، ولكن ليعتبر بها عباده، وليستدلوا بها على وحدانيته سبحانه، وكمال قدرته، وأنه إنما خلقها لمنافع العباد، بلاغًا لهم في دار التكليف، وعونًا لهم على اكتساب ما يسعدهم في دار الجزاء، وهو معنى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ والباء فيه إما سببية، أو حالية، أى ما خلقهما إلا للحق، أو ملتبسة بالحق مقرونة به، لا باطلاً، ولا عبثًا خاليًا عن حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مؤجلة بأجل مسمى، بعده يكون البعث، وفي قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ما يفيد أن هناك مخلوقات بين السماء والأرض بها كمال المنافع، وتمام النظام.

وإما أن يكون قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ هو متعلق بالتفكير وموضوعه، والمعنى عليه: هلا تفكروا في أمر أنفسهم التي هي أقرب المخلوقات إليهم، وهم أعلم بأحوالها، حتى يتضح لهم كمال قدرة الله تعالى، فإن من تفكر في تشريح بدن الإنسان، وما أودع فيه من غرائب التدبير الإلهي، حصل له العلم القطعى بأن الله تعالى فاعل مختار، كامل العلم والقدرة، منزّه عن الشركاء والأنداد، وحصل له كذلك العلم بحقيقة البعث والجزاء؛ لأنه إذا تفكر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال، وأجزائه مائلة إلى الانحلال، فيقطع بأنه سيفنى عن قريب، فلو لم يكن له حياة أخرى، لكان خلقه على هذا النحو عبثًا، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وهذا ظاهر؛ لأن من بالغ في تدبير شىء سيفنى عن قريب بالكلية، وصوره أحسن تصوير، واعتنى فى انتظام أحواله أبلغ ما يمكن من الاعتناء، مع علمه بأنه يصير عن قريب كأن لم يكن شيئًا مذكورًا، لا شك أن يضحك منه ويتعجب من سفاهته، فمن تفكر فى شأن نفسه على هذا الوجه علم أنه تعالى خلقه للبقاء، ولا بقاء إلا بالحشر، فظهر أن تفكر الإنسان فى أمر نفسه يؤديه إلى القطع بأن العالم كله له، إله واحد قادر على الإبداء والإعادة، ويكون قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، جملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها، ذكرت بعد إقامة دليل الأنفس استدلالاً بدليل الآفاق.

وبعد، فهذه براهين يقينية قطعية على إمكان البعث وجوازه، وأما تحقق الوقوع، فليس له إلا إخبار الصادق المصدوق الذى قامت المعجزة القاهرة على صدقه، وهو الرسول محمد ﷺ، وهذا ما استدعينا أن نتكلم عن المطلب الثالث الذى أنكره الماديون، وهو إثبات رسالة محمد، صلوات الله وسلامه عليه.

المطلب الثالث: إثبات رسالة محمد ﷺ:

يضطرنا إثبات هذا المطلب، أن نبين في وجازة ضرورة النبوات للبشر.

قال ابن سينا، كما نقله العلامة القاسمي في كتابه دلائل التوحيد: من المعلوم أن نوع الإنسان محتاج إلى اجتماع وشركة في ضروريات حاجاته، مكفياً بآخر من نوعه يكون ذلك الآخر أيضاً مكفياً به، ولا تتم الشركة إلا بمعاملة ومعاوضة يجريان بينهما، يفرغ كل واحد منهما صاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لزدحم على الواحد كثير، ولا بد في المعاملة من سنة وعدل، ولا بد من سان معدل، ولا بد من أن يكون إنساناً، ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم في ذلك فيختلفون، ويرى كل واحد منهم ما له عدلاً وما عليه جوراً وظلماً، فالحاجة إلى هذا الإنسان في بقاء النوع الإنساني أشد من الحاجة إلى إثبات الشعر على الأشفار والحاجبين، فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضى هذه وتدع تلك التي هي أثبتها، فلا بد إذن من نبي هو إنسان متميز من بين سائر الناس بآيات تدل على أنها من عند الله، يدعوهم إلى التوحيد، ويمنعهم من الشرك، ويسنّ لهم الشرائع والأحكام، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن التباغض والتحاسد، ويرغبهم في الآخرة وثوابها، ثم يكرر عليهم العبادات ليحصل لهم تذكّر المعبود بالتكرير، واستفادة ملكة الالتفات إلى الحق والإعراض عن الباطل.

وفي هذا المطلب أيضاً يسلك القرآن الكريم بالجاحدين والمنكرين مسلك الحث على النظر والاستدلال، وذلك فيما لا يسه من أحوال شريفة، وما اتصف به من خلال كريمة.

قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]، جاءت هذه الآية الكريمة ردّاً على اقتراح المنكرين في الآية السابقة: ﴿ أَفَتَبْقُرَانِ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلُهُ ﴾ [يونس: ١٥]، وفي هذا الاقتراح منهم رمز وإشارة بأنه إنما أتى بهذا الكتاب من عنده لا من جهة الوحي.

وبيان ذلك أن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً، ولم يشاهد عالماً، ولم ينشئ قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بذت فصاحته كل منطق، وعلا على كل منشور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرب عن

أقاصيص الأولين، وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، علم أنه معلم به من الله تعالى. وما أبدع قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]، أى أفلا تستعملون عقولكم لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم ممن لم يتعلم ولم يتلمذ، ولم يطالع كتاباً، ولم يمارس مجادلة، إنه لا يكون إلا على سبيل الوحي.

والآية فى فحواها ومعناها جواب عما دسوه تحت قولهم: ﴿ أَفْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس: ١٥] من إضافة الافتراء إليه ﷺ، فهذا محمد قد انقضى شبابه وولى، وأشرف على نهاية العقد الرابع من عمره، دون أن يبدو من أمره شىء خارق، أو يند عن المؤلف فى قومه إلا اشتهاره بالصدق والأمانة.

وفجأة، وفى هذه الفجاءة السر كل السر، إذا هذا الرجل الذى قطع ثلثى عمره هادئاً ساكناً، يصبح داعية حق، فيقذف بالحق الإلهى على الباطل الجاهلى فيدمغه، آخذاً بيد قومه إلى حيث نور الحقيقة الكبرى.

ثم لم يلبث أن اتصل ﷺ بملوك الأرض وأباطرتها عن طريق الكتب والرسائل، يدعوهم إلى الهدى والرشاد، منذراً لهم بعذاب أليم، إن هم صموا أذانهم عن سماع دعوته، واعدداً إياهم جنة النعيم إن هم آمنوا برسالته، ثم أتبع القول العمل، فسير جيوشه فى غزوة تبوك إلى حدود الشام.

وإن هو إلا وقت يسير بعد وفاته، حتى قام خلفاؤه الذين استقروا من نبعه واهتدوا بهديه يكتسحون الدنيا شرقاً وغرباً، وما هى إلا ثمانون سنة على ما قدره المؤرخون حتى كان أكثر من مائة مليون من البشر يدينون بدين هذا الأسمى العربى عن طواعية واختيار وحب وإكبار.

واليوم بعد أربعة عشر قرناً من الزمان يزيد أتباعه عن ألف مليون من البشر، وهم فى ازدياد مستمر. وهذا أمر منقطع النظر، وحدث لم تشهد الدنيا له مثيلاً بإجماع أهل الرواية والنقل الذين أنصفوا الحقيقة وصانوا لها حرمتها وقداستها.

هذا بالنسبة لتأسيس الدولة وقيامها فى تلك المدة الوجيزة، أما ما احتوته الدعوة من حقائق ونظم وتشريع، فهو أمر فوق القدر، ولا يأتى به إلا خالق البشر، فلو نظرنا إلى ما فى القرآن من تشريع لوجدنا فيه من القوانين والمبادئ الأساسية لتنظيم حياة الفرد والجماعة فى حالتى السلم والحرب ما لا زيادة عليه لمستزيد، فالحرية، والإخاء، والمساواة، والشورى، والتعاون الفردى والجماعى، كل ذلك نبه عليه القرآن وجلاه منذ

أربعة عشر قرناً من الزمان، فالحاكم والمحكوم أمام قانون الشريعة سواء، يقام الحد على أعظم الملوك سلطاناً، وعلى أقل الناس شأنًا، وفي فرض الزكاة تعاون جماعى بين المسلمين وترباط قوى بينهم، يقيهم مصارع الهلكة، ومأساة البغى والحسد، كما أنه لا تفاضل فى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ بالنسب، والمنصب، والجاه، بل بالتقوى، أعنى معرفة الله وتوحيده وطاعته، وما أبدع قول من قال:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على الحسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الحسب أباه

وفى هذا المعنى يقول عمر فى شأن أبى بكر الذى أعتق بلالاً، رضى الله عن الجميع: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا، إلى غير ذلك مما تضيق به الصحائف، ولا يتسع له الوقت، فالحق أنا لا نجد تفسيراً لهذا الذى جاء به محمد ﷺ إلا أنه وحى من عند الله رب العالمين الذى أحاط بكل شىء علماً.

ونسوق كذلك بعض آيات من القرآن الكريم تضمنت شيئاً من الأبحاث الكونية والطبيعية التى لا مفر للماديين من الاعتراف بها، وبذلك يكونون محجوجين ملزمين بأن ما أتى به محمد ﷺ وحى إلهى، وبالتالي أنه رسول حقاً وقيناً.

١ - قال الله تعالى فى سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

ففى قوله: ﴿ضِيَاءً﴾ إشارة إلى ما قرره الباحثون فى هذا الباب من أن القمر يستمد نوره من ضوء الشمس، حيث أن لفظ: ﴿ضِيَاءً﴾ يدل على معنى أجمع وأقوى من كلمة: «نور»، وفى قوله: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، إشارة إلى علم الهيئات الذى هو فرع مهم من فروع علم الفلك، تدور عليه مصالح الناس ومواقيتهم.

٢ - قال تعالى فى سورة الحجر: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونًا﴾ [الحجر: ١٩]، وقال بعد آية واحدة من نفس السورة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزَلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

فالآيتان تشملان ما قاله الباحثون فى الطبيعيات، من أن العناصر الداخلة فى تركيب الأجسام تكون على نسب معينة، وموازين مقدرة، كما قال تعالى فى سورة

الرعد: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، فالماء مثلاً مركب من أوكسجين وهيدروجين بنسبة (١ - ٢) وهكذا.

٣ - قال الله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وفي ذلك إشارة إلى علم التاريخ الطبيعي، فبين الإنسان وهذه الكائنات تشابه في الأجهزة الهضمية والتنفسية... إلخ.

٤ - قال الله جل شأنه في سورة الأعراف: ﴿ وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، ونلمح هنا مبدأ هاماً من مبادئ علم الصحة الغذائى.

٥ - قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، وفي ذلك إشارة إلى ما يسمى بالطب الوقائى.

٦ - قال سبحانه في سورة النساء: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وفى ذلك إشارة إلى مبدأ هام من مبادئ الطب النفسى، ولقد عد علماء المسلمين اليأس من رحمة الله كبيرة من الكبائر، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، كما عدوا الأمن من العقوبة كبيرة من الكبائر، إذ فى ذلك انتشار الفوضى، وانتهاك الحرمات، والجنابة على الأنفس والأموال، ومن هنا قال القرآن الذى جاء به محمد ﷺ فى صفة المؤمن الصادق: ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩].

٧ - يقول جل جلاله فى سورة مريم: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨].

وفى ذلك إشارة إلى علم الوراثة وقوانينها، غير أنه لا يغيب عن البال ما قدمناه سابقاً أثناء الكلام عن المطلب الأول عند الحديث عن مظاهر التدبير الإلهى، من أن عوامل الوراثة ليست ذاتية، بل هى سبب عادى يصح تحلفه.

٢ - إزام القرآن للملین

ویضمن هذا القسم: بحث آیات القرآن التی تخص اليهود وحدهم بالخطاب، وتلزمهم الحجة والبرهان، وآیات تخص النصارى وحدهم، ثم آیات تجمع بينهم فى خطاب واحد، تدعو كلا من الفريقین إلى الإیمان والتوحید على مقتضى رسالة محمد ﷺ.

ولما رأینا بعض المعاصرین، وهو المحامى أحمد حسین، فى كتابه: فى الإیمان والإسلام، قد خالف صریح النص القرآنى الناطق بكفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، نهنا على ذلك، ورددنا علیه بمقتضى الأصول والموازن الصادقة، وقد قدمنا بین یدى البحث تمهیداً نبین فيه ما یجب على المكلف اعتقاده كما وضحته الآیات القرآنیة.

كانت سورة البقرة من السور الطوال التی فصلت فیها الأصول، والأدلة، والأحكام، ولذلك وجدنا فیها المطالب الثلاثة التی تلزم كل مكلف، وتحتتم علیه مؤیدة بالدلیل والبرهان، وهذه المطالب هی:

١ - التوحید.

٢ - نبوة سیدنا محمد ﷺ.

٣ - المعاد.

أما الأول: وهو التوحید:

فقد ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فإنه لما ذكر فى أول السورة قبل ذلك فرق المكلفین من: المؤمنون، والكافرين، والمنافقين، وصفتهم وأحوالهم، وما اختصت به كل فرقة، أقبل عليهم بالخطاب ملتفتاً عن الغيبة، فأمر ونهى، ودعا إلى عبادته وحده، ثم وصف نفسه بأوصاف دالة على وحدانيته من خلقهم وخلق من قبلهم أحياء قادرين، وخلق مفترشهم ومستقرهم الذى لا بد لهم منه، وخلق ما هو كالخيمة المضروبة على هذا المستقر، ومن ربط المظلة على المقلة بإنزال الماء، والإخراج به من بطنها فى أشباه النسل الناتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقاً لبنى

آدم تذكيراً لهم بأعظم نعمه؛ ليستدلوا به على وحدانية المنعم من حيث إنه لا يقدر عليه غيره، فإن تذكير النعمة يوجب المحبة، وترك المنازعة، وحصول الانقياد، ويدعو إلى مقابلتها بالشكر لمنعمها.

وتخصيص نعمة الوجود، وما تتوقف عليه الحياة من المسكن والمعاش لكونها أدعى إلى التفكير في أن هذه النعم المخلوقة لا يقدر على إيجاد شيء منها إلا خالق ليس كمثل شيء، حتى يتيقنوا بأن ربهم إله واحد منزه عن الشركاء والأنداد، ولا يجعلوا شيئاً من المخلوقات نداً له، وهم يعلمون أن شيئاً منها لا يقدر على نحو ما هو قادر عليه.

أما الثاني: وهو نبوة محمد ﷺ:

فقد أفصح له سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ففي هذه الآية الكريمة احتجاج قائم على نفى الريب عن القرآن، وهو يتضمن في الوقت نفسه الاحتجاج على صدق محمد ﷺ فيما ادعاه من النبوة؛ لأن حقيقة القرآن تستلزم ذلك، فكانت هذه الآية من دلائل النبوة بهذا الاعتبار.

والآية تعلم الكافة بنبوة سيدنا محمد ﷺ من حيث القرآن المعجز بفصاحته وإفحامه من طولب بمعارضته، إلا أنهم لقصور نظرهم لم يتفطنوا لإعجازه، وقالوا: إنه مختلق مفترى، ويبعد كونه كلام الله تعالى؛ لأنه لو كان من عند الله تعالى، لأنزل جملة واحدة مخالفاً ما يكون من عند الناس؛ لأن ما يوجد عندهم من الكلام المنظوم والمشور إنما يوجد مفرقاً منجماً حيناً بعد حين، شيئاً بعد شيء، حسبما يعين لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة.

فلما رأوا القرآن العظيم هكذا نجومًا، سورة بعد سورة، وآيات بعد آيات، حسب النوازل، وكذا الحوادث، قالوا: هذا لا يشبه كلام الله تعالى، وإنما لفي شك منه مريب؛ لأنه لو كان كلام الله تعالى لأنزله جملة واحدة على خلاف عادة الناس، كما حكى الله تعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ...﴾ [البقرة: ٢٣] الآية، أى إن ارتبتم في هذا الذى نزل على التدريج، فهاتوا أنتم نجمًا من نجومه، فإنه أيسر عليكم من أن ينزل دفعة، فيتحدى بالجموع، فيكون التحدى حينئذ بكل القرآن لا ببعضه كما

هو الحال فى نزوله منجماً، فقد جعل ما اتخذوه وسيلة إلى القدرح وسيلة إلى تبكيتهم وإلزامهم، وهى غاية التبكيت والإلزام، فإنهم طولبوا مرة بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله تعالى: ﴿ قُلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يأتوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَأَ يأتُونَّ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومرة بأن قيل لهم: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣]، فالحجة فى إثبات نبوته، عليه الصلاة والسلام، هى القرآن، إلا أنهم لما ارتابوا فى حجته، وطعنوا فيه باحتمال كونه مفترى، أزال شبيهم بهذه الآية التى بين بها إعجازه، فإنهم إذا عجزوا عن الإتيان بما يوازى أقصر سورة منه، ظهر كذبهم فى تجويز الاختلاق والافتراء، وتبين كونه من عند الله تعالى، كما يدعيه من نزل عليه، وقد عرفهم الله تعالى بهذه الآية ما يتعرفون به إعجازه وكونه نازلاً من عند الله تعالى كما يدعيه من نزل عليه، وهو أن يمتحنوا أنفسهم ويجربوا طبائعهم هل يقدرّون على إتيان ما يوازى أقصر سورة مما أتى به من لم يكتب، ولم يقرأ، ولم يخالط القراءة.

فهو تعالى لما بين بهذه الآية ما هو الحجة على نبوته، عليه الصلاة والسلام، بعد ذكره الحجة على وحدانيته، صارت الآيتان بمنزلة أن يقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأما الثالث: وهو ثبوت المعاد:

فإن الله تعالى ذكر الدليل عليه بقوله سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَئِن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، أى فاتقوا الفساد المستلزم له دخول النار، فاتقاء النار كناية عن اتقاء الفساد المستلزم له.

وبيان ذلك وإيضاحه: أنه تعالى لما بين لهم ما يتعرفون به أمر الرسول ﷺ، وما جاء به، وميز لهم الحق من الباطل، رتب عليه ما هو كالخلاصة والفدلكة له، وهو أنكم إذا اجتهدتم فى معارضته وعجزتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، ظهر أنه معجز، والتصديق به واجب، فآمنوا به واتقوا العذاب المعد لمن كذب، وفى هذا إثبات للمعاد من حيث إنهم لن تكون منهم معارضة أبداً، وعليه فالواجب عقلاً ومنطقاً أن يصدقوا بالقرآن وبكل ما جاء فيه مما يعم الوعد والوعيد فى دار البقاء.

ولابد لنا من أن نبين، ونحن فى هذا المقام، كيف أفاد لفظ ﴿ النَّاسُ ﴾ فى الآية السابقة العموم، فنقول: استدلل العلماء على أن الجموع المحلاة بالألف واللام نحو: الرجال، والنساء، وأسماء الجموع نحو: القوم، والرهط، والناس تفيد العموم والاستغراق بثلاثة أوجه:

الوجه الأول: صحة الاستثناء منها، وقد تقرر أن الاستثناء لا يكون إلا من العام؛ لأنه يخرج ما لولاه لدخل، فلو قلت: رأيت الناس، لصح استثناء كل واحد من أفراد الناس من الناس، ولو قلت: كلمت القوم، لصح استثناء كل واحد من أفراد القوم من القوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢]، فإنه استثنى من الجمع المضاف إلى المعرفة، فعلم أنه للعموم كالجمع المحلى بالألف واللام.

الوجه الثاني: أنه يصح تأكيدها بما يفيد العموم، كقوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]، والتأكيد تقرير ما يفيد المتبوع، فلو لم يكن لفظ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ للعموم لما كان قوله: ﴿كُلُّهُمْ﴾ تأكيداً له.

الوجه الثالث: استدلال الصحابة بعمومها من غير نكير، فإنه لما وقع الاختلاف بعد رسول الله ﷺ في أمر الخلافة، فقال الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير، تمسك أبو بكر، رضی الله تعالى عنه، بقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»، ولم ينكره أحد، يعنى أن جمهور الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، سلموا أن الجمع المعرف بالألف واللام، وهو لفظ الأئمة الواقع في الحديث يفيد العموم والقصر عليهم.

وبناء على هذا فكلمة ﴿النَّاسُ﴾ في الآية الكريمة تعم الموجودين وقت النزول عموماً مستفاداً من النظر إلى جانب اللفظ، واعتبار كونه موضوعاً للعموم مع قطع النظر عن القرائن الخارجية، بخلاف من سيوجد بعد وقت النزول، فإن لفظ ﴿النَّاسُ﴾ وإن كان يعمهم أيضاً، إلا أن عمومه ليس بجهة لفظ فقط، بل بالنظر إلى القرينة الخارجية، وهو ما تواتر من دينه، عليه الصلاة والسلام، أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين، ثابت إلى قيام الساعة، إلا ما خصه الدليل وأخرجه عن الدخول تحت مقتضى خطابه وأحكامه ممن لا يفهم الخطاب كالصبي، والمجنون، والمغمى عليه، والناسي، ومن لا يقدر على إتيان المأمور به وترك المنهى عنه.

وإنما كان لفظ ﴿النَّاسُ﴾ في هذه الآية لا يتناول بجهة لفظه من سيوجد بعد وقت الخطاب؛ لأنه خطاب مشافهة، فهو لا يتعلق بالمعدوم، وإنما يتعلق بمن وجد في ذلك العصر، ولا يثبت الحكم لمن وجد بعدهم إلا بدليل آخر، نصاً كان، أو إجماعاً، أو قياساً، فإننا قد عرفنا بالتواتر كما تقدمت الإشارة إليه أن الخطاب المتعلقة بالموجودين في عصر النبوة ثابتة في حق من سيوجد بعد ذلك إلى قيام الساعة.

هذا ولا ينافى عموم لفظ ﴿النَّاسُ﴾ الشامل للمؤمن والمنافق، ما روى عن علقمة والحسن، وهما تابعيان جليان، أن كل حكم وخطاب نزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] فمكى، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] فمدنى، فإنه يدل على تخصيص الناس بالكفار الكائنين بمكة، لأننا نقول: إن كان ذلك رأياً لهما، فلا يعترض به على عموم لفظ الآية، وإن كان مرفوعاً إلى النبي ﷺ، فلا يوجب تخصيصه بالكفار، فإن كونه مكياً لا يوجب كون الخطاب متوجهاً إلى من فى مكة من الكفار فقط؛ لأن أهل مكة ليسوا بمشركين جميعاً، بل منهم من هو مؤمن خالص.

وقد يقال بناء على هذا العموم: كيف يوجه الأمر بالعبادة إلى الكفار، وليسوا مكلفين بها حال كفرهم؛ لانتفاء شرط صحتها، وهو الإيمان، وهذا الحكم متفق عليه بين الأئمة الشافعية والحنفية.

فنقول: أن أمر الكفار بالعبادة معناه أمر بتحصيل شرطها، وهو الإسلام، كأنه قيل لهم: حصلوا أولاً شرط العبادة، ثم اتتوا بها، فإن الأمر بالشىء يتضمن الأمر بإتيان ما يتوقف عليه أيضاً، كما إذا أمر المحدث بالصلاة، فإنه مأمور بالتوضؤ أيضاً ضمن أمره بالصلاة ضرورة أن وجوب الشىء يوجب وجوب ما لا يتم ذلك الشىء إلا به، وقد يقال أيضاً، بناء على هذا العموم: أن خطاب ﴿اعْبُدُوا﴾ على تقدير عمومته لفرق المكلفين من مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، يستلزم إما استعمال اللفظ المشترك فيما وضع له عموماً، وإما عموم الحجاز، فإن العبادة التى أمر بها كل فريق غير العبادة التى أمر بها الفرق الباقية.

فنقول: استعمل لفظ ﴿اعْبُدُوا﴾ فى المعانى المختلفة للفظ العبادة، وظاهر أن أحداث العبادة فى المستقبل معنى حقيقى له، فإن كانت المعانى الأخرى كذلك يلزم الأمر الأول، وإلا يلزم الأمر الثانى، فإن المأمور به هو القدر المشترك بين تلك المعانى، وليس له معان متعددة حتى يلزم أحد المحظورين، بل له معنى واحد وهو القدر المشترك بين أفرادها، فالمطلوب على هذا من المؤمن، والكافر، والمنافق، قدر مشترك بينها، وهو الاتجاه إلى الله تعالى، فيكون معناه بالنسبة للكفار، أحداث العبادة بعد تحصيل شرطها على ما تقدم، وبالنسبة للمؤمن زيادته فى العبادة واستمراره فيها، وبالنسبة للمنافق تحليص قلبه من غير الله تعالى.

وإذا ما قيل بعد هذا: أن سورة البقرة مدنية باتفاق، قلنا معناه: أن أغلبها لا كلها، أو إن القاعدة أكثرية لا كلية، فقد يكون بعض السور مدنياً وفيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ كسورة البقرة، وقد يكون بعض السور مكيًا وفيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كسورة الحج.

تأكيد وتقرير لهذه المطالب الثلاثة:

نعم أكد القرآن الكريم هذه المطالب الثلاثة، حيث أورد الله تعالى عقب تلك المطالب تعداد النعم العامة لجميع بنى آدم، حيث قال جل شأنه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨، ٢٩]، فقد سبقت هاتان الآيتان تعداداً لنعم بنى آدم، وهذه النعم تقرر دليل الوحداية من حيث إنها أمور حادثة لا بد لها من محدث منفرد بوجود الوجود، وصفات الكمال، وتقرر دليل المعاد أيضاً من حيث إن تلك النعم مشتملة على خلق الإنسان وأصوله، فإنهم كانوا فى الأصل أجساماً لا حياة لها، عناصر وأغذية، وأخلاقاً نطفاً ومضغاً مخلقة وغير مخلقة، تامة الخلق، وغير تامة الخلق، ثم أحيها الله تعالى بخلق الأرواح ونفخها فيها، ومشتملة على خلق ما هو أعظم من ذلك، وهو ما فى الأرض والسموات، ولا شك أن من قدر على خلق هذه الأمور ابتداءً قادر على خلقها إعادة.

وأما تقرير نبوة سيدنا محمد ﷺ، فيؤكدده ويقرره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، إلى آخر القصة من حيث إن نبينا، عليه الصلاة والسلام، أخبر عن أحوال آدم وحواء، وما وقع لهما من الحوادث والجزئيات التى لم يقف عليها إلا من له المعرفة بالكتب السماوية، فإنها مذكورة فيها، وهو عليه الصلاة والسلام، نشأ بين قوم أميين ولم يعرف بالاختلاف إلى أحد من أهل الكتاب، ولم يكن له معرفة باللسن الذين ذكرت القصص فى كتبهم، ولم يغترب عن وطنه مدة يمكن التعلم منها، ولم يوجد النكير من له المعرفة بالكتب فى شىء مما أخبر به.

فدل ذلك على أنه علم من طريق الوحى من الله تعالى إليه، فكان ذلك دليلاً قطعياً على نبوته، إذ لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ومن ارتضاه لرسالته، فيظهر الغيب عليه ليلغى إلى الخلق ليتتبعوا بما فيه من إصلاح دينهم وديناهم.

ولا شك بعد هذا البيان والإيضاح، أن القرآن حجة بينة عامة شاملة، لا تختص بطائفة دون أخرى، ولا مذهب دون سواه، من حيث إنه نزل وهو يحمل فى طيه وبين ثناياه الدليل على أنه من عند الله تعالى، حيث إن أحداً لم يستطع أن يحاكيه، ولا أن يعارضه فى أى ناحية من النواحي فى نظمه ومعانيه، فى تشريعه وأحكامه، فى قصصه وأخباره، فكان ذلك حجة بالغة وآية بينة لكل مكلف فيما طلب إليه أن يقوم به من عقيدة، وامتنال أمر، واجتناب نهى.

نعم، عجز الكل عن معارضته وهم يرونه مكتوباً، ويسمعونه مقروءاً بلسان عربى مبين، فليس هو من الأحاجى والألغاز، ولا من الطلاسم والأسرار، وليس محجوباً عنهم ولا خافياً عليهم.

وكم تكرر وصف الله تعالى له بأنه كتاب مبين، وبأنه قرآن عربى، عجزوا عن معارضته، وهو يصف من كذب به بأنه أصم، وأبكم، وأعمى، وأنه فى الظلمات ليس بخارج منها، وأنه شر من الدواب، وأن له فى الآخرة نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيى.

عجزوا عن معارضته وهو يبين أن أعمال الخير الصادرة ممن كفر به: ﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩]، فما كان أيسر لهم أن يعارضوه لو استطاعوا ليزيلوا عن أنفسهم هذه النقائص، ويريحوا أفئدتهم من هذا العناء، ويخلصوا وجودهم من هذا الشقاء المضنى الأليم.

عجزوا عن معارضته وهو يقول لهم: ﴿ لَنْ تَفْعَلُوا ﴾ المعارضة ولن تستطيعوها، فأربى بذلك على الغاية، وأتى على ما فوق النهاية، ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ [هود: ١].

عجزوا عن معارضته وهو يقول فى محكم آياته: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، ويقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

فهو يأمرهم بمقتضى هذه الآيات أن يتدبروه، وأن يتفهموه، وأن ينظروا فيه حتى لا تبقى لهم شبهة يتعللون بها، ولا وهم يتمسكون به، يعنى فالقرآن العظيم مصدق لنفسه فيما جاء به من نفائس علم التوحيد، وحقائق علم الأحكام، وأسرار قصص الأولين، بسبب الإعجاز الذى هو حقيقة من حقيقته، وركن من أركان معناه، وهذا ما يجب ألا

يغيب عن البال، وأن يكون في قرارة كل نفس مؤمنة بالقرآن.

فالملاحظ حين يقول: إنى لا أومن بما جاء في القرآن من حقائق وعلوم، إلا إذا ثبت ذلك عندي بالدليل العقلي، نقول له: إن القرآن يحمل معه الدليل العقلي على أنه من عند الله تعالى، وهو تحديه لكل الخلائق وعجزهم عن المعارضة كما بينا، فهات ما عندك من المعارضة، وإلا فأنت محجوج بالبرهان الصادق، وملزم بالدليل الصحيح.

وإن لم يكن في استطاعتك وحدك أن تأتي بالمعارضة، فضم إلى نفسك من يساويك، أو أعلى منك من عموم الإنس والجن إن أمكنك، ونعلمك من الآن أنكم جميعاً عاجزون مقهورون، فسلم دون مكابرة، ولا معاندة، واعلم أنه تنزيل من رب العالمين، وسيبقى القرآن كذلك غالباً غير مغلوب، قاهراً غير مقهور، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وأما إذا لم تكن من أهل البحث والنظر، فألق قيادك لأهل العلم، وانضو تحت لوائهم، فهم العارفون بالحقيقة والأمناء عليها، وهم حماة الحراس عليها، وصدق القائل إذ يقول:

وأذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

هذا وليعلم أن هذا الإعجاز خاص بالقرآن دون الكتب السابقة، فكل واحد منها وإن تعين صدقه بأن صدق الله تعالى مبلغه بأن أظهر على يديه من المعجزات القاهرة ليس معجزاً مصداقاً لنفسه، ومن هنا، أى من حيث إن القرآن العظيم مصدق لنفسه بسبب كونه معجزاً كان مصداقاً للكتب المتقدمة، معياراً عليها، شاهداً على مضمونها، وصحتها.

تلکم هي المطالب الثلاث مع أدلتها، والتي تلزم جميع فرق المكلفين، بما فى ذلك اليهود والنصارى، إلا أن الله تعالى خص اليهود والنصارى بالذكر؛ لما لهم من شرع سماوى سابق، ووحى إلهى ماض، فكان كفرهم أفظح، ومخالفتهم أفحش، وهو ما نذكره فيما يلى.

هذا وقد قدمنا لك بسطاً وإيضاحاً لهذه المطالب الثلاثة من حيث إثباتها، والرد على من أنكرها وكفر بها من الماديين فى القسم الأول.

حاجه القرآن لليهود:

قال الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْسِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٢].

بنو إسرائيل: بنو إسرائيل هم اليهود خاصة، وإن كانت الكلمة بأصل وضعها تشمل اليهود والنصارى، من حيث إن إسرائيل لقب يعقوب، عليه السلام، فمعنى إسرا بالعبرانية عبد، وإيل الله، فمعناه عبد الله، وقيل: صفوة الله، ولا شك أن النصارى من أبنائه، وهم فى الأصل قوم من اليهود آمنوا بوعيسى، عليه السلام.

ودليل هذا الاستعمال أن القرآن حين قال هنا: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ [البقرة: ٤٠]، ذكر ما أنعم على أسلافهم من فلق البحر، وإجرائهم من فرعون، وغير ذلك من النعم التى لم تعرف إلا عند اليهود، دون النصارى، كذلك قال تعالى فى سورة المائدة: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة: ١٢]، إلى أن قال: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٤]، ثم جمعها فى خطاب واحد بعد ذلك حيث قال جل شأنه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [المائدة: ١٥]، وكذلك قال فى هذه السورة أيضاً: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَأْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٠]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، ثم جمعها فى خطاب واحد، فقال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١].

وهؤلاء اليهود خصهم الله تعالى بالذكر، وطالبهم بالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ، وأتى لهم بأدلة خاصة تلزمهم بعد أن أدخلوا فى عموم الخطاب السابق فى قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١]، وذلك لما لهم من العلم والإيمان بالتوراة، فالخطاب فى قوله: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [البقرة: ٤٠] لعلماء اليهود، بقرينة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ [البقرة: ٤١]، أى لا تكونوا أئمة فى الكفر

يقتدى بكم أتباعكم، فتكونوا حاملين لأوزاركم وأوزارهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، والجهال لا يقتدى بهم، فلا يكونون أول الكفار، خاطبهم الله تعالى، وأمرهم أن يذكروا نعم الله عليهم، استمالة لقلوبهم، وتحريضاً على أداء شكرها، وتوبيخاً على إعراضهم عنه، وأمرهم بعد تذكير النعم أن يوفوا بعهوده؛ ليكونوا أئمة في الإيمان به، عليه السلام، وبما أنزل عليه.

نعم الله على بنى إسرائيل:

والنعم على بنى إسرائيل كثيرة، منها أنه تعالى استنقذهم من فرعون وقومه، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأنزل عليهم الكتب، وجعل فيهم أنبياء، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وهذه النعم وإن كانت على أسلافهم، فهي نعم عليهم أيضاً؛ لأن الإنعام على الآباء إنعام على الأبناء، من حيث إن الأبناء يشرفون بشرف الآباء.

وقيل: أراد بالنعم ما أنعم الله به على آبائهم وعليهم، حيث أدركوا زمن النبي ﷺ، وبناء على هذا يكون انتظام الآية بما قبلها حسناً جداً من جهة أنه تعالى لما عرض لهم من أول هذه السورة إلى هذا الموضوع مراراً متعددة، حيث ذكر نفاقهم، وعذابهم الأليم على هذا النفاق، وعدد ما أنعم به على كافة البشر من نعمه العامة التي من جملتها تكريم أبيهم آدم، عليه السلام، وأنكر قبح حال من يكفر بالله الذي أنعم بمثل هذه النعم، ثم خاطب الكل بقوله تعالى: ﴿فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

ومن هنا كان تخصيصهم بالخطاب من بين المخاطبين بعد ذكر الخطاب العام في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] حسن الموقع جداً من حيث إنهم قد آتاهم الهدى، وتمكنوا من الانتفاع بالنعمة العظمى، وهي نعمة من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين في وقت اختلافهم وتغييرهم الكتاب، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا، وقد خص أسلافهم من جلائل النعم بما لم يظفر بمثله أحد، فأمروا بشكر هذه النعم حتى يكونوا ممن أدى شكر سوابق النعم ولو احقها.

ولم يرض بعض العلماء بهذا القول بناء على أن حمل النعمة على ما ذكر يحتاج إلى

تكلف، إما أن يحمل قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] على حذف كلمة ﴿وَعَلَىٰ آبَائِكُمْ﴾، وإما أن يجعل الخطاب لجميع بنى إسرائيل الحاضرين والغائبين بتغليب الحاضرين، فإنه لو لم يتكلف أحد هذين الوجهين، للزم أن يجمع بين الحقيقة والحجاز في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن يراد ما أنعم به عليهم وعلى آبائهم.

وقيل: أراد بقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ما أنعم به على جميع البشر من خلقهم أحياء قادرين، ومن خلق جميع ما فى الأرض، ثم تسوية السموات السبع لينتظم جميع ما يصلح به أمر معاشهم ومعادهم، إلى غير ذلك من النعم الشاملة لجميع المكلفين، فعلى هذا فالخطاب وإن كان خاصاً بينى إسرائيل لكونهم مقصودين بالتبكيث، حيث إن هذه السورة أول سورة نزلت بالمدينة، وقد آمن من أجلها من آمن، ولم يبق إلا معاند، ونعنى بينى إسرائيل اليهود الذى نسوا نعمة الله عليهم، وتركوا شكرها، إلا أن جميع الناس يشاركونهم فى حكم هذا الخطاب، وهو وجوب ذكر نعمته تعالى عليهم لما رزقوا من فنون النعم التى لا تحصى، وعلى هذا يقال: ما دام المراد بالنعمة النعمة العامة لكل البشر، فلم قيدت النعمة بهم، حيث وصفها بقوله تعالى: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ؟﴾.

فنقول: قصد بهذا استمالة قلوبهم، وحملهم على أداء شكرها فيما أمر به ونهى عنه، وهذا المقصود إنما يتم إذا لوحظت النعم باعتبار وصولها إلى المنعم عليه، مع قطع النظر عن حصولها لغيره، فإن هذه الملاحظة بهذه الجهة توجب استمالة قلوبهم، وتحملهم على أداء شكرها.

والذى يتخلص فى بيان المراد من النعمة عليهم: إما أن يكون المراد بالنعمة عليهم نعم آبائهم خاصة، ويكون المراد من قوله سبحانه فيما بعد: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] التأكيد والتقوية لهذا المعنى، وإما أن يكون المراد نعم آبائهم الماضين، ونعمه سبحانه عليهم فى إدراكهم زمن محمد ﷺ، ويكون قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ تأكيداً أيضاً بالنسبة لنعم الأباء الماضين على ما هو ظاهر، وإما أن يكون المراد بالنعمة عليهم ما أنعم به على جميع البشر، كما تقدم إيضاحه، ويكون قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ تأسيساً لا تأكيداً كما لا يخفى.

ثم ليعلم أن الكلام جرى معهم من هنا ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠] إلى

حزب: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، فتارة دعاهم بالملاطفة، وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم كما بينا، وتارة بتوبيخهم على سوء أعمالهم وذكر عقوبتهم التي عاقبهم بها، وكان في ذكر هذا كله وإيضاحه وتفصيله على لسان نبينا محمد ﷺ، وهو النبي الأمي الذي لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يخالط أحداً ممن له دراية بالقراءة والكتابة، أصدق شاهد وأكبر برهان على نبوته ﷺ وصحة دعوته لهم ولغيرهم، وعلى وجوب الانضواء تحت لوائه، والتصديق بما جاء به.

قال سيدي عبد الرحمن الثعالبي الجزائري في تفسيره المرسوم بالجواهر الحسان في تفسير القرآن ما نصه: قال الطبري: وفي إخبار القرآن على لسان النبي ﷺ بهذه المغيبات التي لم تكن من علم العرب، ولا وقعت إلا في خفي علم بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل وقائم عليهم بنبوّة نبينا محمد ﷺ.

تصديق القرآن لما سبقه:

ولنتكلم على قوله تعالى: ﴿ وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٤١]، اندرج الأمر بالإيمان بالقرآن في قوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ [البقرة: ٤٠] في الآية قبل، إلا أنه أفرد الأمر به على طريق عطف الخاص على العام، تبييناً على شرفه من حيث إنه طاعة مقصودة في نفسها، متعبدة بذاتها، لا تتوقف صحته واعتباره على شيء آخر من الطاعات، بل هو عمدة يعتمد عليه سائر الطاعات، وبه اعتبارها، وأنها من فروعه وثمراته. ولما كان أصلاً مقصوداً بالذات من التكليف، ورعاية الوفاء بالعهود، صار كأنه أمر مغاير للعهود المأمور بإيفائها.

وقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾، وجه تصديقه لما معهم من الكتب من حيث إنه نازل حسبما نعت فيها، أو مطابق لها في الدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة، والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش، وغير ذلك من الأمور التي لا تتبدل باختلاف الأمم والأديان، فلا يجري فيها النسخ، فهو مصدق لها في هذه الأمور، ومصدق لها كذلك فيما يخالفها من جزئيات الأحكام وفروعها بسبب اقتضاء مصلحة كل قوم وزمانهم، من حيث إن كل واحدة منها حق بالنسبة إلى زمانها، ومنسوخة عند انقضاء زمانها، فالجزئيات المخالفة بحسب الزمان كحل فعل ما، وحرمة مطابقة من حيث إن كل واحدة منها حق تقتضيه مصلحة كل قوم وزمانهم.

قال الإمام زادة^(١): قال الراغب: لا منافاة بين ما أتى به الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من أصول العبادات، وأنهم كنفس واحدة، من حيث إنه يتساوى دعاؤهم إلى التوحيد والأركان الثلاثة من الشرائع، التي هي العبادات الخمس، وأحكام الحلال والحرام، والمزاجر، وإنما الاختلاف بينهم في جزئيات الأحكام وفروعها، كيفما تقتضيه مصلحة كل قوم وزمانهم، فكل نبي مصدق للآخر فيما أتى به، من حيث إن كليتا شرائعهم متساوية، وأن فروعها حق بالإضافة إلى زمان كل واحد منهم وأمته، حتى لو كان أحدهم في زمن الآخر لم ير المصلحة إلا فيما أتى به الآخر، ولذلك قال ﷺ في حق موسى بن عمران: «ما وسعه إلا اتباعي»، فعلى هذا وإن كانت في القرآن أحكام جزئية مخالفة لما في الزمان الأول والكتب السابقة صورة، فإنها موافقة من حيث إن كل واحد منها مقتضى الحكمة والمصلحة، فظهر من هذا أن المنسوخ موافق للناسخ حقيقة، من حيث إن كل واحد منها مقتضى الحكمة. أ.هـ.

والحديث المشار إليه نصه: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، كما ذكره الخطيب الشربيني في تفسيره، فما دام القرآن الكريم مصدقاً للكتب السماوية، فاتباع هذه الكتب لا ينافي الإيمان بالقرآن، بل يوجب الإيمان به؛ لكونه مطابقاً لها ومصدقاً، ولذلك قال جل شأنه: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوْلَٰ كَافِرِيهِ﴾ [البقرة: ٤١]، فالمقصود به تأكيد الأمر بالإيمان به، وتقوية لإيجابه، كأنه قيل: آمنوا بما أنزلت، بل كان الواجب عليكم أن تكونوا أول من آمن به، لكونه مصدقاً لما معهم من الكتب المنزلة عليهم، وواجب عليهم اتباع ما يطابقها بعد الاعتقاد بحقيقته وحقيقة ما فيه من الأحكام، وإلا لم يكونوا معتقدين بحقيقة كتابهم ومتبعين إياه.

وقد عرف أهل الكتاب موافقة القرآن الكريم لكتبهم، حيث لم يتكلفوا جمع القرآن إلى كتبهم، ومقابلة البعض ببعض، ولو كان مخالفاً لهم في زعمهم لفعلوا ذلك حتى يظهر الخلاف، فيظهر كذبه، عليه الصلاة والسلام، في قوله: إن القرآن منزل عليه، فينجوا من تعرضه لها، فلما لم يفعلوا، دل ذلك على أنهم عرفوا أن القرآن موافق لكتبهم.

نعم عليهم أن يكونوا أول من آمن به؛ لما تقدم من مطابقة القرآن الكريم لما معهم، ولأنهم كانوا أهل نظر في معجزاته ﷺ، والعلم بنشأته؛ لأنه قد مر أن الخطاب في

قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠] لعلماء أهل الكتاب، فهم أهل النظر والاستدلال بخلاف المشركين وجهلة أهل الكتاب، فإنهم ليسوا مثل هؤلاء العلماء فى أهلية النظر والاستدلال، وكانوا يستفتحون على الذين كفروا، أى يطلبون الفتح والنصرة على المشركين، ويقولون: قد آن بعث النبى الأسمى الذى نجاه فى التوراة والإنجيل، فإذا بعث فنحن نؤمن به أول الناس كلهم ونقاتلكم معه، وهو ما يصرح به قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، كما أنهم كانوا يبشرون العرب بزمانه ﷺ، ويقولون: قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا من طلب الاستفتاح والنصر، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فهذه الأمور تقتضى أن يكونوا أول من آمن بالقرآن، وبواسطة اقتضائها يؤمنوا بمحمد ﷺ قبل المشركين والجهلة منهم.

تبديل اليهود لآيات الله:

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِكُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، اختلف فى الثمن الذى نهوا أن يشتروه بالآيات، فقالت طائفة: إن الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة، فنهوا عن ذلك، وقيل: كانت للأحبار مأكلة ياكلونها على العلم، وقال قوم: إن الأحبار أخذوا رشى من الحكام على تغيير صفة محمد ﷺ، وقال قوم: معنى الآية لا تشتروا بأوامرى ونواهى وآياتى ثمناً قليلاً، يعنى الدنيا ومدتها، والعيش الذى هو نزر لا خطر له، وهذا القول الأخير هو الأليق، فإن معناه أنهم كفروا بمحمد ﷺ حقداً، وحسداً، وجحداً، وعناداً.

كفروا به مخافة أن يفوتهم ما هم فيه من رياسة، وسيطرة على العامة، يعنى غرتهم الدنيا، ومالت بهم عن الحق الواضح والصراط المستقيم، نعم لو ثبت أنهم كانوا يأخذون الرشوة، أو كانت لهم مآكل على العامة، أو كانوا يأخذون على تعليم التوراة أجراً وهم منهيون عن ذلك، وجب المصير إليه، وإلا فالقول الأخير أوفق وأحكم كما تقدم، ولذلك قال بعض الأئمة: واعلم أن هذا النهى صحيح، سواء كان فيهم من فعل ذلك أو لم يكن، بل لو ثبت أن علماءهم كانوا يأخذون الرشى على كتمان أمر الرسول ﷺ وتحريف ما يدل على ذلك كان الكلام أبين.

ثم ويجهم الله تعالى على سوء صنيعهم، وإضلالهم أمر العامة، فقال: ﴿وَلَا تَلِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، أمروا أولاً بتكميل نفوسهم بالإيمان، واتباع الآيات، وترك الضلال، ثم نهوا عن إضلال غيرهم، وإضلال الغير له طريقان، وذلك لأنه إن كان قد سمع دلائل الحق، فإضلاله إنما يكون بتشويش تلك الدلائل عليه بالشبهات الباطلة، وإذا كان لم يسمعها، فإضلاله إنما يكون بكتمها وإخفائها عنه حتى لا يصل إليها ويستدل بها على الحق.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، نهى عن الطريق الأول بالإضلال، وقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، نهى عن الطريق الثانى، وهو منعه من الوصول إلى الدلائل، واللبس الخلط، يقال: لبس الحق بالباطل، من باب ضرب، أى خلطه به، وقد يلزمه جعل الشىء شبيهاً بغيره، وقد لا يلزمه، كما فى خلط التفاح بالزبيب، فإن خلطه به لا يودى إلى الاشتباه والالتباس، كما فى خلط الباطل بالحق، بحيث يشتهب أحدهما بالآخر حتى لا يميز بينهما، فيستعمل اللبس الذى فى الآية فى لازم معناه الأصلى، وهو الاشتباه وعدم الامتياز، حتى لا يقال: إنهم لم يخلطوا الحق بالباطل، بل جعلوا الباطل موضع الحق، فإن جعل الباطل موضع الحق يودى إلى اشتباه كل منهما بالآخر، وهو المراد المنهى عنه فى الآية الكريمة، فالباء على هذا تكون للاستعانة، كالتى فى: كتبت بالقلم.

يعنى أنهم استعانوا على جعل الحق شبيهاً بالباطل بكتابة الباطل موضع الحق. ولبعض العلماء ملحظ آخر فى توجيه معنى الاستعانة، أنهم لم يكتبوا الباطل موضع الحق، بل أبقوا الحق فى التوراة، ولكنهم صرفوه بالتأويل الفاسد إلى غير معناه المقصود، مثل قولهم: محمد رسول، ولكن إلى غيرنا، فأقارهم ببعثته حق، وجحدهم أنه ما بعث إليهم باطل، ولعل هذا التوجيه أسلم.

فإذا ما قالوا: إنا لم نكتب باطلاً موضع الحق، قلنا لهم: ومع ذلك فإنكم صرفتم اللفظ عن غير المراد من غير دليل، ولا برهان، ولذلك استبعد بعض العلماء أيضاً كون الباء للتعدية، إذ المعنى عليه: لا تخلطوا الحق الذى فى التوراة بالباطل الذى تكتبونه فيها، فلم أن يقولوا: لم نكتب باطلاً بجانب حق، يعنى فلم يلزمهم، ولم يقطع عليهم كل أعذارهم، إلا أن يكون المعنى: ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التى أوردتموها على السامعين، وذلك لأن النصوص الواردة فى التوراة فى أمر محمد ﷺ كانت

نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها إلى الاستدلال، ثم إنهم كانوا يجتالون فيها ويشوشون أوجه الدلالة على التأملين فيها بإلقاء الشبهات، فهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، وأما قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، فمعناه إخفاءه عن من لم يسمعه، كما أن قوله: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا﴾ معناه التشويش على من سمعه، كما هو واضح مما تقدم، وهذا هو السر في الجمع بينهما، فلكل منها اتجاه يغاير اتجاه الآخر ويخالفه.

ولا بد لنا من الكلام على إعراب هذه الجملة: ﴿وَتَكْتُمُوا﴾، وبيان هل هي مجزومة عطفًا على النهي السابق في قوله: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا﴾، أو منصوبة في جواب هذا النهي بأن مضمرة وجوباً بعد واو المعية، إذ المعنى يختلف على كل منهما؟ فنقول: قال فريق: إنها مجزومة داخلة تحت حكم النهي، كأنه قيل: لا تكتموا الحق، فيكون النهي متوجهاً إلى كل واحد من الفعلين على حدة، أي لا تفعلوا هذا ولا هذا، إذ كل واحد منهما مستقل بالقبح، ووجوب الانتهاء عنه. وقال فريق: إنها منصوبة بإضمار أن في جواب النهي بعد الواو التي تقتضى المعية، فإن النهي حيثئذ هو الجمع بين الفعلين، كأنه قيل: لا تجمعوا بين ليس الحق والباطل وكتمانها، كما في قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ومعلوم أن «أن» مع ما في حيزها، تكون في تأويل المصدر، فلا بد من تأويل الفعل الذى قبلها بالمصدر أيضاً؛ ليكون من قبيل عطف الاسم على مثله، والتقدير: لا يكن منكم ليس الحق بالباطل مع كتمانها، وعلى هذا لا يعلم النهي على كل واحد من الفعلين إلا بدليل خارجي.

لا يقال: يلزم عليه جواز تلييسهم بدون الكتمان وعكسه، كما في: لا تأكل السمك وتشرب اللبن؛ لأننا نمنع ذلك، إذ النهي عن الجمع لا يدل على جواز البعض ولا على عدمه، وإنما يدل عليه دليل آخر، أما في مسألة السمك فللطب، وأما في الآية فللقبح كل منها، وفائدة الجمع المبالغة في النعى عليهم، وإظهار القبح في أفعالهم من كونهم جامعين بين فعلين، إن انفرد كل منهما عن صاحبه كان قبيحاً، يعنى فالطب في مسألة السمك هو الذى أجاز أحد الفعلين منفرداً عن الآخر، ولم يجوز ذلك النهي عن الجمع في قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وقبح كل واحد من الفعلين في الآية منع جواز أحدهما، ولم يمنع النهي عن الجمع فيها كذلك. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

جملة اسمية فى محل نصب حال، وعاملها إما ﴿ تَلِسُوا ﴾ أو ﴿ تَكْتُمُوا ﴾، والمعنى: ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنكم لا بسون الحق بالباطل كاتمون، فإنه أقيح، إذ الجاهل قد يعذر.

تكذيب القرآن لدعاوى اليهود:

هذا وقد استمر الكلام مع اليهود إلى حزب «سيقول» كما قلنا قبل ذلك، وفيه الرد عليهم وإلزامهم الحجة ما هو فوق الكفاية، ولنأت من هذا بآيتين سيقنا لغرض واحد وهو: تكذيب القرآن لليهود فى ادعائهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَكِنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]، يعنى أن من جملة قبائحهم أنهم كانوا يأمنون من سوء الخاتمة ولا يخافون منها، بل يحكمون بأن الدار الآخرة وما أعد الله تعالى لعباده من الملك العظيم والنعيم المقيم لهم دون غيرهم، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨].

وقولهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يقول لهم: إن كانت الدار الآخرة لكم كما تزعمون، وإن كنتم أبناء الله وأحباؤه كما تدعون، ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾ [البقرة: ٩٤]، وذلك لأن المرء لا يكره الانتقال إلى داره وبستانه، بل يتمنى ذلك، وكذلك المرء لا يكره القدوم على الله تعالى، ولا على حبيبه، ولا يخاف منهما النعمة، بل يتوقع عندهما الكرامات، والدرجات، والعطايا، والهدايا، فإن كان الأمر كما تقولون، فتمنوا الموت حتى تنجوا من غم الدنيا ومن تحمل الشدائد التى أنتم فيها، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤] فى زعمكم بأن الآخرة لكم وأنكم أبناء الله وأحباؤه.

فإذا ما قال اليهود اعتراضاً على هذا الإلزام: إنكم تقولون: إن الآخرة للمؤمنين، فلم لا نرى أن أحداً من المؤمنين يتمنى الموت إذا قيل له: تمن الموت، فكل عذر لاح لكم فهو عذر لنا، فلا معنى لاحتجاجكم بذلك علينا، قلنا: أجاب العلماء عن هذا الإشكال بوجهين:

أحدهما: أن المؤمنين لم يجعلوا لأنفسهم من الفضل والمنزلة عند الله تعالى مثل ما

جعل اليهود لأنفسهم، بل المؤمنين، وإن جل قدرهم، غير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا يزول عنهم خوف الخاتمة، ومن كان قد ابتلى بشيء من الخطايا، فهو مفتقر إلى زمن يتدراك فيه ما فاتته، فلهذا لم يتمن المؤمنون الموت، فأما اليهود، فقد ادعوا أنهم من أهل الجنة، وليس بها شيء من الشدة، والدنيا دار شدة وبلية، فلا معنى لامتناعهم عن تمنى الموت لو كانوا صادقين في دعواهم.

وثانيهما: أنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وفي تمنىهم الموت وصول إلى أبيهم وحببيهم في زعمهم، ولا أحد يرغب ولا ينفّر عن الحبيب والأب، فدل امتناعهم من ذلك على كذبهم في دعواهم، وأما المسلمون فلا يدعون ذلك، ولا يتمنون الموت، بل يرغبون في امتداد الحياة لمزيد الأعمال الصالحة كما هو ظاهر.

وقوله: ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ الخالص كالصافي، لكن الصافي يقال فيما لم يكن فيه شوب قبل ذلك، ولا يقال: خالص، إلا إذا كان فيه شوب من قبل فزال، وقوله: ﴿ مِّنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ لفظ ﴿ دُونِ ﴾ لما كان في الأصل اسماً للقاصر عن الشيء، اعتبر ذلك في المكان تارة، وفي الشرف تارة، وفي الاختصاص تارة، فيقال في المكان: دونك هذا، أي خذه من أدنى مكان منك. ويقال في الاختصاص: هذا إلى دونك، ويقال في الشرف: فلان دون فلان، أي أقل منه رتبة ومنزلة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ مِّنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ والمخاطبون أيضاً هم الناس؟ قيل: المراد بالناس أكثرهم، إذ لفظه عام، ومعناه خاص، أي دون باقي الناس وسائرهم. وقال بعضهم: فيه لطيفة، وهي أنه جل جلاله يعرض بهم، ويشير بأنهم ليسوا من الناس، والكلمة بأصل وضعها تحتل المدح والذم، فالمدح نحو قولك: فلان ليس بإنسان، بل هو ملك كريم، والذم نحو قولك: يغرنك من فلان مظهر صلاحه، فهو ليس بإنسان، إذ المعنى أنه أحط إلى درجة الحيوانية، ولا شك أنهم من القبيل الثاني، فهذه هي اللطيفة التي في الآية التي قال بها البعض.

وقد أخبر الله تعالى أنهم لن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم، وفي هذا بيان للعلة التي بسببها لا يتمنون الموت، فإنهم عالمون بما صنعوا من الكفر بعمى والإنجيل، وبمحمد ﷺ وبالقرآن، وبتحريف التوراة، فيعلمون بما لهم عند الله تعالى من العذاب الأليم والعقاب الدائم، وأنه لا نصيب لهم في الجنة، وإنما قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾

[المائدة: ١٨]، وأنهم من أهل الجنة على الخصوص بطريق النعت والمكابرة، ولذلك لم يتمنوا الموت.

وقد روى عنه عليه السلام: «أنهم لو تمنوا الموت، لغص كل إنسان بريقه، فمات مكانه، وما بقى على وجه الأرض يهودى»، والغصة: الشجى، وهو ما تعلق بالخلق من العظم ونحوه، ولم ينزل إلى الجوف، والمعنى: لا يقدر على أن يتلصق ريقه فيموت فى مكانه.
من دلائل النبوة المحمدية:

وهذه الجملة وهى قوله سبحانه: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] إخبار بالغيب، فإن عدم تمنيههم فى المستقبل، وهو غيب لا يعلم بالحس، ولا ببديهة العقل، ولم ينصب عليه دليل أيضاً، فكانت الآية من المعجزات الدالة على حقية رسالة سيدنا محمد عليه السلام، فإنه لما أخبر الله تعالى أنهم لا يتمنون الموت أبداً، كان الأمر كما قال، مع أن تكذيبه، عليه السلام، أهم الأمور عندهم، وأن ما يدعوهم إليه ممكن متوفر بالنسبة إليهم، وأن قولهم: تمنينا الموت، سهل وغير متعسر عليهم، فلو قال أحد منهم، لظهر كذبه، عليه السلام، فيما أخبر به عن الله تعالى، ولتبين بذلك كذبه فى دعوى الرسالة أيضاً، ومع ذلك امتنعوا من أن يقولوا ذلك، وكان الأمر كما قال، فعلم بذلك أنه، عليه السلام، إنما علم ذلك، وأخبر به، بأن أوحى إليه من عند الله تعالى، وأنه رسول حقاً.

هذا وقد جاء فى الشفا للقاضى عياض حسبما نقله صاحب تفسير الجواهر الحسان عند هذه الآية ما نصه: ومن الوجوه البينة فى إعجاز القرآن أى وردت بتعجيز قوم فى قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك، كقوله تعالى لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية. قال أبو إسحاق الزجاج: فى هذه الآية أعظم حجة، وأظهر دلالة على صحة الرسالة؛ لأنه قال لهم: ﴿فَتَمَنَّوْا المَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤]، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً، فلم يتمنه واحد منهم. وعن النبى عليه السلام: «والذى نفسى بيده، لا يقولها رجل منهم إلا غص بريقه»، يعنى يموت مكانه. قال أبو محمد الأصيلى: من أعجب أمرهم أنه لا توجد منهم جماعة ولا واحد من يوم أمر الله تعالى نبيه بذلك يقدم عليه، ولا يجيب إليه، وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنهم.

قال جماعة: هو إرادة بالقلب، مع السؤال باللسان. وقال البعض: هو السؤال باللسان فقط. فإن قلت: من أعلمك أنهم لم يتمنوا؟ أجيب: بأنهم لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقل سائر الحوادث، ولكثر ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم ممن أولى المطاعن في الإسلام، وهم أكثر من الدر، وليس أحد منهم نقل ذلك.

فإن قيل: التمنى من أعمال القلوب، وهو سر لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟! أجيب: بأن التمنى ليس من أعمال القلوب، إنما هو قول الإنسان باللسان: ليت لى كذا، فإذا قاله، قالوا: تمنى، وليت كلمة تمن، ومحال أن يقع التحدى بما فى الضمائر والقلوب، ولو كان التمنى بالقلوب وتمنوا، لقالوا: تمنينا الموت فى قلوبنا، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك.

فإن قيل: لم يقولوه؛ لأنهم علموا أنهم لا يصدقون. أجيب: بأنه كم حكى عنهم من أشياء قالوها للمسلمين من الافتراء على الله، وتحريف كتابه، وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه، ولا محمل له إلا الكذب الصرف، ولم يبالوا، فكيف يمنعون من أن يقولوا: إن التمنى من أفعال القلوب، وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين فى قولهم، وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذباً؛ لأنه أمر خفى ولا سبيل إلى الاطلاع عليه.

فإن قيل: عدم نقل تمنيتهم الموت إلى الآن لا يدل على عدم تمنيتهم أبداً. أجيب: بأنه لا محيص عن هذا الإشكال إلا أن يكون الخطاب مع المعاصرين، وقد انقضوا ولم يتمنوا، وإلا لنقل ذلك واشتهر، فلما لم ينقل، علم أنهم لم يتمنوه.

ولعل هذا القول يخالف ما تقدم أنفاً عن الشفا نقلاً عن أبى محمد الأصيلى، من أن عدم التمنى ثابت للاحقين منهم أيضاً، والحاصل أن التمنى إما فعل اللسان، وإما فعل القلب، وأياً ما كان يثبت وهو أنهم لم يتمنوه.

من أنباء الغيب:

كذلك من الإخبار بالغيب الذى يلزمهم ولا يستطيعون رده، ما أشارت إليه الآية الكريمة فى قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَنَّهُمْ إِيَّاهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

أنباء الغيب هى ما تقدم قبل هذه الآية من ذكر قصة زكريا، ويحيى، ومريم، وأمها

امرأة عمران، وكل هؤلاء من بنى إسرائيل، ولا يمكن أن يعلمه الرسول ﷺ إلا بوحي إلهي، وهذا ولا شك دليل على بنى إسرائيل، وإلزام لهم بالحجة التي لا يستطيعون ردها، وبيان ذلك أن إخباره ﷺ بهذه الأنبياء، وهي معلومة عندهم وحاصلة لديهم على الوجه المطابق للواقع من دلائل صدقه في دعوى النبوة، بناء على أن الإخبار بالشئ على الوجه المطابق للواقع يتوقف على العلم به، وطريق العلم منحصر في:

١ - المشاهدة.

٢ - الاستماع من أهل العلم وقراءة أسفارهم.

٣ - الوحي.

وأن ما عدا الوحي من طريق العلم منتف عنه ﷺ، فتعين أنه، عليه السلام، إنما أخبر بتلك الأنبياء بالوحي، وأنه نبي حقًا، ثم إنه تعالى لم ينف من طرق العلم في الآية الكريمة، إلا أنه ﷺ لم يشاهد هذه الوقائع كما يصرح به قوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ... ﴾ [آل عمران: ٤٤] إلخ، وفي ظاهر الحال أنه لا حاجة إلى نفى المشاهدة لكون انتفائها معلومًا قطعًا؛ لأن مشاهدة الإنسان ما سبق على وجوده سبقًا زمنيًا مستحيلة، واستحالتها معلومة لكل أحد، بخلاف الاستماع من أهل العلم وأصحاب التواريخ، فإنه وإن كان منفيًا في نفس الأمر أيضًا كانتفاء المشاهدة، إلا أنه متوهم وليس استحالة كاستحالة المشاهدة، فالتصريح بنفى ما لا حاجة إلى نفيه، وترك التعرض بنفى ما ينبغي التعرض بنفيه خلاف مقتضى الظاهر، فما الوجه؟

قال العلماء في تحقيق ذلك: إن الآية صرحت بنفى المشاهدة مع عدم الحاجة إليه، وتركت التعرض بنفى السماع، مع أن العقل يجوزه في الجملة لنكته، وهي التهكم باليهود المنكرين لنبوته ﷺ؛ ولأن يوحى إليه. وطريق التهكم أن العلم منحصر في الثلاثة المذكورة لا محالة، وأنهم ينكرون الوحي إليه، ويعترفون أيضًا بأنه ﷺ ليس من أهل السماع، وقراءة كتب التواريخ للقطع بأنه، عليه السلام، لم يخالط أهل الكتاب، ولم يصاحب منهم أحدًا، فلم يبق من طريق العلم في حقه ﷺ إلا مشاهدة ما أخبر به من الوقائع، وذلك أنهم كما ينكرون الوحي إليه ﷺ مع اعترافهم له بأنه لم يصاحب أحدًا من أهل الكتاب، فإذا نفت الآية المشاهدة، وانتفاؤها معلوم قطعًا وبقينًا عند كل أحد، كان المقصود التهكم بمنكر الوحي، كأنه قيل لهم: أيها المنكرون، أن يوحى إليه ﷺ

والمتهمون له في دعوى نبوته ليس لكم سبب في اتهامكم سوى أنكم تجوزون أن يكون إخباره ﷺ بذلك مبنياً على مشاهدته ومعاينته ذلك، وأنه غاية في السفاهة، ونهاية الجنون والجهالة، ومن أضل ممن عدل عن الاحتمال الثابت بالمعجزات القاطعة والبراهين القطعية، وهو أنه ﷺ يوحى إليه إلى احتمال لا يذهب إليه وهم أحد، وهو أنه ﷺ أخبر عن هذه الحقائق بالمشاهدة.

محاجة القرآن للنصارى في عبادة عيسى:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] الآية.

سبب النزول:

روى أن وفد نصارى نجران جادلوا رسول الله ﷺ، وقالوا: ما لك تشتم صاحبنا، قال: «وما أقول؟»، قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله، قال: «أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب، فإن كنت صادقاً فأرنا مثله، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

كأنهم قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر، وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم، ولم يلزم من ذلك أن يكون أبوه هو الله تعالى، وأن يكون هو ابناً له تعالى، فكذا القول في عيسى، عليه الصلاة والسلام.

ولعله من الواضح بعد بيان هذه المشابهة الواقعة بين عيسى وآدم، عليهم السلام، أن تبطل شبهتهم في قولهم في عيسى: إنه ابن الله تعالى، وعليهم بمقتضى هذا أن ينزلوا عن اعتقادهم في بنوة عيسى، وأنه ابن الله تعالى، ولم يستطيعوا أن يفروا من هذا أبداً، اللهم إلا ما كان من عنادهم واستكبارهم.

آية المباهلة:

ثم قال تعالى زيادة في الإلزام وتأكيداً لإظهار الحجّة عليهم: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، المراد بالعلم

البيئات الموجبة له من الدلائل والبراهين، مثل قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦]، وما أشبه ذلك مما يدل على أنه وجد بعد أن كان معدوماً، واستقر في مضيق الرحم، ثم ترعرع وصار شاباً يأكل، ويشرب، ويحدث، وينام، ويستيقظ.

وإنما فسر العلم بالبيئات والبراهين؛ لأن العلم الذي حصل في قلبه، عليه الصلاة والسلام، لا يوجب إفحامهم، وانقطاع جدالهم وشبهاتهم، ولا إقدامهم على المباهلة والملاعة، بل الذي يوجب ذلك هو إيراد الدلائل عليهم، بحيث يلجئهم إلى الاعتراف بالحق وقبوله، أو إلى إصرارهم على إنكاره وتكذيبه، عناداً واستكباراً، مع أن نفس العلم لا يتصف بالجميء والانتقال من موضعه، بخلاف الدليل، فإنه يوصف بالورود والقيام.

والمراد بالمباهلة الملاعة، بأن يقال: بهلة الله، أى لعنته على الكاذبين منا ومنكم بأمر عيسى، عليه السلام. والبهلة، بضم الباء وفتحها، وأصله الترك، من قولهم: بهلت الناقلة إذا تركت بلا صرار^(١)، ومعنى قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ أى بالرأى والعزم، لا بالأجساد والأشخاص؛ لأنهم حاضرون عنده، عليه الصلاة والسلام، بأجسادهم حيث إنهم يجادلونه ﷺ في شأن عيسى، عليه السلام.

قوله: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ...﴾ الآية، أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله، وإنما قدمهم على النفس؛ لأن الرجل يخاطر بنفسه لأجلهم، ويحارب دونهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً.

فخلا بعضهم ببعض، وقالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لنهلكن، فإن أبيتن إلا الإقامة على دينكم وعلى ما أتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعوا هذا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ، وقد غدا محتضناً للحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشى خلفه، وعلى بن أبى الخطاب خلفها،

(١) فى المختار: صر الناقاة: شد عليها الصرار، بالكسر، وهو خيط يشد لثلا يرضعها ولدها.

رضى الله تعالى عنهم، وهو ﷺ يقول لهم: «إذا أنا دعوت فأمّنوا».

فقال أسقف نجران، وهو اسم سرياني لرئيس النصارى وعالمهم، وهو غير العاقب: يا معشر النصارى، إنى لأرى وجوهًا لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة.

فقالوا: يا أيا القاسم، رأينا أن لا نباهلك، وأن نترك على دينك، ونثبت على ديننا، فقال رسول الله ﷺ: «فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم»، فأبوا، فقال: «إنى أنا بذككم»، فقالوا: ما لنا يجرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا، على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة، ألف فى صفر، وألف فى رجب، نؤديها للمسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وقال: «والذى نفسى بيده، إن العذاب تدلى على أهل نجران، ولو لاعتنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولأضرم عليهم الوادى ناراً، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله، حتى الطير على رءوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلهم».

وجاء فى بعض الروايات عن عائشة، رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط من رجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم على، رضى الله عنهم، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وفى ذلك دليل على نبوته ﷺ، وعلى فضل أهل الكساء، رضى الله تعالى عنهم، وعن بقية الصحابة أجمعين.

نعم انقطعوا عن المباهلة وخافوها، ولم يجروا بعد مشاورة أهل الرأى فيهم على الدخول فى ساحتها، وذلك أعظم دليل ملزم وقاطع لشبههم، وإلا فما كان أسهل عليهم وأيسر لهم أن يلاعنوا ويقولوا فى تضرع: لعنة الله على الكاذبين منا ومنكم بأمر عيسى.

قال بعض العلماء: فإن قيل: الأولاد إذا كانوا صغاراً لم يميز نزول العذاب بهم، وقد ورد فى الخبر أنه ﷺ أدخل فى المباهلة الحسن والحسين، رضى الله عنهما، فما الفائدة؟ والجواب: أن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلك معهم

الأولاد والنساء، فيكون ذلك فى حق البالغين عقاباً، وفى حق الصبيان والنساء لا يكون عقاباً، بل يكون جارياً مجرى إهانتهم، وإيصال الإيلام إليهم، ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده شديدة جداً، وربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم، وإذا كان كذلك فهو، عليه الصلاة والسلام، أخذ صبيانه ونساءه معه، وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك، ليكون أذعى للخصم إلى قبول الحق، وأبلغ فى الزجر عن المخالفة، وأقوى فى تخويفهم، وأدل على وثوقه، عليه الصلاة والسلام، بأن الحق معه. انتهى.

عيسى عبد الله ورسوله:

ثم يأتى بعد ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

ونرى فى صدر هذه الآية الكريمة، أن ما قصه الله تعالى فى شأن عيسى، وأنه عبد الله ورسوله، هو الإخبار الصحيح، والقول الحق، دون ما ادعته النصارى، من أنه ابن الله تعالى والله سبحانه أبوه، ونرى فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ نفى الإلهية فى عموم واستغراق عن غير الله تعالى وإثباتها له وحده، جل جلاله، وعظم شأنه. ثم يأتى ختام الآية: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ لنرى فيه رداً قوياً على إلهية عيسى، وإلزاماً لا مفر منه بأنه عبد الله ورسوله، وبيانه كالاتى:

إن تعريف كل من المسند والمسند إليه وتوسيط ضمير الفصل بينهما، يفيد الحصر والتخصيص، ويدل على انتفاء القدرة التامة، والحكمة البالغة عن عيسى، عليه السلام، فالنصارى لما اعتمدوا فى زعمهم إلهية عيسى، عليه السلام، على قدرته على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وعلى إخباره بالمغيبات من أحوالهم، أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات بأن هذا القدر من القدرة لا يكفى فى الإلهية، بل لابد أن يكون القادر عزيزاً غالباً لا يقهر، وأنتم قد اعترفتم بأن عيسى، عليه السلام، ما كان كذلك، بل قلتم إن اليهود قتلوه، وأيضاً فإن ما فيه من علمه بالمغيبات وإخباره عنه لا يكفى أيضاً فى إلهيته، بل لابد أن يكون العالم حكيماً، أى عالماً بجميع المعلومات، وبجميع عواقب الأمور، فقلوه تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ باعتبار دلالة على أن عيسى، عليه السلام، بمعزل عن القدرة التامة، والحكمة البالغة، فهو جواب عن شبهة النصارى واستدلالهم بقدرته على إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، ويعلمه

المغيبات وإخباره عنها على إلهيته.

وفى هذا بيان لواقع محسوس، ومشاهد ملموس، وهو أن قدرة عيسى، عليه السلام، ليست تامة، وعلمه ليس شاملاً، وليس فى وسعهم إنكار هذا أبداً، إلا فى إصرار على الباطل وعناد مع الحق، نعم عاندوا وأصروا على ما هم عليه من الزعم الفاسد والاعتقاد الباطل فى حق عيسى، عليه السلام، وأعرضوا عن الحجج والبيانات المؤدية إلى الاعتقاد الحق، والتدين بالدين القويم، فأوعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣]، أى فإن أعرضوا عن التمسك بالحجج والاعتقاد بوحداية الإله، فاعلم أن توليهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد، فاقطع كلامك عنهم، وفوض أمرك إلى الله تعالى، فإنه تعالى مطلع على ما فى قلوبهم من التمرد والعناد، قادر على مجازاتهم، ثم إن قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيه وضع للظاهر موضع المضمحل ليدل على أن التولى عن الحجج والإعراض عن التوحيد، إفساد للدين والاعتقاد، المؤدى إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

إلى كلمة سواء:

ثم إن القوم لما أعرضوا على المباهلة خوفاً من أن يهلكهم الله تعالى بطريق الاستئصال، وأظهروا بعض الانقياد والصغار، حيث التزموا بأداء الجزية كما تقدم ذلك، أعرض الله تعالى عن المجادلة معهم بتجهيلهم وبيان سخافة عقولهم، وسلك سبيل الرشاد باللطف والإنصاف، بحيث لا يميل فيه إلى جانب، ولا يشوبه شىء من التعصب والتحكم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أى هلموا إلى كلمة ذات استواء وعدل، وسواء مصدر، كذهاب وصلاح وفساد، ومعناه الاستواء والاعتدال، وصفت الكلمة به مبالغة فى استوائها، وعدم الاختلاف فيها بين الكتب المنزلة من السماء وبين الأنبياء المرسلين، فهو من قبيل رجل عدل.

والمعنى: تعالوا إلى كلمة عادلة مستقيمة مستوية بين أهل الشرائع الإلهية، إذا أتينا بها نحن وأنتم كنا على السواء والاستقامة، سمى الكلام التام المفيد للمقصود ﴿كَلِمَةً﴾ على طريق تسمية الكل باسم جزئه، ومن تسميتهم القصيدة بتمامها قافية، مع أن

القافية جزء منها، وفي الحديث: «أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ثم إنه تعالى فسر الكلمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾، ووجه كونه تفسيراً لها أن قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ إما بدل من ﴿كَلِمَةً﴾ بدل كل من كل، أو أنه خير مبتدأ محذوف، أي هي ألا نعبد، والجملة استئنافية، فإنه لما قيل: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ قال قائل: ما هي؟ فقيل: هي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾، فعلى التقديرين صح كونها مفسراً لما قبلها. وأما قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾، يعني: ولا نقول عزيز ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحرار فيما أحدثوه من التحليل والتحريم؛ لأن كلا منهم بشر مثلنا.

روى أنه لما نزلت: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال: «أليس كانوا يجلُّون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟»، قال: نعم، قال: «هو ذاك».

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، يعني: فإن تولوا عن كلمة التوحيد الجمع عليها بين الشرائع والكتب السماوية، فقولوا لهم: قد لزمتمكم الحجة وأصبحتم مغلوبين بها، إلا أنه دل على هذا الجواب بلازمه، وهو قوله: ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي قولوا اشهدوا واعترفوا بأن من أتى بالكلمة السواء وعمل بمدلولها فهو المسلم، دون من خالفها وتولى عن العمل بمدلولها.

ويصح أن يكون قوله: ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا﴾ هو الجواب، ويكون فيه تعريض بكفرهم، أي اعترفوا يا أهل الكتاب بأنكم كافرون من حيث إنكم عرضتم عن الحق المتفق عليه بين العقلاء. قال العلماء: والمعنى: فإن تولوا وأعرضوا عن الإجابة لما دعوتهم إليه، فليس إعراضهم ذلك لأجل مساعدة الحجة إياهم، فقل لهم: قد أسفر الصبح وتبين لذي عينين، فاعترفوا بأننا مسلمون متقادون للحق دونكم، ونظيره قول الغالب في جهاد، أو صراع، أو نحوهما: اعترف بأني أنا الغالب، وسلم إلى الغلبة. أ.هـ.

قال الخطيب الشربيني في تفسيره: قال البيضاوي: تنبيه: انظر إلى ما راعى الله سبحانه في هذه القصة من المبالغة، والإرشاد، وحسن التدرج في الحجاج، فبين أولاً أحوال عيسى وما تعاور عليه من الأطوار المنافية للإلهية، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيل

شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد، دعاهم بالإرشاد، وسلك طريقاً أسهل وألزم، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى، والإنجيل، وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم، وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم، أعرض عن ذلك، وقال: ﴿ اشْهَدُوا يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ﴾ . انتهى .

بيان ما احتواه التنبيه:

قوله: بين أولاً أحوال عيسى... إلخ، هو قوله سبحانه: ﴿ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٦] ونحوه على ما ذكرناه سابقاً.

وقوله: ثم ذكر ما يحل عقدهم، هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله: بنوع من الإعجاز، وهو تقديم ذكر من يخاطر المرء بنفسه لأجلهم ويحارب دونهم.

طوائف النصارى:

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣].

تبين الآية الأولى من هاتين الآيتين رأى طائفة من النصارى فى شأن عيسى، وهم اليعقوبية، القائلون باتحاد الإله مع عيسى، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وتبين الآية الثانية رأى طائفتين منهم، وهما النسطورية والملكانية، ويبين الله تعالى فى كلتا الآيتين، الرد على هذه المزاعم الفاسدة، من تلكم الطوائف الكافرة، فى الآية الأولى حكم الله تعالى عن عيسى، عليه السلام، أنه متبرئ من هذه الاعتقادات، أمراً لهم بعبادة الله تعالى رب الجميع وخالق الكل، ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، ثم

توعدهم وهددهم، حيث قال: ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ [المائدة: ٧٣]، وهذا الرد فى هاتين الآيتين هو عين الحقيقة، ونفس الصواب، لو كان لهم عقول تفكر، وقلوب تسمع وتتدبر.

حقيقة المسيح وأمه:

ولكن الله تعالى، وهو الرحيم بخلقه، الرؤوف بعباده، يزيد الأمر إيضاحاً، وتأكيداً، وكشفاً، وتبياناً، فيلزمهم برد واقعى محسوس لا يقدرون على الفكاك منه، ولا يستطيعون أن يخرجوا من دائرته إلى دائرة الوهم والباطل، وهذا هو ما جاء بعد ذلك من الآيتين الكريميتين وهما: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ لِهَمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦].

قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، أى ليس هو بباله كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة، وما من خارق إلا وقد كان مثله أو أعجب منه لمن كان قبله، فإن كان الله قد أحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا، وجعلها حية تسعى على يد موسى، وهو أعجب، وإن كان قد خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وهو أغرب.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾، أى بليغة الصدق فى نفسها كسائر النساء اللاتى يلازمهن الصدق فى الأقوال والأفعال فى المعاملة مع الخلق، وصدق الأفعال والأقوال فى المعاملة مع الخالق لا يصدر منهن ما يكذب دعوى العبودية والطاعة، فإن من كان مجتهداً فى إقامة وظائف العبودية وملازمة الإنابة والطاعة يسمى صديقاً أو صديقة، تصدق الأنبياء، كما قال تعالى فى وصفها: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢].

قال بعض العلماء: وهذه الآية من أدلة من قال: إن مريم، عليها السلام، لم تكن نبيه، فإنه تعالى ذكر أشرف صفاتها فى معرض الرد على من قال بإلهيتهما إشارة إلى ما هو الحق فى اعتقاد ما لها من أعلى الصفات، فإن أعظم صفات عيسى، عليه السلام، الرسالة، وأكمل صفات أمه، عليها السلام، الصديقية.

ولما بين سبحانه أقصى ما لهما من الكمالات، بين أن ذلك لا يوجب لهما الإلهية

بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانَ الطَّعَامَ﴾؛ لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم، ولحم، وعروق، وأعصاب، وأخلاط، وغير ذلك، مما يدل على أنه مصنوع ومؤلف مدبر كغيره من الأجساد، فكيف يكون إلهاً، وخص الأكل بالذكر لأنه أصل الحاجات، والإله لا يكون محتاجاً، وقيل: هذا كناية عن الحدث؛ لأن من أكل وشرب لا بد له من البول والغائط، ومن كانت هذه صفته، كيف يكون إلهاً؟ ثم لما أوضح الله تعالى لهم الأدلة في أمرهما حتى ظهر كالشمس بعدهما عما ادعوا فيهما أتبعه التعجب بقوله سبحانه: ﴿انظُرْ كَيْفَ نَبِّئْنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ على وحدانيتنا.

﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، أى يصرفون عن الحق مع قيام البرهان، وكان العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتفاوت بين العجب من بيان الله للآيات على التوحيد، وبين العجب من إعراضهم عن هذا البيان، وأن إعراضهم أعجب.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى غيره، يعنى عيسى، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أى لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضر الله تعالى به من البلايا، والمصائب فى الأنفس، والأموال، ولا أن ينفعمكم بمثل ما ينفعمكم الله تعالى به من صحة الأبدان، والسعة، والخصب، وكل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع، فبإقدار الله تعالى وتمكينه.

وهذا دليل قاطع على أن أمر عيسى مناف للربوبية، حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب تعالى أن يكون قادراً على كل شىء، لا يخرج مقدور عن قدرته تعالى، وإنما قال: ﴿مَا﴾ فى حق من يعقل مع أن أصله يطلق على غير العاقل، نظراً إلى ما هو عليه فى ذاته فإنه، عليه السلام، فى أول أحواله لا يوصف بعقل ولا بشىء من الفضائل، وإنما ظهر على يديه من بعض المنافع، وإزالة بعض المضار بإقدار الله تعالى على ذلك وتمكينه إياه، فكيف يكون إلهاً؟ وكان التعبير بـ ﴿مَا﴾ تنبيهاً على أنه من جنس ما لا يعقل، بمعنى أنه فى ذاته لا يملك ضراً ولا نفعاً إلا بتملك الله له وإقداره كما بينا.

وهذا القدر مشترك بينه وبين غيره وأنه، عليه السلام، واحد من آحاد تلك الحقيقة، ومن كانت له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة، فبمعزل عن الإلهية، وبيان ذلك وتوضيحه

أن من كان له حقيقة يشارك بها غيره، لابد أن يكون له ما يتميز به عن غيره، فيتركب مما به الاشتراك، وما به الامتياز، والتركيب ينافي الإلهية، فعيسى، عليه السلام، باعتبار ذاته لا يملك شيئاً نفعاً ولا ضراً، وهو بهذا الاعتبار يشترك مع آحاد كل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فإذا ما انضم إليه خصيصة تميزه عن بقية آحاد هذه الحقيقة، بأن قدر بأقدار الله تعالى على جلب نفع، أو دفع ضرر، كان مركباً، والتركيب ينافي الإلهية كما قدمنا آنفاً.

غلو اليهود والنصارى:

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك خطاباً لأهل الكتاب عامة من يهود ونصارى، كما هو رأى الأكثر: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، الغلو نقيض التقصير.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ يفيد أن الغلو فى الدين نوعان: غلو حق، وهو أن يجتهد فى تحصيل حججه، كما يفعل المتكلمون، وغلو باطل، وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة، فيرفعوا عيسى، عليه السلام، إلى أن يدعوا له الإلهية.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ فى غلوهم، وهم أسلافهم الذين قد ضلوا بتماديهم فى الباطل من التثليث وغيره، حتى ظن حقاً ﴿ضَلُّوا﴾ أى بعد مبعث رسول الله ﷺ، ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، أى طريق الحق، وهو الإسلام، والسواء فى الأصل هو الوسط، والأهواء هاهنا المذاهب التى تدعو إليها الشهوة دون الحجة.

قال أبو عبيد: لم يذكر الهوى إلا فى موضع الشر، لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه، وقيل: سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوى بصاحبه إلى النار، وقال رجل لابن عباس: الحمد لله الذى جعل هواى على هواك، فقال: كل هوى ضلالة.

وبعد فما أصدق هذه الحقائق القرآنية، وما أعظم هذه الآيات التنزيلية، وما أشد إلزامها لليهود والنصارى فى انحرافهم عن التوحيد وبعدهم عما جاء به القرآن الكريم من العقيدة الحقة، والأعمال التشريعية الصالحة، وما أصدق قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:

حاجة القرآن لليهود والنصارى معاً:

هذا وإذا كانت الآيات السابقة قد ألزمت الحجة كلا من اليهود والنصارى على حدة وانفراد، فهناك آيات جمعتهما في خطاب واحد، وألزمتها الحجة والبرهان، نسوق منها ما يلي:

أولاً: قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

حكى الله تعالى قبل ذلك عن اليهود والنصارى نقضهم العهد، وتركهم ما أمروا به، ثم دعاهم بعد ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، فقال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ... ﴾ الآية، فهي دعوة صريحة خاصة لهم، وخطاب قوى موجه إليهم، وإيرادهم بعنوان ﴿ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب، وللمبالغة في التشنيع عليهم، فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته، والعمل بمقتضاه، وبيان ما فيه من الأحكام، وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون، فقد أخفت اليهود آية الرجم، كما أخفت النصارى بشارة الإنجيل بمحمد ﷺ.

وفى إعلامه ﷺ يخفى ما فى كتبهم، وهو أسمى لا يكتب ولا يصحب القراء، دليل على صحة نبوته، لو أهتمهم الله الخير، وقوله: ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾، يعنى مما يكتُمونه، فلا يتعرض له ولا يؤاخذهم به؛ لأنه لا حاجة إلى إظهاره، والفائدة فى ذلك أنهم يعلمون كون النبى ﷺ عالماً بما يخفون، وهو معجزة له أيضاً، فىكون ذلك داعياً إلى الإيمان به.

وفى قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ يعنى القرآن، فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال، والكتاب الواضح الإعجاز، فالنور والكتاب المبين متحدان بالذات، وعطف أحدهما على الآخر من قبيل عطف الصفة على الصفة، مع اتحاد الموصوف بهما، وهو القرآن. وقيل: يريد بالنور محمداً ﷺ، وعلى ذلك فالعطف من قبيل عطف الذات على الذات، وأياً ما كان، فالمراد بهذه الجملة المستأنفة أن فائدة مجيء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل إنه جاء لهم نوراً يهتدون به فى معرفة الحق، ويسترشدون به إلى الغاية المنشودة.

ثانياً: قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

نص هو فى غاية البيان أنه ﷺ أرسل لليهود والنصارى، وليس معنى إرساله إليهم إلا أن يؤمنوا بما جاء به من توحيد خالص، ويعبدوا الله على شريعته التى رسمها وبينها من صلاة وصيام، وما إلى ذلك، وما أروع قوله فى الآية الكريمة: ﴿ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾، فهو يدل على أنهم فيما هم عليه من شريعة حرفوها، ودين أضاعوه فى أمس الحاجة إلى بيان شاف، وإيضاح للحق كامل، فمعنى الآية هو الامتنان عليهم بأن الرسول بعث إليهم حين انطماس آثار الوحى، وهم أحوج إليه لإزالة العذر، وإزام الحجة، فعليهم أن يعوا ذلك نعمة من الله عليهم، ورحمة منه بهم.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

بعد أن أمرهم الله تعالى فى الآيتين السابقتين باتباع محمد ﷺ، وبين لهم أنه ﷺ إنما جاء لهم ليصحح العقيدة، ويرشدهم إلى السبيل السوى، قال لهم فى هذه الآية الكريمة: أن ما هم عليه من دين باطل لا يعتد به إطلاقاً، حتى يكون ذلك حافزاً لهم إلى الدخول فى دين محمد ﷺ، فإن المرء يأنف أن يكون على عقيدة باطلة، أو عبادة فاسدة، ما دام سليم الطبع، بعيداً عن التعصب والتمسك بالباطل، فقوله تعالى: ﴿ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى يعتد به حتى يسمى شيئاً لفساده وبطلانه، كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغيره، وفى أمثالهم: أقل من لا شيء.

﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، أى بأن تعملوا بما فيها، ومنها الإيمان بمحمد ﷺ، والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرة بالإيمان بمن صدقته المعجزة الناطقة بوجوب الطاعة له، والمراد بقوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ هو القرآن الكريم، وما أبداع قوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، يعنى فالقرآن أنزل إليهم ولهم، وهم مقصودون به ضمن من قصد، ومطالبون بالعمل بأحكامه ضمن من طلب إليه ذلك من بقية المكلفين.

وأما قوله: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ... ﴾ إلى آخره، فهو بيان لما هم عليه من كفر

بالقرآن، وحقد على من جاء به، وقد سماهم الله تعالى كافرين، حيث لم يؤمنوا به، وقد نهى النبي ﷺ عن أن يحزن على كفرهم، ففي المؤمنين مندوحة عنهم وغناء، أى غناء له ﷺ، يعنى فهم كفار بمقتضى هذه الآية القرآنية وغيرها من النصوص القرآنية الأخرى التى ذكرنا بعضها سابقاً، وما داموا كذلك، فليس لهم فى الآخرة أدنى نصيب من رحمة الله تعالى.

رابعاً: ويؤكد هذا ويوضحه ويزيده بياناً ما جاء فى قوله جل جلاله: ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٨].

قال العلماء: هذا النص من أبين الأدلة على عموم رسالته ﷺ وشمولها لكل الطوائف وجميع الأجناس على تباين مذاهبها واختلاف نحلها.

ونسوق تفسير هذا النص، وبيان ما فيه من عظيم الفوائد، وجميل المنافع، الأمر الذى هو موضوع بحثنا، ومرتبط به أتم الارتباط، فقوله سبحانه: ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سيق هذا الكلام جواباً لدعاء سيدنا موسى فى قوله قبل ذلك: ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَآكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦].

فجاء قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ قَالَ عَدَايِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، فقوله: ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، أى من خلقى فى الدنيا، ما من مسلم، ولا كافر، ولا مطيع، ولا عاص، إلا وهو متقلب فى نعمتى، وهذا معنى حديث أبى هريرة فى الصحيحين: «إن رحمتى سبقت غضبى»، وفى رواية: «غلبت غضبى»، وأما فى الآخرة، فقال تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وخصها بالذكر لنفعها المتعدى، ولأنها كانت أشق عليهم.

روى أنه لما أنزل: ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشئ، فقال تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ولا

يكفرون بشيء منها، فأيس إبليس منها، وتمناها اليهود والنصارى، وقالوا: نحن نتقى ونؤمن بآيات ربنا، فأخرجهما الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، ومعنى الأمي أنه لا يقرأ ولا يكتب، وهى صفة نبينا محمد ﷺ، قال ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب، ولا نحسب»، والعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون، أى الخط، والنبى ﷺ كان كذلك.

قال أهل التحقيق: وكونه أمياً بهذا التفسير، كان من جملة معجزاته، وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أنه ﷺ كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى، من غير تبديل ألفاظه، ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها، فلا بد وأن يزيد فيها، أو ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه ﷺ مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تغيير، فكان ذلك معجزة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَتَقْرَوُكَ فَلَا تَنسَى﴾ [الأعلى: ٦].

ثانياً: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة، لكان متهماً فى أنه ربما طالع كتب الأولين، فحصل على هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بالقرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم أو مطالعة، كان ذلك من المعجزات، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابَ الْمُبِطِّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ثالثاً: تعلم الخط شيء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم فى الفهم، ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من الخلق، ومع تلك القوة العظيمة فى العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذى يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المادتين جارياً مجرى المعجزات. انتهى.

ثم إن هذا الاتباع الذى وصف به اليهود والنصارى تارة يكون بالقوة فقط لمن تقدم موته على زمانه ﷺ، وتارة يخرج من القوة إلى الفعل كمن لحق زمانه زمان دعوته، فمن علم الله تعالى منه أنه لا يتبعه إذا أدركه لا يغفر له، ولو عمل جميع الطاعات، وقد عرفه سبحانه لهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق عند مجيئه ريبة، ولا يتعلل أحد فى أمره بعلّة،

ولذلك اتبعه ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أى علماء اليهود ﴿مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ باسمه ونعته، ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسداً منهم وخوفاً على زوال رياستهم، وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه، فقد زالت رياستهم ووقعوا فى الذل والهوان.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ يجوز أن يكون استئنافاً، ويجوز أن يكون المعنى يجذونه مكتوباً عندهم أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر... إلخ، ويحتمل أن يكون متعلقاً بـ ﴿يَجِدُونَهُ﴾ فى موضع حال على تجوز، أى يجذونه فى التوراة أمراً بشرط وجوده.

حقيقة المعروف والمنكر:

المعروف ما عرف بالشرع، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، والمنكر مقابله. قال الرازى: ومجامع المعروف فى قوله ﷺ: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»، وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته، وإما ممكن لذاته.

أما الواجب لذاته: فهو الله تعالى، لا معروف أشرف من تعظيمة، وإظهار الخشوع، والخضوع على باب عزته، والاعتراف بكونه موصوفاً بصفات الكمال، مبرءاً عن النقصان والآفات، منزهاً عن الأنداد والأضداد.

وأما الممكن لذاته: فإن لم يكن حيواناً، فلا سبيل إلى ايصال الخير إليه؛ لأن الانتفاع مشروط بالحياة، ومع ذلك فإنه يجب النظر إلى كلها بعين التعظيم من حيث إنها مخلوقة لله، ومن حيث إن كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلاً ظاهراً، وبرهاناً باهراً على توحيده وتنزيهه، فإنه يجب النظر إليه بعين الاحترام، ومن حيث إن الله سبحانه وتعالى فى كل ذرة من ذرات المخلوقات أسراراً عجيبة وحكماً خفية، فيجب النظر إليها بعين الاحترام.

وأما إن كان المخلوق من جنس الحيوان، فإنه يجب الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الإنسان عليه، ويدخل فيه بر الوالدين، وصلة الأرحام، وبث المعروف، فيثبت أن قوله ﷺ: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»، كلمة جامعة لجميع جهات الأمر بالمعروف. ولا شك أن المنكر هو ضد الأمور المذكورة.

قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى ما حرّم عليهم فى شرعهم، كالشحوم،

ويحرم عليهم الخبائث، أى كالدّم، ولحم الخنزير، والربا، ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾، أى ثقلهم الذى كان يحمل عليهم، ﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ من الدين والشريعة، وذلك مثل قتل النفس فى التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض النجاسة من البدن، والثوب بالمقراض، وغير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى إسرائيل، شبهت بالأغلال التى تجمع اليد إلى العنق، كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل، فكذلك لا تمتد على الحرام الذى نهى عنه، وكانت هذه الأثقال فى شريعة موسى، عليه السلام، فلما جاء محمد ﷺ نسخ ذلك كله، ويدل عليه قوله ﷺ: «بعثت بالحنفية السهلة السمحة».

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ﴾ أى بمحمد ﷺ، ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أى وقَّروه وعظموه، وأصل التعزيز المنع والنصرة، وتعزير النبي ﷺ تعظيمه، وإجلاله، ودفع الأعداء عنه، ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ على أعدائه ﴿ وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أى القرآن، سُمى نوراً لأنه به تستنير قلوب المؤمنين، فتخرج من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم.

ولا يقال: إن القرآن ما أنزل مع شخص محمد ﷺ، وإنما نزل مع جبريل. لأننا نقول: معناه لأنه أنزل مع شخصه ﷺ؛ لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات، قال: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾، أى الفائزون بالمطلوب فى الدنيا والآخرة.

عموم الدعوة الإسلامية:

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، هذا أمر الله تعالى لنبيه بإشهار دعوته، وهذه من خصائصه ﷺ من بين سائر الرسل، فإنه ﷺ بعث إلى الناس كافة، وإلى الجن عامة، وكل نبي بعث إلى قومه خاصة، لقوله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى: أرسلت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت على عدوى بالربع منى مسيرة شهر، وأطعمت الغنيمة دون من قبلى، وقيل لى: سل تعطه، واختبأت شفاعتى لأمتى».

فإن قيل: كان آدم، عليه السلام، مبعوثاً إلى جميع أولاده، ونوح لما خرج من السفينة كان مبعوثاً إلى الذين كانوا معه، مع أن جميع الناس فى ذلك الزمان ما كانوا إلا ذلك القوم. أجب بأن ذلك لم يكن لعموم رسالتهم، بل للحصر المذكور، فليس ذلك من باب عموم الرسالة.

قوله تعالى: ﴿جميعاً﴾ حال من إليكم، أى أن الكل يشترط عليهم الإيمان بى والاتباع لى، قال بعض الفضلاء: وقد طار الخبر بشريعة محمد ﷺ إلى كل أفق وتغلغل فى كل نفق، ولم يبق الله تعالى أهل مدر، ولا وبر، ولا سهل، ولا جبل، ولا بحر، ولا بر، فى مشارق الأرض ومغاربها، إلا وقد ألقاه إليهم، وملاً به مسامعهم، وألزمهم به الحجة، وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

فهذه الآيات القرآنية الصادقة، وتلك البراهين التنزيلية الحققة، تلزم اليهود والنصارى بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ من التوحيد الذى انحرفوا عنه وضيعوه، ومن التعبد والخضوع لله تعالى على وفق ما رسم القرآن، وبين من أحكام وشريعة تخالف وتغاير ما جاء فى كتبهم على ما اقتضته الحكمة الإلهية من نزول الشرائع على ما يناسب كل أمة مع رسولها.

فما قالوه عن إيمانهم بالله تعالى، فقد تبين فساد، حيث ثلثوا وأثبتوا له النبوة جل جلاله، وما قالوه عن إيمانهم باليوم الآخر، فهو فاسد كذلك، حيث لم يؤمنوا به على حقيقة ما أخبر الله عنه، بل على ما فهموه زوراً وبهتاناً، كما أنهم ليس لهم يقين فيما فهموه، إذ اليقين هو العلم المتيقن بالدليل، وإنما اعتقادهم خيال فاسد، وجهل محض، ولذلك قال عز من قائل فى وصف المتقين فى أول سورة البقرة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، قال المفسرون: إن قوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ فلم قدم عليه؟ وإن قوله: ﴿هُم﴾ فاعل فى المعنى لـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ فلم جعل مبتدأ و قدم عليه؟

ومحصول الجواب أنه عدل إلى كل واحد من المتقدمين ليفيد التقدم الأول، وهو تقديم بالآخرة، أن إيقانهم مقصور على ما هو حقيقة الآخرة لا يتعداها إلى ما هو خلاف حقيقتها كما يزعم اليهود، كأنه قيل: يوقنون بالآخرة لا غيرها، وفيه تعريض بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالقرآن بأن ما كانوا عليه ليس من الإيمان بحقيقة الآخرة لعدم خلوص علمهم بالآخرة عن الشبهة الباطلة، فإن اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق لحقيقة الآخرة.

وليفيد تقديم الفاعل المعنوى أن الإيقان بالآخرة مقصور على المؤمنين، لا يتجاوزهم إلى أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالقرآن، وفيه تعريض لهم بأن اعتقادهم

الذى يزعمون أنه إيقان ليس إيقاناً أصلاً، بل هو جهل محض، كما أن معتقدهم خيال باطل، وإنما الإيقان ما عليه المؤمنون، كما أن الآخرة هي التي يعتقدونها، فإن أهل الكتاب يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن اليهود قالوا: ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]، إلى آخر مفترياتهم الباطلة، والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل.

الرد على المحامى أحمد حسين:

لقد رأينا كتاباً بعنوان: فى الإيمان والإسلام^(١)، وضعه أحد المحامين فى هذا العصر، وهو الأستاذ أحمد حسين، وفيه ما لا يتفق مع النصوص القرآنية السابقة، لذلك رأينا من الواجب علينا إزاء الدعوة الإسلامية أن نبين ما فيه، إخلاصاً للحقيقة، ووضعاً للحق فى نصابه، فنقول مستعينين بالله وحده، ومتوكلين دائماً عليه:

قال الكاتب فى صفحة (١٧٤، ١٧٥) من هذا الكتاب تحت عنوان: الإسلام يؤاخى بين الأديان ويوفى بينها، بعد كلام ما نصه: فجاء الإسلام على خلاف جميع العقائد التى سبقته يؤاخى بين الأديان كلها.

الإسلام والأديان:

نقول: إن الإسلام كما هو معلوم وثابت يوافق الأديان السابقة كلها، ويتأخى معها ويرتبط بها أشد الارتباط فى أمر التوحيد بنص قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ويتأخى معها كذلك فى أصول العبادات دون هيئاتها وأشكالها، قال تعالى حكاية عن بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾، إلى أن قال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أما هيئات العبادات وأشكالها، فمختلف فيها قطعاً، حيث إن لكل أمة مع رسولها تشريعاً خاصاً فى هذه العبادات اقتضته الحكمة الإلهية، كما أوضحناه سابقاً فى أول البحث، ودليل هذا الاختلاف فى التشريع قوله جل جلاله: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال العلامة أبو السعود عند هذه الآية ما نصه: والمعنى: لكل أمة كائنة منكم أيها

الأمم الباقية والخالية ﴿ جَعَلْنَا ﴾ أى عينا ووضعنا ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾ خاصين بتلك الأمة، لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عينت لها، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى عيسى، عليهما السلام، شرعتهم التوراة، والتى كانت من مبعث عيسى إلى النبى ﷺ شرعتهم الإنجيل، وأما أنتم أيها الموجودون من سائر المخلوقات، فشرعتكم القرآن ليس إلا، فأمنوا به وآمنوا بما فيه.

وقال العلامة الجمل فى حواشيه على الجلايين: قال ابن عباس: قوله: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾ سنة وسيلاً. وقال قتادة: سيلاً وسنة، فالسنن مختلفة، فلتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة يحل الله بها عز وجل فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذى لا يقبل التغير هو التوحيد والإخلاص لله تعالى والإيمان بما جاءت به جميع الرسل، عليهم السلام. وقال على بن أبى طالب: الإيمان منذ بعث آدم، عليه السلام، شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، ولكل قوم شرعة ومنهاج.

قال العلماء: وردت آيات دالة على عدم التباين بين طرق الأنبياء، منها قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ إلى قوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، ومنها قوله سبحانه: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وردت آيات دالة على حصول التباين بينها، منها هذه الآية، وهى قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾، وطريق الجمع بين هذه الآيات أن كل آية دلت على عدم التباين، فهى محمولة على أصول الدين من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، فكل ذلك جاءت به الرسل من عند الله تعالى، فلم يختلفوا فيه. وأما الآيات الدالة على حصول التباين بينها، فمحمول على الفروع وما يتعلق بمظاهر العبادات، فجائز أن يتعبد الله عباده فى كل وقت بما شاء، فهذا هو طريق الجمع بين الآيات، والله أعلم بأسرار كتابه. انتهى.

هذا هو القرآن الحكيم، وهذا هو فهم الراسخين من أولى العلم فيه، نقلناه ليكون حجة نيرة، وبرهاناً ساطعاً على من انحرف فى القول وخلط فيه، وبعد عن الصواب والمنهج المستقيم.

كذلك ذكر الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] في بيان حكمة اقتصار الآية الكريمة على البدء بنوح بدون آدم، نقلاً عن القاضي ابن العربي ما نصه: ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة المشهور الكبير: «ولكن اتوا نوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى الأرض، فيأتون نوحًا، فيقولون له: أنت أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض»، وهذا صحيح لا إشكال فيه، كما أن آدم أول رسول نبي بغير إشكال، إلا أن آدم لم يكن معه إلا بنوه، ولم تفرض له الفرائض، ولا شرعت له المحارم، وإنما كان شرعه تنبيهاً على بعض الأمور، واقتصاراً على ضروريات المعاش، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء، واستمر هذا إلى نوح، فبعثه الله تعالى بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الآداب والديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسول، ويتناصر بالأنبياء، صلوات الله عليهم، واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله تعالى بخير الملل، ملتنا، على لسان أكرم الرسل، نبينا محمد ﷺ.

وكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر، والقتل، والزنا، والإذابة للخلق كيفما تصورت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدنئات وما يعود بخرم المروءات، فهذا كله مشروع ديناً واحداً، وملة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعضارهم، وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، أى اجعلوه دائماً، قائماً، مستمراً، محفوظاً، مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب، فمن الخلق من وفى بذلك، ومنهم من نكث، ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه، واختلفت الشرائع وراء هذه في أحكامها حسبما أراد الله تعالى مما اقتضت المصلحة، وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم، والله أعلم.

فهذا هو التوحيد بين الأديان والاختلاف بينها، وقد تبين بوضوح أن ذلك لازم لكل دين، وضرورى في كل رسالة سبقت الإسلام وتقدمت عليه، على خلاف ما يفهم من عبارة الكاتب التي نقلناها عنه سابقاً في قوله: فجاء الإسلام على خلاف جميع العقائد التي سبقتها يؤاخي بين الأديان كلها، فقوله: على خلاف جميع العقائد، يقصد به جميع الأديان، وهو كلام لا سند له ولا دليل، بل الدليل يبطله ويأتى عليه من أساسه، قال

تعالى: ﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ [المائدة: ٤٦] الآية، فقوله: ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ في الموضوعين حال، الأول من «عيسى»، والثانى من «الإنجيل». قال العلماء: إنها حال مؤكدة، إذ مقتضى أن عيسى رسول من الله تعالى، أن يكون مؤمناً بما فى التوراة، ومقتضى أن الإنجيل كتاب من الله، أن يكون مصدقاً للتوراة التى هى من عند الله كذلك.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، قال الخطيب الشربينى فى تفسيره عند هذه الآية ما نصه: ولما كانت الكتب السماوية من شدة تصادقها كالمشئ الواحد، عبر تعالى بالمفرد، فقال: ﴿ مِنْ الْكِتَابِ ﴾، أى الكتب المنزلة التى جاء بها الأنبياء من قبل، فاللام الأولى فى الكتاب للعهد؛ لأنه عنى به القرآن، والثانية للجنس؛ لأنه عنى به جنس الكتب المنزلة.

فثبت بهذا بطلان قول الكاتب أن العقائد السابقة لا تأخى بينها، ويجب أن لا يغيب عن البال أن تصادقها إنما هو على ما أوضحناه وبيناه من التوحيد بينها فى الأصول والاختلاف بينها فى الفروع، وإلا لما قال تعالى فى شأن التوراة: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولما قال سبحانه فى شأن الإنجيل: ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧]، وبناء على ما بينها من تصادق واتحاد يجب على كل أصحاب ديانة سابقة أن يدخلوا فى الديانة اللاحقة لها، متعبدين لله على ما فيها من فروع الأحكام التى تخالف الشريعة السابقة، وإلا فهم كافرون مخلدون فى النار.

فإن أراد الكاتب بتأخى الإسلام مع بقية الأديان هذا الذى أوضحناه وبيناه لهُو صحيح ثم صحيح، وإن أراد غير ذلك بأن أراد أن ما فى الأديان الأخرى من تشريع يخالف تشريع القرآن صحيح يتعبد به وينال به عند الله الثواب الجزيل والنعيم الدائم، وأن من صلى من أهل الديانات الأخرى، وصام، وحج على وفق ما جاء فى شريعته، يساوى ويعادل من صلى، وصام، وحج على وفق شريعة القرآن، وأن كلا منهما يرضى عنه الله فى دار البقاء، فهذا كفر صريح لا شبهة فيه على ما قدمنا من الأدلة والبراهين الملزمة بالدخول فى الإسلام والانضواء تحت لوائه.

جدال أهل الكتاب:

وقال الكاتب فى صفحة (١٧٨) ما نصه: ولقد أمر الإسلام معتقيه أمراً ألا يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى إلا بالتي هي أحسن، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وما ذلك إلا ليشعروا أن المتدين أخو المتدين، وإن اختلفا فى بعض الآراء والأفكار.

وذكر الكاتب قبل كلامه هذا أن من أصحاب الديانات أتباع كنفشيوس فى الصين، وبوذا فى الهند، وزاردشت بالفرس، وإخناطون المصرى القديم، وقال: إنه لا يحق لمسلم أن يزدريهم أو أن يحقرهم، فقد يكونون من الرسل الذين لم يقص القرآن قصصهم.

ونقول له قبل أن نتكلم معه فى الآية الكريمة التى ساقها دليلاً على دعواه: إن الرسل الذين لم يقصهم الله تعالى علينا فى القرآن هم ضمن الغيب الذى لم يطلعنا الله عليه لحكمة يعلمها هو، فعلىنا أن نؤمن بأن هناك رسلاً دعت الناس إلى توحيد الله وعبادته دون أن نعرف أشخاصهم وأزمنتهم وما لابس وجودهم من وقائع وحوادث، فقد قال العلماء فى قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، معناه أن هناك رسلاً سميناهم لك فى القرآن، وعرفنا أخبارهم، وإلى من بعثوا من الأمم، وما حصل لهم من قومهم، وقوله: ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، أى لم نسهم لك، ولم نعرفك أخبارهم، فمجرد تجويز أنهم رسل لا يكفى أبداً لإعطائهم قداسة الرسل.

ولنتكلم معه فى الآية: نقول: إنه لم يسق الآية بتمامها، وفى ذلك تغطية للحقيقة وستر لها عن أعين المتطلعين إليها والراغبين فى معرفتها، فالآية فى سوقها هذا تدل على أن لا نجادل إلا بالتي هي أحسن دائماً أبداً، وهذا غير مراد قطعاً بدليل قوله سبحانه بعد هذا مباشرة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولنذكر معنى الآية بعد ذلك، فنقول:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، أى اليهود والنصارى ظناً منكم أن الجدل ينفع، أو يزيد فى اليقين، أو يرد واحداً عن ضلال مبين، ﴿إِلَّا بِالَّتِي﴾، أى المجادلة التى ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾، كمعارضة الخشونة باللين، والغضب بالکظم والدعاء إلى الله تعالى بآياته، والتنبيه على حججه كما قال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بأن حاربوا وأبوا أن يقرروا بالجزية، فجادلوهم بالسيف إلى أن يسلموا، أو يعطوا الجزية، وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ، وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ متصل، وإنما فسر الظلم في الآية بمحاربتهم المؤمنين حتى لا يقال: كيف قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مع أن أهل الكتاب جميعاً ظالمون؛ لأنهم كفرون، قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فالآية الكريمة شروع في بيان إرشاد أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام بعد بيان إرشاد أهل الشرك في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] الآية، فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى معناه دعوتهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به؛ لأن هذا هو المتعين المفروض الذى يلزم كل مكلف من المسلمين في حدود الاستطاعة والقدرة كما هو واضح، وما أبدع قوله في هذه الآية: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ بعد قوله سبحانه فيها: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ﴾.

قال الخطيب الشربيني عندها ما نصه: أى خاضعون منقادون أتم انقياد فيما يأمرنا به بعد الأصول من الفروع، سواء كانت موافقة لفروعكم، كالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس، أو ناسخة كالتوجه إلى الكعبة، ولا نتخذ الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله لنأخذ ما يشرعونه لنا مخالفاً لكتابه وسنة نبيه ﷺ. انتهى

هذا هو معنى الآية، وهذا هو ما يفهم منها على مقتضى الموازين الصحيحة والضوابط الدقيقة، هذا هو ما تعطيه الآية على وفق ما قاله أئمة الهدى والراسخون فى التحقيق والمعرفة.

قلنا فيما تقدم: إن الآية فى دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، والكاتب يقول: إن المجادلة للإشعار أن المسلم فى دينه أخو اليهودى والمسيحى فى دينهما. ولا ندرى من أين جاءت هذه الأخوة وهم يتجهون إلى بيت المقدس، ونحن نتوجه إلى الكعبة، وصلاتنا تخالف صلاتهم، وصيامنا يخالف صيامهم، إلى غير ذلك.

وقد نطق القرآن بكفرهم كما يصرح به قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، اللهم إلا إذا أمكن أن يقال فى المتضادات: إن بينها أخوة، وفى المتباينات: إن فيها صلة ورابطة.

الإيمان والعمل الصالح:

وقال فى صفحة (١٧٩) تحت عنوان: الإيمان والعمل الصالح، بعد كلامه ما نصه: فكل من آمن وعمل صالحاً فى هذه الدنيا فله أجره عند ربه، سواء فى ذلك المسلم، أو المسيحى، أو اليهودى، أو المتدين بأى دين من الأديان، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

قلنا فيما تقدم عند ردنا عليه فى قوله: الإسلام يؤاخى بين الديان، ما نصه: فإن أراد الكاتب بتأخى الإسلام مع بقية الأديان الأخرى، هذا الذى أوضحناه، فهو صحيح، وإن أراد غير ذلك بأن أراد أن ما فى الأديان الأخرى من تشريع يخالف تشريع القرآن صحيح يتعبد به، وينال به عند الله تعالى الثواب الجزيل، والنعيم الدائم، وأن من صلى من أهل الديانات الأخرى وصام وحج على وفق ما جاء فى شريعته يساوى ويعادل من صلى وصام وحج على وفق شريعة القرآن، وأن كلا منهما يرضى عنه الله فى دار البقاء، فهذا كفر صريح لا شبهة فيه.

أما هنا وفى هذا الموضوع، فقد انكشف لنا الغطاء عما يقول الكاتب من أن الإسلام يؤاخى بين الأديان، وأنه لا يقصد بتأخى الإسلام مع بقية الأديان إلا هذا الذى يصرح به هنا من أن كل من عمل صالحاً على أى دين، فله أجره عند ربه، وقد تأيد هذا بما ذكره الكاتب فى مقدمة الطبعة الأولى فى كتابه هذا، فقال فى صفحتى (١٣ و ١٤) تحت عنوان: المادية هى الخطر المشترك، ما نصه: وعلى أية حال، فقد حان الوقت ليدرك كل صاحب عقيدة دينية أياً كان موضعها ومحورها، أن الخطر الذى أصبح يهدد عقيدته ليس ما يقول به دين آخر. إلى أن قال: وإنما الخطر الذى أوشك أن يهدد العقائد ويقتلها من جذورها هو هذه المادية الطاغية الجارفة المسعورة.

فهو يرى أن الأديان كلها متآخية، وأن أصحابها ناجون، يرضى الله عنهم جميعاً دون الماديين الذين استهوتهم المادة وغلبهم حبها، وتغلغل هذا رأى فى نفس الكاتب إلى حد أنه رسم على غلاف كتابه ما يبنىء عن هذا التأخى ويشير إليه، فقد رسم على الغلاف مثذنة وصليباً بجانبها، وبجانب الصليب من فوق رسم شمساً، وبجانب الصليب من أسفل رسم نجمة، وبين الشمس والنجمة فى محازة الصليب وبجانبه رسم شخصاً فرعونياً، يعنى فهو يدعو إلى الفكرة قولاً، وكتابة، ورسمًا، وتصويرًا، وتفسير هذا

الرسم على حسب ما جاء في كلامه الذى ذكرناه قريباً أن الرجل الفرعونى والشمس رمزاً إلى أختاتون المصرى، والنجمة هى رمز وشعار اليهودية، أما الصليب فهو معروف أنه للنصارى، والمثدنة معلوم أنها للمسلمين، ولا ندرى ما رمز الزرادشتية، ولا رمز الكونفشيوسية، ولا رمز البوذية، وعلى كل، فهذا الذى ذكرناه هو ما أمكننا أن نستخلصه من هذا الرسم، ولعله يقول فيما لم يرمز إليه أنه محمول على غيره ومقصود معه، بدليل كلامه السابق الذى ذكرناه.

ونقول نحن من جانبنا: كل من يقول وهو غير مؤمن بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ أنه من أهل الجنة، وأن الله تعالى عنه راض، وأنه تعالى يشبهه على عقيدته أو عبادته فى دار البقاء، فهو كاذب خاطىء، قال تعالى حاكياً عن اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

سمى الله تعالى هذا القول منهم أمنية تمنوها، وشهوة رغبوا فيها، يعنى فلا دليل على ذلك ولا برهان، ثم أمر نبيه ﷺ أن يطلب منهم البرهان فى ذلك، وأن يظهروا ما عندهم من حجة إن كانت لهم حجة أو برهان، وكانت الإجابة بـ ﴿ بَلَى ﴾ لإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة، وبين سبحانه بهذا أن الجنة لن تكون إلا لمن أسلم وانقاد لله تعالى بقلبه باطنًا، وبجوارحه ظاهرًا.

وقال بعد ذلك أيضاً حاكياً عنهم: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]، فالله سبحانه بهذه الآيات يكذبهم تكذيباً صريحاً، ويبين لهم كيف يكون الوصول إلى الجنة ونيل ما عند الله تعالى من الثواب، وإذا كان القرآن يكذب اليهود والنصارى فى هذه الدعاوى التى قالوها، وهم أصحاب شرع سماوى سابق، فغيرهم ممن لم يعلم له كتاب ولم يعرف له رسول من سائر المذاهب والأديان التى ذكرها الكاتب، أولى بهذا التكذيب وأحق به، وعلى الكل أن ينضوى تحت لواء القرآن، وأن يصدق بما جاء فيه من تشريع وأحكام.

فحقيقة الإيمان الصحيح اللازم لكل مكلف فى أى جنس، وعلى أى ملة ومذهب، الإيمان المعتبر عند الله تعالى فى النجاة من الخلود فى النار، وفى نيل الثواب الدائم

والنعيم المقيم فى الجنة، هو الإيمان بالقرآن وسائر الكتب السماوية السابقة عليه، قال تعالى فى أول سورة البقرة فى بيان وصف المتقين: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: ٤]، قال المفسرون عند هذه الآية: والإيمان بالإنزالين جملة فرض عين، وبالأول دون الثانى تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض، ولكن على الكفاية؛ لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج ويشوش المعاش.

قال تعالى من هذه السورة أيضاً: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ جمع سبط، وهو الحافد، والمراد حفدة يعقوب وأبناؤه وذرائه، فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق، وقد نسبت صحف إبراهيم إلى الأسباط؛ لأنهم كانوا متعبدين بتفاصيلها، داخلين تحت أحكامها، فكانها أنزلت إليهم، كما أن القرآن لهذا الاعتبار نزل إلينا.

ثم قال تعالى كذلك فى هذه السورة: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

اختلف نظر المفسرين فى بيان المخاطب بهذه الآية، وعلى أى قول منها، فهى دليل واضح على أن الإيمان لن تكون له حقيقة منجية إلا إذا كان بجميع الأنبياء وما نزل إليهم.

قال فريق: إن المراد بالمخاطب أهل الكتاب، وعليه يكون المعنى: ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب، وصلاة النصارى إلى المشرق، فإنهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حوّلت، وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد الله تعالى عليهم وقال: ليس البر ما أنتم عليه، فإنه منسوخ، ولكن البر ما فى هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ﴾ على تأويل حذف مضاف، أى بر من آمن، أو بتأويل البر بمعنى ذى البر، أى ولكن البر الذى ينبغى أن يهتم به بر من آمن، أو لكن ذى البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب، أى الكتب، إن أريد به الجنس، وإلا فالقرآن.

ويرى البعض أن المخاطبين هم المسلمون، والمعنى عليه: ليس البر كله فى الصلاة،

ولكن البر ما فى هذه الآية. وبعضهم عمها فى المسلمين وأهل الكتابين، أى ليس البر مقصوراً بأمر القبله.

ومقصودنا من هذه الآية لا يختلف على أى قول من الأقوال كما قدمنا آنفاً. كذلك جاء فى آخر هذه السورة قوله تعالى: ﴿ أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾.

فهذه دلائل صادقة وبراهين قوية دامغة على ما قلناه فى بيان حقيقة الإيمان المنجى، من أخل بجزئية من هذه الحقيقة، فإيمانه غير صحيح ولا معتبر شرعاً، بمعنى أن من فرق فى إيمانه بين كتاب وكتاب، أو رسول ورسول، أو ما إلى ذلك، فهو كافر.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]. وقال حكاية عن اليهود خاصة: ﴿ وَكَمَا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]، إلى أن قال: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١].

فالفروق التى ذكرها الكاتب فى كلامه الذى ذكرناه قبل لا تؤمن بمحمد ﷺ ولا بقرانه، فهى كافرة بمقتضى هذه النصوص القرآنية، وما دامت كافرة فلن يقبل الله تعالى لها عملاً عنده فى دار البقاء، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، يعنى: فكل عمل طيب يصدر عن الكافر من صدقة، وصلة رحم، وفك أسير، وإقراء ضيف، وبر والد، فى عدم الانتفاع به، كرماد اشتدت به الريح، فلم تبق له عيناً ولا أثراً، فهم لا يجدون لهذا العمل ثواباً عند الله تعالى لفقد شرطه، وهو الإيمان الصحيح، وقال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، يعنى قصدنا إلى أعمالهم التى عملوها من مكارم الأخلاق، كالجود، وإغاثة الملهوف، ونحو ذلك، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾، لكونها لم تؤسس على الإيمان، ﴿ هَبَاءً ﴾ وهو ما يرى من شعاع الشمس الداخلى من كوة مما يشبه الغبار

﴿مَنْشُورًا﴾ أى مفرقًا فهو مثله فى عدم النفع، إذ لا ثواب فيه لعدم شرطه.

قال العلماء: وإن كانوا قد يجازون عليه فى الدنيا. وما دامت أعمالهم الصالحة لا ثواب عليها لفقد شرطها وهو الإيمان، فليس لهم إلا النار مستقرًا ومقيلاً.

ثم إن الكاتب لما استشهد على دعواه بالآية الكريمة، قال بعدها مباشرة: وقد تكررت هذه الآية فى القرآن بنصها ومعناها أكثر من مرة حتى أصبحت بمثابة قاعدة أساسية من قواعد الدين الإسلامى، حتى لقد جعل منها تشريعاً قائماً عندما أباح للمسلم أن يتزوج بكتابية على غير دينه، وأن تبقى على دينها.

أما بالنسبة للآية، فنقول: لا يمكن أبداً فى ميزان العقل السليم والمنطق الصحيح أن تفهم الآية على ما يبدو منها للكاتب بعد أن بين القرآن حقيقة الإيمان، وما يجب على المكلف أن يؤمن به، وبعد أن حكم بالكفر على من كذّب وفرّق بين رسول ورسول، كما قدمنا كل ذلك صريحاً دون لبس أو غموض، وإلا لكان القرآن من عند غير الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإذن فلا بد من فهمها على هذه الحقائق، وعلى أساس هذه الأصول، وتلكم الحجج القوية الدامغة. قال أئمة التفسير: اختلف فى الذين آمنوا فى هذه الآية، فقالت فرقة: «الذين آمنوا» هم المؤمنون حقاً بنبينا محمد ﷺ، وقوله: «من آمن بالله» يكون فيهم بمعنى من ثبت ودام، وفى سائر الفرق بمعنى من دخل فيه.

وقالت فرقة: المراد بالذين آمنوا، المؤمنون بالأنبياء قبل بعثة نبينا محمد ﷺ، ويكون المعنى: أن الذين آمنوا على التحقيق فى زمن الفترة مثل: قس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، ومجيرا الراهب، وأبى ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وهؤلاء هم أصحاب الإيمان الحق قبل ظهور النبى ﷺ، والذين كانوا على الدين الباطل المبدل من اليهود والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وبمحمد ﷺ عند إدراكهم زمنه، فلهم أجرهم... إلخ.

فالآية تبين بهذا أن أى دين قبل ظهور محمد ﷺ لو كان صحيحاً لا ينفع المتدينين به عند ظهوره ﷺ، وعليهم أن يؤمنوا بالقرآن، وبما جاء به، عليه السلام، إذا أدركوا زمنه، وإلا فهم هالكون، ومن باب أولى ما إذا كان باطلاً ومبدلاً كدين اليهود والنصارى، فلو فرض أن إنساناً قبل ظهور بعثة النبى ﷺ كان يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن عيسى

رسول الله، على معناها الصحيح الصادق، لم تنفعه هذه الشهادة عند ظهور البعثة المحمدية، وعليه إذا أدرك زمانها أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فالأديان كلها لاغية وباطلة، سواء كانت صحيحة أو فاسدة عند ظهور الدعوة المحمدية. هذا ما تعطيه الآية على ما قدمنا من كلام أئمة التفسير، إذن فهي ضد ما قال الكاتب، وضد دعواه، وهي عليه لا له.

وقفه مع آية:

بقي قوله: وقد تكررت هذه الآية فى القرآن بنصها ومعناها أكثر من مرة، حتى أصبحت بمثابة قاعدة أساسية من قواعد الدين الإسلامى، حتى لقد جعل منها تشريعاً قائماً عندما أباح للمسلم أن يتزوج بكتابية على غير دينه، وأن تبقى على دينها.

نقول: أما عن تكرار آية فى القرآن بنصها ومعناها أكثر من مرة، فنحن نطالبه بالدليل على ذلك، ولا يكلفه الدليل أكثر من أن يتصفح المصحف الشريف سوره وآياته، حتى يأتى لنا بمواضع التكرار التى قالها وادعاها، وسوف لا يجد بعد أن يتقصى القرآن كله أوله وآخره، ووسطه وطرفيه، ما يثبت له هذا الذى قاله، ولا ذلك الذى ادعاه.

فمقتضى كلامه أن الآية كررت ثلاث مرات على الأقل، إذا راعينا المعنى الموضوع للعبارة، أما إذا راعينا المعنى العرفى لهذا التعبير، فالمعنى أن الآية كررت مرات ومرات. والحقيقة والواقع أن هذه الآية الكريمة بالنص السابق الذى ذكرناه قبل قد ذكرت فى سورة البقرة، وذكرت أيضاً فى سورة المائدة، ونصها فى سورة المائدة هو هذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، ونرى فى هذه مع سابقتها اختلافاً فى موضعين:

أولاً: قال: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ بالرفع وهناك: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ بالنصب.

ثانياً: قال هنا: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، وقال هناك: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وعبارة الكاتب تفيد أن التكرار كان بنص الأولى، وهذا غير الواقع المحسوس كما بينا، يعنى أن الآية الكريمة ذكرت مرتين فى القرآن الكريم فقط دون ما زيادة على ذلك، أما توجيه

قراءة: ﴿والصابئون﴾ بالرفع، وهى قراءة الجمهور، فقد قال العلماء فى بيان ذلك أنه من المقدم الذى معناه التأخير، كأنه قال: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى كذلك.

وأما قوله: حتى لقد جعل منها تشريعاً قائماً عندما أباح للمسلم أن يتزوج بكتابية على غير دينه، وأن تبقى على دينها.

فنقول: لقد بينا المعنى الصحيح للآية، ذلك المعنى الذى لا يجوز فهم غيره منها، وهو الذى قال به أئمة المفسرين، وليس فى هذا المعنى ما يدل أقل دلالة ولا يشير أدنى إشارة إلى زواج المسلم من الكتابية، حتى ولا فى مذهبه الفاسد الذى أبطلناه لا توجد هذه الدلالة، فلا يلزم من مذهبه هذا، كل من آمن وعمل صالحاً من أى دين فله أجره عند ربه، لا يلزم منه زواج المسلم من الكتابية؛ لأنه لو جاز زواج المسلم من الكتابية بمقتضى هذا المذهب لجاز للمسلم أيضاً زواج المرأة الزرادشتية والكونفوشيوسية، ولا يقول بذلك مسلم.

نعم أباح الله تعالى زواج المسلم من الكتابية بآية أخرى من سورة المائدة، وهى: ﴿الْيَوْمَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. قال الخطيب الشربيني عند هذه الآية فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، قال: هم اليهود والحرييات، أى أحل لكم أن تنكحوهم وإن كن حرييات. وقال ابن عباس: لا تحل الحرييات، وأما الإمام المسلمات، فيحل نكاحهن فى الجملة، بخلاف الإمام الكتابيات، فلا يحل نكاحهن عند أبى حنيفة، رحمه الله تعالى.

هذا وقد جاء فى مجلة «منبر الإسلام» عدد جمادى الأول سنة (١٣٨٤هـ) مقال بعنوان: حول ترجمة القرآن، للأستاذ محمد وصفى، فيه ما يأتى: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

لقد ذهب المستشرقون إلى ترجمة هذه الآية الكريمة ترجمة مضللة بعيدة كل البعد عن المعنى الحقيقى الذى هدفت إليه، ومناقضة لتعاليم الإسلام وعقائد المسلمين صريحاً إلى

وقبل أن نناقش الترجمة، نرى لزماً علينا أن نذكر نص هذه الترجمة، ضارين مثلاً بترجمة «رودل» مثلاً، هذا مع العلم بأن ترجمة من التراجم التي بأيدينا، لم تأت بالترجمة الصحيحة، وإنه ليؤسفنا أن محمد بقول، المسلم، جارى المستشرقين من غير المسلمين فى نفس الخطأ الذى وقعوا فيه، ثم ذكر الكاتب نص الترجمة بالإنجليزية، فليراجعها من شاء.

وهذه الترجمة تعنى أن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون عملاً طيباً سيكافأون من سيدهم، وسوف لا يلحقهم خوف أو حزن، سواء كانوا مسلمين، أو متبعين للديانة الإسرائيلية، أو صليبيين أو صابئين.

وفهم من هذه الترجمة أن جميع من على الأرض اليوم من الإسرائيليين وأهل التثليث والصابئين، هم كالمسلمين سواء، ولن يصيبهم حزن أو خوف يوم القيامة ما داموا مؤمنين بوجود الله، وأن سيرهم حسن فى الدنيا حسب أديانهم التى يعترفونها، وهو ما يتناقض كل التناقض مع قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

إن الآية الكريمة معناها أن المسلمين الذين آمنوا برسالة خاتم النبيين، واليهود الذين اتبعوا شريعة موسى وآمنوا برسالته فى زمنه، وساروا على تعاليم التوراة الحقيقية، ودعوا الله قائلين: ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والنصارى الذين ما بعث إليهم المسيح عيسى ابن مريم حتى آمنوا برسالته، واتبعوا الإنجيل الحقيقى طوال الزمن المحدد لرسالته، والصابئين الذين آمنوا برسالة رسولهم فى زمنه، كل أولئك لهم أجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنهم هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويعملون الأعمال الصالحة التى جاءت بها الكتب التى أرسلت إليهم على يد رسل الله الذين أرسلوا هدايتهم، فمن كان من اليهود زمن المسيح عيسى ابن مريم ولم يؤمن به، فقد حبط عمله؛ لأن رسالة موسى تتضمن وجوب الإيمان برسالة عيسى ونبوته، واتباع تعاليم شريعته متى جاءت، والفروض كذلك على النصارى الذين وجدوا أيام نزول القرآن الكريم أن يؤمنوا برسالة خاتم النبيين.

ولقد حكى الله تعالى عن الذين آمنوا بالرسول الكريم من النصارى عند نزول

القرآن الكريم، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أَوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥١ - ٥٤].

فالْمُؤْمِنُونَ من أهل الكتاب الذين يكافؤهم الله تعالى ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم الذين يقيمون التوراة والإنجيل والقرآن، ولا يكفرون بأحدها، هذا مع العلم بأنها جميعاً تفرض الإيمان برسالة محمد الكريم. قال تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] الآية.أ.هـ.

ونرجع إلى الكاتب أحمد حسين، فنراه يقول فى صفحة (١٨٠) بعد أن ذكر الآية الكريمة، وهى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] استشهاداً على مذهبه ما نصه: وتطبيقاً لذلك، فإن أهل الكتاب كالمسلمين سواء بسواء، من يفعل منهم مثقال ذرة من الخير، فإن الله يثيبه عليه، وما يفعله من شر فإن الله يجازيه عليه، وقرأوا إن شئتم: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

نقول: إن آية ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ [الزلزلة: ٧] إلخ، لا تنطبق على أهل الكتاب إطلاقاً؛ لأنهم كافرون بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ، وشرط العمل الصالح كما قدمنا الإيمان بجميع الكتب المنزلة والرسول جميعاً، خص الكاتب هنا أهل الكتاب بالذكر بعد أن جعلهم فيما مضى ضمن أهل الأديان كلها، وأن الكل ناجون، مستشهداً على هذا بآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾ [البقرة: ٦٢] على ما مر بيانه. واستشهد هنا بآية كريمة أخرى على دعواه حسبما نقلناه عنه آنفاً.

ونحن بعون الله تعالى نقض القول فى بيان وإيضاح، فنقول زيادة على ما تقدم فى أول البحث: إن الله تعالى قد خاطب أهل الكتاب بالإيمان بالقرآن، وتوعدهم على تركه

كافرون كالمشركين سواء بسواء، ما داموا لم يؤمنوا بالقرآن وشريعته، بل كفرهم يزيد قبحاً على كفر بقية الكافرين، ولذلك يقول الخطيب الشربيني عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٨] ما نصه: وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل، فهم كافرون بهما.

أما عن الآية والاستشهاد بها، فبعد أن أبلغنا قوله: إن أهل الكتاب كالمسلمين بما تقدم إيضاحه، فقد أصبحت الآية لا تتصل بدعواه إطلاقاً، وأما عن معناها وتفسيرها فهو هذا، ونسوق الآية بكاملها، قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ... ﴾ [آل عمران: ١١٣] الآيات.

جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَكَوْا أَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، يعنى لو آمن أهل الكتاب بالله ورسوله ﷺ، لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام، ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾، أى المتمردون فى الكفر.

وقيل خيراً لهم من الكفر الذى هم عليه، فالخيرية إنما هى باعتبار زعمهم، وفى ضرب من التهكم بهم ولم يتعرض لما يؤمنون به إشعاراً بشهرته، ثم قال هنا: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ [آل عمران: ١١٣]، الواو فى قوله: ﴿ لَيْسُوا ﴾ تعود على أهل الكتاب، وهى اسم ليس، وسواء خبرها، فالوقف عليه تام. والمعنى أنهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر؛ لقوله تعالى: ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فانتفى استواؤهم، وقد سيقت هذه الجملة تمهيداً وتوطئة لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣] استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم، ومزيل لما فيه من الإبهام ووضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين وللإيدان بأن تلك الأمة ممن أوتى نصيباً وافراً من الكتاب لا من أراذلهم.

وقوله: ﴿ قَائِمَةٌ ﴾ معناه المستقيمة العادلة، من أقمت العود فقام، بمعنى استقام، وهذه الأمة، كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود الذين أسلموا، وكان نجاشى

وأصحابه من النصارى الذى أسلموا أيضاً، فكل صفات الخير التى أتت بعد ذلك فى الآيات الكريمة إنما هى لمن آمن منهم بالقرآن ودخل فى حوزة الإسلام، وعبد الله تعالى على شريعة النبى محمد ﷺ لا كما زعمه الكاتب فى تحريفه الآيات، وحملها على من لم يؤمن من أهل الكتاب، ولو قرأ سابق الآية وتدبره حق التدبر، لاهتدى إلى المعنى الصحيح الذى قال به أئمة الهدى وأعلام المحققين.

وأما القسم الآخر من أهل الكتاب الذى أشارت إليه الآية، فلم يذكر فى الآية، اكتفاءً بذكر أحد الفريقين. قال الخطيب الشربيني فى تفسيره عند هذه الآية ما نصه: أى والأمة الأخرى غير قائمة، بل منحرفون عن الحق، غير متعبدين بالليل، مشركون بالله، ملحدون فى صفاته، واصفون لليوم الآخر بغير صفته، متباطئون عن الخيرات، فترك هذه اكتفاءً بذكر أحد الفريقين.

فأى مطمع للكاتب بعد هذا البيان فى هذه الآيات وأمثالها مما ادعى فيه أنه يؤيد رأيه الذى لم يقل به أحد، ولم يشهد له أى دليل من نقل صحيح، أو عقل سليم، والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل.



كلمة للتاريخ

أحمد حسين فى سطور:

- والده ريفى من كفر البطيخ، أما والدته فمن سمند.

- ولد هو فى القاهرة فى ١٨ مارس ١٩١١م، إن كان لا يفتأ يصرح أنه ولد قبل هذا التاريخ.

- تلقى علومه فى كتاب الحى بطولون، ثم التحق بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية الابتدائية، وانتقل منها إلى مدرسة محمد على الأميرية، حيث ألف فى هذه الفترة جمعية: نصر الدين الإسلامى.

- تلقى تعليمه الثانوى فى المدرسة الخديوية، وانخرط فى نشاطها المدرسى، وكان التمثيل هو النشاط المسيطر، فقدم لهم مسرحية: أبو مسلم الخراسانى، كما أشرف على إصدار مجلة المدرسة.

- التحق عام ١٩٢٩م بكلية الحقوق.

- دعا عام ١٩٣١م إلى تصنيع مصر بجهود الشعب، مما أطلق عليه فى حينه: مشروع القرش.

- أسس عام ١٩٣٣م جمعية مصر الفتاة، التى تحولت بعد الحرب العالمية الثانية إلى الحزب الاشتراكى، وكانت التعاليم الإسلامية هى نبراسه دائماً، فدعا عام ١٩٣٨م إلى تطبيق أحكام الشريعة، واتهم ونفر من أعضاء جماعته، فيما اشتهر آنذاك باسم: تحطيم الحانات.

- كان له دور كبير فى محاربة الملك السابق وكل فساد وطغيان، مما جعل حكام ذلك الزمان يعملون على التخلص منه، فانتهزوا فرصة حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢م لكى يعتبروه مسئولاً عن هذا العمل.

- كان لقيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م الفضل فى إنقاذه من حبل المشنقة.

- هاجر من مصر عام ١٩٥٥م، ولكنه لم يلبث أن عاد إليها، فلما أن خاب أمله مرة أخرى اعتزل الحياة وأوى إلى بيته عام ١٩٦٠م.

- وفى بيته تفرغ للمطالعة والتأليف، فأصدر ثلاثة من المع كتبه:

١ - الطاقة الإنسانية.

٢ - الأمة الإنسانية.

٣ - نبى الإنسانية.

- جاوزت مؤلفاته الأربعين كتاباً، أحدها يقع فى ألفى صفحة، وهو موسوعة تاريخ

مصر.

- ولكن عمله الأكبر، والذي يعتبره تنويجاً لحياته كلها، هو تفسيره للقرآن الكريم.

- أُصيب بالشلل الكامل الذى أعجزه عن الحركة تماماً، فيما خلا الكتابة، وهو ما يجعله يقول: ما بقى الله يحفظ لى عقلى، ويقدرنى على الكتابة، فسوف أكتب لنهضة المسلمين.

- يعتز باللقب الذى أطلقته عليه مجلة الأزهر من أنه: الكاتب الإسلامى.

رسالة إلى المجاهد:

بعد هذا التعريف الذى نشر فى مجلة الأزهر، عدد جمادى الأولى عام ١٣٩٩هـ، عقب عرض لكتابه: وصيتى وإيمانى، أقول كلمة للتاريخ: فعند إخراج هذا الكتاب فى طبعته الأولى عام ١٩٧٩م، قلت فى نفسى: إن الأستاذ أحمد حسين ما زال حياً يرزق، وبالتأكيد فهو لم يطلع على ما كتبه المرحوم فضيلة الدكتور سيد أحمد المسير، ومن الأمانة العلمية أن أضع هذا الرد أمامه ليقول كلمته، ولكن كيف أتصل بالأستاذ أحمد حسين؟.

هنا يسر الله الأحوال، وطرات على ذهنى فكرة، إن الأستاذ أحمد حسين يكتب مقالاً شهرياً فى مجلة «منبر الإسلام» فى تفسير القرآن الكريم، وإن رئيس التحرير حيثئذ هو الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى، وهو أستاذ معنا فى كلية أصول الدين بالقاهرة، فلماذا لا أرسل له الكتاب عن طريقه؟!.

فعرضت الفكرة على الأستاذ عبد المعطى بيومى، فرحب بها، وحملته أمانة توصيل الكتاب ورسالة خطية منى إلى الأستاذ أحمد حسين.

وقد أخبرني الدكتور رئيس التحرير أنه عند عرض الموضوع على أسرة التحرير فى مجلة «منبر الإسلام» اعترض البعض على إرسال الكتاب والخطاب إلى الأستاذ أحمد حسين، بدعوى أن الرجل مريض وفى آخر أيامه، ولا يصح أن نؤرق الرجل أكثر مما هو فيه.

فرد الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى قائلاً: لأن نصصح للرجل عقيدته، ويلقى الله على عقيدة صحيحة، خير من أن ندعه هكذا. وفعلاً، وكما أخبرني الدكتور عبد المعطى بيومى، فقد أرسل إليه الكتاب والخطاب، وهذا هو نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ المجاهد الكبير أحمد حسين، السلام عليكم ورحمة الله، وبعد: فأستأذن سيادتكم فى الكتابة إليكم رغم عدم سابق معرفتنا، ولكن رابطة الإسلام أقوى، وواجب التواصل بالحق هو الذى يمنحنى الإذن العام فى مراسلتكم. وفى البداية فإنى أحيى فيكم جهادكم الطويل المتواصل، وأشكر لكم توجيهاتكم السديدة لجيل اليوم، ونصائحكم الرشيدة لحكام الوطن، وأدعو الله لكم بالصحة، وتمام العافية، وحسن العواقب فى الأمور كلها.

هذا وقد كان السيد الوالد المرحوم فضيلة الدكتور سيد أحمد المسير أستاذاً للتفسير والحديث بكلية أصول الدين، وذات يوم اطلع على كتاب لسيادتكم هو «فى الإيمان والإسلام»، والكتاب فى مضمونه العام ومنهجه ثمرة طيبة، وغيره مشكورة، ولكنه اتخذ موقفاً من أهل الكتاب، رآه المرحوم والذى ونراه معه، مجانياً للصواب، وبعيداً عن منطق القرآن الكريم.

وقد أملى المرحوم والذى بعض التعليقات على هذا الموقف لطلاب العلم الذين تتلمذوا على يديه، وعندما انتقل إلى رحمة الله، رأيت أن من الوفاء لوالدى وللعلم أن أنشر مذكراته العلمية ليتنتفع بها المسلمون، وكان هذا الكتاب الذى أرسله اليوم لسيادتكم مع الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى.

رجاء أن تطلعوا عليه، وتفضلوا بكتابة تعليق أعدكم، إن شاء الله، بنشره فى الطبعة الثانية، حتى تتجلى الحقيقة.

والله يرفعكم ويسدد خطاكم، مع أطيب أمانى الصحة والسعادة، وكل عام وأنتم بخير.

٧ من المحرم عام ١٤٠٠ هـ
دكتور
محمد سيد أحمد المسير
٢٧ / ١١ / ١٩٧٩ م

رجوع إلى الحق:

انتظرت رداً من الأستاذ أحمد حسين، فلم يصل، ولعل عذراً منعه، ولكن الرجل، رحمه الله تعالى، وقد أصبح في ذمة التاريخ بعد وفاته في السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٨٢م، قد كتب رداً عاماً سجله في مجلة «منبر الإسلام»، أعلن فيه الرأي الصحيح والعقيدة الحققة في تفسير آيات القرآن الكريم التي كان قد أخطأ في فهمها، وأضع أمام القارئ نصاً لما سجله المرحوم الأستاذ أحمد حسين في مجلة «منبر الإسلام» في عدد جمادى الأولى سنة ١٤٠٠هـ، وفيه يقول:

وقد وهم أقوام، فتصوروا أن اليهود والنصارى سواء بسواء والمسلمين آمنوا بسيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، أم لم يؤمنوا، ما داموا يعملون الصالحات، ونقول: إن الإيمان بسيدنا محمد هو الشرط الأساسى لكمال الإيمان.

كذلك ما سجله في عدد رمضان سنة ١٤٠٠هـ، وفيه يقول: ويساوى ما تقدم من حيث الكفر بالله محاولة التفريق بين الرسل، فيقال على سبيل المثال: نؤمن بموسى أو بيسى، ولكننا نكفر بمحمد، فمثل هذا القول هو كفر صراح.

وبهذا يكون الرجل، رحمه الله تعالى، قد رد أبلغ رد على رسالتى إليه، ورجع إلى الحق الذى لقى الله عليه مؤمناً صادقاً.

من تفسير الأستاذ أحمد حسين:

أ - الدين والفترة^(١):

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

(١) نشر في مجلة منبر الإسلام، عدد جمادى الأولى سنة ١٤٠٠هـ.

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿ [الشورى: ١٣].

فالدين واحد، وهو لا يمكن أن يكون إلا كذلك، ما دام المصدر واحداً، وهو الله، والهدف منه واحد، وهو عبادة الله بعمل الصالحات فى هذه الدنيا، هذه الحقيقة الناصعة البسيطة هى ما يقررها الإسلام فى هذه الآية التى نحن بصددنا وفى غيرها من الآيات، فوعاها المسلمون كل الوعى، وجهلها أتباع اليهودية والنصرانية، ومن هنا يتفوق الإسلام على سائر الأديان، إذ يعترف بها كلها، ويلقن المسلمين أحسن ما فيها كلها وهو جوهرها، عبادة الله الواحد الأحد، والعمل الصالح فى الدنيا، ليتلقى الجزاء الحسن على ذلك فى الآخرة.

فشل الاستشراق والتبشير بين المسلمين: ومن هنا فشلت كل وسائل الاستشراق والتبشير فى تحويل مسلم واحد من الإسلام إلى النصرانية أو اليهودية، فالمسيح، وإبراهيم، وموسى، ويعقوب، وإسحاق، كل هؤلاء رسل الله، وحمة الوحي الإلهى، وأياً ما قاموا به من معجزات وخوارق، فقد فعلوه بإذن الله لخدمة الله.

لا يكمل إيمان اليهودى أو المسيحى إلا بإيمانه بمحمد: وقد وهم أقوام، فتصوروا أن اليهود والنصارى سواء بسواء والمسلمين، آمنوا بسيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، أم لم يؤمنوا، ما داموا يعملون الصالحات، ونقول: إن الإيمان بسيدنا محمد هو الشرط الأساسى لكمال الإيمان؛ لأنه إذا كان من المتصور عقلاً للملحدين الذين ينكرون الأديان جملة؛ لأنهم ينكرون الله، والوحي، والبعث، والحياة الأخرى، فإنه من غير المتصور أن ينكر مؤمن بكل هذا نبوة سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، والتى لم تخرج رسالته عن هذا الإطار.

ب - من غير المنطق الإيمان بالوحي ثم الكفر بمحمد^(١):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [النساء: ١٥٠]، لا يجب أن يبرح الذهن أن القرآن الكريم قد نزل فى المناسبات لمواقف معينة محددة، ومع ذلك، فإن آياته تظل تتحدث إلى أبد الأبدى عن أحداث عامة تتكرر على اختلاف الزمان والمكان، فهذه الآية على سبيل المثال، تتحدث عن يهود المدينة على زمن رسول الله ﷺ، فهم يزعمون أنهم يؤمنون

بالله وبموسى كنبى مرسل، ولكنهم لا يؤمنون برسالة سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، ولكن الآية صيغت بحيث تنطبق على كل زمان ومكان.

لا إيمان بالله بدون الإيمان برسله: فلا يمكن لزاعم أن يزعم أنه يؤمن بالله، ولكنه لا يؤمن برسله؛ لأن معنى الإيمان بالله، أنه هو الذى خلق الإنسان، وخلق له غاية، والرسل هم الذين عرفونا بهذه الغاية، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ويكون معنى عدم تحقيق هذه الغاية التى جاء بها الرسل، هو عدم الإيمان بالله، وإلا كان الإيمان بالله وعدمه سواء بسواء، فما جدوى إيمان لا يترتب عليه شىء على الإطلاق، وما أشنع من كفر أن نقول: أن الله قد خلق الخلق، ثم تركهم لشأنهم لا يعرفون ما يأمرهم به وما ينهاهم عنه، وهو ما لا نعرفه إلا عن طريق الرسل، فعبث وفسفطة، أن يقول قائل: أؤمن بالله، ولكنى لا أؤمن برسله، فأحدهما لازم للآخر، بحيث يزول بزواله، ولقد قلنا من قبل، ونقول: أن لا فكاك للإنسان، أى إنسان، من الإقرار بوجود قوة عظمى وراء هذا الكون، يسميها من لا يؤمنون بالله: الطبيعة، أو المادة، أو المادية الجدلية، فمن يؤمن بالله دون الإيمان برسله وما جاءوا به من تعاليم، فهم لا يزيدون عن كونهم أضافوا كلمة جديدة إلى جوار كلمات الطبيعة والمادة... إلخ.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، ويساوى ما تقدم من حيث الكفر بالله، محاولة التفريق بين الرسل، فيقال على سبيل المثال: نؤمن بموسى، أو بعيسى، ولكننا نكفر بمحمد، فمثل هذا القول هو كفر صراح.

كما سوف ينص القرآن فى الآية التالية، ذلك أن الإيمان برسول واحد يعنى الإيمان بالوحى، باعتباره الوسطة بين الله والإنسان، فإذا جاء إنسان يقول: إنه يوحى إليه، وكان ما يقول هو من نوع ما جاء به الرسول الأول، وأثبتت الأحداث أن كل ما قاله ويقوله هو صدق فى صدق، ومن فوقه ومن قبله صدق، فعلى أى أساس تنكر رسالته، إلا أن يكون إنكار الوحى، وبهذا نعود إلى الكفر بالله، وأنه يوحى إلى البشر.

سئل السيد المسيح: يا معلم، سيكون من بعدك أنبياء كذبة، فكيف نعرفهم؟ فكان جوابه: من ثمارهم تعرفونهم، فعندما يجىء سيدنا محمد ﷺ يدعو للتوحيد، ويحارب الوثنة والأصنام، ويعذب ويضطهد هو ومن اتبعه، فلا يزيدهم ذلك إلا إصراراً على

عبادة الله الواحد الأحد، وعندما يعرض الجاه، والسؤدد، والمال، والغنى فيرفض، فمن يكون الرسول إلا هذا، الحق أن الملاحدة الماديين عندما ينكرون كل شىء: الله، والرسول، والوحى، هم أكثر منطقاً من هؤلاء الذين يؤمنون بالله وبالوحى، ثم يكفرون برسول ينزل عليه الوحى من عند الله فعلاً.

تفوق الإسلام على سائر الأديان: ومن هنا قلنا من قبل، ونكرر تفوق المسلمين على سائر معتقى الأديان الأخرى، فهم يؤمنون بأن جوهر الديان واحد، والاختلاف لا يكون إلا فى التفاصيل، حيث ينسخ المتأخر المتقدم، ويقولون بقول القرآن، ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَلِّهِ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومعلوم أن هذه الآيات التى نحن بصدها قد جاءت فى سياق الحديث عن النفاق، وهو إظهار خلاف الباطن، والتربص لاستغلال الفرص والمناسبات.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠]: وهذا هو النفاق بعينه، والحديث هنا عن يهود المدينة، ولكنه صالح لكل زمان ومكان، كما قدمنا، فهم يريدون أن يقولوا لسيدنا محمد: أنهم يؤمنون بالله، وإبراهيم، وموسى، ويقولون للمشركين: أنهم يكفرون بمحمد، ولكن الله سبحانه وتعالى ينزل حكمه على هذا النوع من السلوك.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]: فهذا هو الكفر الصراح، إذ يعبر القرآن بكلمة ﴿حَقًّا﴾.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥١]: أى وأعدنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، ولقد ذكر لفظ الكافرين مرة ثانية؛ ليكون أمعن فى التوكيد وأشد ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾، أى أنه عذاب لا يقتصر على الناحية المادية، وهو الألم، بل إنه عذاب معنوى كذلك، إذ هو مهين، أى مذل من الإهانة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَلِّهِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢]: وفى مقابل اليهود والنصارى الذين زعم كل منهما أنه يؤمن برسوله فقط، يقوم المسلمون الذين يؤمنون بالله، وموسى، وعيسى، وإبراهيم... إلخ، وهذا ما يجعل الرسالة الإسلامية أشد تكاملاً، وأكثر منطقية، فمتى آمن إنسان بالله، وأنه يوحى لبعض عباده بمشيئته، فعلى أى أساس يكون الإيمان ببعض والإنكار على البعض الآخر إلا أن يكون التعصب الأعمى.

لماذا نقول بانتصار الإسلام: إن كثيرين يروننا نسرف في التفاؤل عندما نتحدث عن قرب انتصار الإسلام وغلبته على سائر الأديان، ومن يحسنون الظن بنا يتصورون أن ما نقوله هو من قبيل الأمانى، حيث نقرر ما نقرر باعتباره حقاً مؤكداً، ودليلنا الواقع والتجربة.

فقد جاء وقت لا يعرفه شباب الوقت الحاضر، أو حتى رجاله، كان التبشير بالمسيحية على أشده، وكان يقف خلف المبشرين الإمبراطورية الإنجليزية بكل جلالها، بل أوروبا كلها بكل نجاح حققته في القرن التاسع عشر، وكان رجل التبشير خريج أعظم جامعات أوروبا، وكل ما كان ينجح فيه هو زعزعة العقيدة الدينية من أساسها، ولكنه لا يكاد يتحدث عن المسيحية، وعن كون المسيح إلهاً، حتى يرد عليه أبسط مسلم: اسم الله عليك يا خواجة، سيدنا عيسى ده رسول الله وليس هو الله!!

وهكذا يتحول أبسط مسلم إلى معلم لخريج أكبر جامعات أوروبا، وهذا هو سر عظمة الإسلام.

فليقل المسيحيون عن معجزات سيدنا عيسى ما يقولون، إن المسلم لا ينكر شيئاً من ذلك، فالمسيح هو رسول الله، وقد زوّده الله بالقدرة على فعل ما فعل.

وليتكلم اليهود عن موسى بأعظم ما يتكلمون، فالمسلم يقول مثل قولهم، ومن هنا عاش المسيحيون واليهود في ظل الدولة الإسلامية، بل وازدهروا، حيث لا يستطيع المسلمون أن يعيشوا في ظل دولة غير إسلامية إلا إذا تناسى المجتمع شأن الدين، كما هو الحال في أوروبا وأمريكا، ولما كان ذلك يستحيل أن يدوم، إذ يستحيل قيام المجتمعات على غير دين.

ومن هنا قلنا: إن المستقبل للإسلام؛ لأنه يعترف بالأديان السماوية الأخرى، ولا تعترف هي به، فهو الأقوى والأصلح، وبالتالي هو الأبقى، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

فنحن لا نتكلم لغة التفاؤل فضلاً عن لغة التمنى، وإنما نتحدث العلم، وفوق ذلك نتحدث بما وعد به الله عز وجل.

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢]: وإعطاء الله الأجر للمحسنين في الآخرة، أى يوم القيامة، مسألة مؤكدة ومحقة، وهى محور الإيمان، ولكن الله سبحانه

وتعالى قد يعجل بعض هذا الأجر في الدنيا، ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

وهو ما فعله للمسلمين أيام نبهم وعقب أن غادرهم ليلحق بالرفيق الأعلى، حيث فتحوا الدنيا التي كانت معروفة فى ذلك الزمان، وعندما يعود المسلمون إلى سابق إيمانهم، فسوف يعودون لما كانوا عليه إن شاء الله.

رسالة إلى الرئيس الأمريكى كارتر:

ويبدو أن الأستاذ أحمد حسين أدرك خطأه حين سوى بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية الموجودتين الآن قبل أن أبعث إليه خطابى، فقد وجه رسالة إلى الرئيس الأمريكى كارتر، نشرها فى مجلة «الدعوة» العدد الرابع والعشرين، غرة جمادى الثانية سنة ١٣٩٨هـ، مايو سنة ١٩٧٨م، يدعوه فيها إلى الإسلام، ويقول له صراحة: أسلم تسلم، وإلا وقع عليك إثم الأمريكان جميعاً، واتهم المسيحية بالشرك والوثنية، وذهب إلى أن الخطيئة والفداء أسطورة كنسية، وقال: إذا كان موضوع المسيح هو هذه القصة، قصة الفداء والكفارة، فلماذا لم يصرح بها المسيح مرة واحدة لا عن قرب أو بعد، وترك الأمر للكنيسة لتصوغه بعد أربعة قرون، لتفرضه على الناس بقوة الحديد والنار ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ثم يتهم الأستاذ أحمد حسين النصارى فى عقولهم حين يقبلون عقيدة انتشار الخطيئة فى آدم وذريته، ويقول:

ولم يقف مسيحي واحد ليسأل نفسه، وما هو ذنب البشر منذ أيام آدم حتى مجيء المسيح، وهم مئات وألوف الملايين، حتى يحملوا خطيئة آدم مهما كانوا محسنين؟! ولم يسأل مسيحي واحد نفسه: وماذا كان الشأن بالنسبة للأنبياء والرسول قبل المسيح؟! ما هو الشأن بالنسبة لإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وكل الأنبياء الذين سبقوا السيد المسيح، أكل هؤلاء كانوا يعيشون فى الخطيئة باعتبارهم سابقين على عملية الكفارة!؟

ويواصل الأستاذ أحمد حسين، رحمه الله تعالى، بيانه للوثنية التى تسربت إلى العقيدة النصرانية، فيقول:

وقد فزعت المسيحية للكنيسة من القول بتعدد الآلهة، فاخترت لذلك تعبير الأقانيم

الثلاثة، وأنها مظاهر لله الواحد، وضربوا لذلك الأمثلة، ولكن مضمون هذه الأقانيم يدل على أن الذوات متباينة، فالقول على أنه فى يوم الدينونة يجلس الابن على يمين الأب لمحاكمة البشر ومحاسبتهم، أى أنه يوجد للابن دور خاص يقوم به، وتشخيص متميز يبدو عليه، وهكذا نرى أن حيلة الأب والابن والروح القدس، الكل إله واحد، لا تخرجنا من دائرة تعدد الآلهة الذى هو عقيدة وثنية، وأسطورة أوزوريس وإيزيس وهورس، هى عقيدة مصرية قديمة، وقد سادت عبادة إيزيس حوض البحر الأبيض المتوسط قبيل ظهور المسيحية.



الفصل الثانى

الأمثال فى القرآن الكريم^(١)

قال الله تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقال أيضاً فى محكم قرآنه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فى ضوء هذه الآيات البينات، وما ترسله من هدايات، سيكون الحديث والفهم لما تهدف إليه، وما تثيره فى النفس الإنسانية المسلمة من يقظات روحية، وإشراقات وجدانية، وما تغرسه فى العقل من هداية وتوجيه، وما توحى به من تعاليم هادية لخيرى الدنيا والآخرة.

لقد كان من فضل الله على عباده المؤمنين، أن عصم رسوله الأمين محمد بن عبد الله من كيد الكائدين، وتدبير المنافقين، وأذى المشركين فى كل المحاولات التى صنعوها، والمؤمرات التى حاكوها، والمعارك التى خاضوها؛ إطفاءً لنور الله، وصدأً للناس عن الهداية إلى دين الحق، كانت يد الله هى العليا، فحفظ رسوله، وشد أزره، ونصره على أعدائه، أعداء الحق، وحفظ رسالته، وصان وحيه وقرآنه من عبث العابثين، وتدبير الخائنين، فلم يلحقه تغيير أو تبديل كما لحق الكتب السماوية الأخرى، حفظ الله قرآنه من الضياع، والتحريف، والتشكيك، والافتراءات، بذلك الوعد القرآنى الذى نردده فى كل حين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولن يخلف الله وعده، فهو مصون بقدرته القاهرة؛ لأنه:

١ - كلام الله سبحانه وتعالى، وهو القادر وحده على حفظه.

٢ - الذكر الذى يعرض هذه القدرة فى ملكوت الله الواسع فى مظاهرها العديدة.

٣ - يعرض قصص السابقين من الأنبياء والرسل، وأنباء من سبقوا وجاهدوا فى الله حق جهاده، ودعوا إلى كلمة الحق فى العصور السابقة، وما كان لهم مع قومهم من صولات وجولات.

٤ - يعرض أيضاً ما لمحمد، عليه الصلاة والسلام، من مكانة ومنزلة عنده، وما لقومه من شأن فى مجالات التقوى والإيمان، ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فهو ذكر لا يتطرق إليه نسيان، ولا يلحقه نقصان.

لكل هذه الأمور استوجب وحى الله وقرآنه، الحفظ والصيانة من كل كيد يراد به، والنجاة من كل مكر على مر الأيام إلى يوم الدين، هذا بالإضافة إلى أن سبيل إلى التذكير بنعم الله على عباده الظاهرة والباطنة، والتذكير بطرق العبادة التى يجب أن يسلكها ويتبعها كل مؤمن بربه، وبما أوحى به من أمور فيها صلاحية للإنسان فى دنياه وأخراه، وتبيان للحق فى كل صورته ومجالاته.

فالقرآن من الله، ومعجزته الكبرى التى خص بها محمداً، عليه الصلاة والسلام، وأرسل بها إلى الإنسان لكى يرتفع بإنسانيته فوق شهوات الحياة، ويسمو بإمكاناته التى وهبه الله إياها إلى مرقى أعلى، ومستوى أفضل، بتوظيفها فى فهم الأمور، واستغلال الطاقات الفعالة التى خلقها الله فيه، من ذلك العقل الواعى، والعلم الذى ينير له طريق الهداية والرشاد.

المعجزات:

من وسائل توضيح الأفكار، وتبيان المعانى، أن يلجأ الكاتب، أو المتكلم، إلى استخدام المقارنات، والموازنات، والمقابلات، حتى يسهل الفهم، وتتضح الحقيقة، وتنجلي الغوامض فى الأفكار المطروحة، والآراء المعروضة، وبدون استخدام لذلك يصعب على القارئ أو السامع الإمام بالمراد، أو الفهم السريع لما يعرض من رأى أو فكر.

وقد درج الناس من قديم الزمن أن يعرفوا الشئ بنقيضه، فلا يحس الإنسان بقيمة الضياء والإشراق، وما يرسله من طمأنينة إلى النفس وراحة وهدوء، إلا إذا خيم عليه الظلام بكل ما يحويه من فزع، ورعب، وخوف، يعكر على النفس هدوءها، ويجعلها

تحس بما كانت تنعم به قبل ذلك من نعمة.

كما لا يحس الإنسان بقيمة ما ينعم به من صحة، وراحة نفس وجسد، ونعم أنعم الله بها عليه، إلا إذا ألت به تلك المتاعب الصحية والجسدية التى تصيبه فى عضو من أعضائه، فتمنعه الحركة، أو تقعد به عن السعى فى سبيل العيش... إلخ ما هنالك من أمور متناقضة ومتقابلة تحمل فى طياتها غموضاً أو تعميماً.

ونحن فى معرض كلامنا عن المعجزات، إنما نقصد إلى تجلية الحقائق، وإبراز الحكمة الإلهية من وراء استعراض تلك المعونات الكبرى التى منحها الله جل فى علاه لأوليائه الصالحين المخلصين، وعباده المرسلين، وأنبيائه المصطفين على مر العصور وما كان لذلك من أثر فى الهداية والإرشاد للأقوام السابقين، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تلك المعجزة الخاتمة الكبرى، وهى معجزة القرآن الكريم.

فما المقصود بالمعجزة؟

وكما يفهم من اسمها، فهى أمر خلقه الله تعالى بقدرته القاهرة، لا تستطيع قدرة البشر على إحداثه، كما لا يمكن لقواهم الجسدية، والعقلية، والروحية، أن تفعله أو تحدثه، فليس بمستطاع إبراهيم، عليه السلام، أن يمنع النار من الإحراق، كما لا يستطيع موسى، عليه السلام، أن يجعل العصا ثعباناً مبيناً يلتقط ما فعل سحرة فرعون، وليس بإمكان عيسى، عليه السلام، أن يحيى الموتى، أو أن يرى الأكمه والأبرص.

ولكن الله جلت قدرته منح هؤلاء العباد قوة من عنده، تجعلهم يقدرون على إحداث ذلك أمام الناس الذين يشعرون بالعجز أمام تلك القوى، يمنح الله هؤلاء العباد والرسول تلك الخوارق والمعجزات تأييداً لهم، وتصديقاً لما أتوا به من رسالة، ولا يستطيع البشر أن يأتوا بمثل هذا الأمر الخارق للعادة؛ لأنه بقدره الله جرى على أيديهم.

ويرى ابن خلدون فى مقدمته، أن الرسول يحمل إلى قومه أمرين:

١ - شريعة يوحى بها إليه، ويدعو الناس إلى اتباعها.

٢ - معجزة بين يدي هذا الموحى به تشهد له بأنه رسول من عند الله، وأنه صادق فيما يتلقاه، فلا ينظر قومه فى دعوته قبل أن يقيم لهم الحجة على أنه رسول من عند الله إليهم، وذلك مما يظهره الله على يديه من المعجزات المادية والمحسوسة.

وإذا نظرنا إلى دعوة إبراهيم، عليه السلام، وصفه التى حملت شريعته، وجدناها تختلف عن معجزة النار ونجاته من إحراقها، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، بالنسبة لعىسى، عليه السلام، تختلف عن شريعته إلى نبى إسرائيل من دعوة للإيمان بالله الواحد، وإتمام رسالة موسى، عليه السلام، فالخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى، إلا معجزة القرآن الكرىم، فهى الوحى المدعى، وهو الخارق المعجز الذى تشاهده فى عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له مع الوحى، كما هو الشأن فى سائر المعجزات.

خصائص المعجزات العامة:

اختلفت معجزات الأنبياء تبعاً لاختلاف أقوامهم وأزمانهم، وما لهؤلاء القوم من نزعات ورغبات، وما يشتهر بينهم من أمور، وما يلف حياتهم من عقائد واتجاهات، وما يتفشى بينهم من أمراض نفسية، وخلقية، وعقلية، فليس الناس جميعاً على وتيرة واحدة، وخلق واحد، وتفكير واحد، وتبعاً لتلك المتغيرات فى النفوس، والأخلاق، والعادات، والاتجاهات، كانت حكمة الله العالم بهذه المتغيرات، أن تكون معجزاته متمشية مع ما يعج به المجتمع من أمور، وما يزخر به من عادات وعقائد تحتاج إلى إصلاح إوجاجها، وبتر صانعيها، والقضاء على الشيطان وأعدائه المفسدين فى الأرض.

ومع اختلاف هذه المعجزات بين نبى ونبى، فإنها تشترك فى خصائص عامة تشملها جميعاً بدءاً من إبراهيم، عليه السلام، إلى محمد خاتم الأنبياء والرسول، فمن هذه الخصائص:

١ - أنها من الله سبحانه وتعالى، أجراها على يدي أنبيائه ورسله إلى خلقه، شاهدة على صدق الرسول فى تبليغه عن ربه عزّ وجل، وإذا ثبت صدق الرسول فيما بلغ، كان ذلك مدخلاً إلى التصديق بالرسالة التى يحملها إلى الناس عن طريق الوحى، وهذه المعجزة لا تخضع لما تخضع له أمور الحياة من ارتباط الأسباب بالمسيبات، فإذا وجد السبب وجد المسبب، وإذا انتفى السبب انتفى المسبب، وإنما تخضع لخالق الأسباب والمسيبات، وهو الله سبحانه وتعالى، فهو القادر على أن يجريها على سنته، أو على نقيضه، كما حدث فى كثير من المعجزات الحسية، كمنع الإحراق للنار التى ألقى فيها

خليل الله إبراهيم، عليه السلام، بأمره سبحانه: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

٢ - أن تكون من جنس ما اشتهر بين الناس فى ذلك الوقت الذى وقعت فيه، ولهم بها إلف، ويمارسون نظائرها فى حياتهم، وما موقف موسى، عليه السلام، مع فرعون وآله إلا دليل على ذلك، فقد كان السحر والسحرة والكهنة وما يصنعون، وما لهم من سيطرة على الخاصة والعامة فى مصر، أدوات التأثير على القلوب، والعقول، والعقائد، حتى أن الجميع يخضع لآرائهم، فلا تُبَتُّ الأمور إلا باستشارتهم وتبعاً لما يأمر به.

جابه موسى، عليه السلام، هذه المواقف وهو يعلم تمام العلم أنه مؤيد من قبل الله بتلك الآية الكبرى التى تنجيه من فرعون وآله، حينما يقول له: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨] الآيات التى تعرض نموذجاً لموقف الباطل الزاهق أمام الحق الأبلج الذى يدمغه، ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨].

وموقف عيسى، عليه السلام، بين أولئك العلماء الذين اشتهروا بعلومهم، وما كانوا يصنعون من ألوان الطب والمعرفة، فكانت معجزته الكبرى: يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله.

ومعجزة محمد، عليه الصلاة والسلام، فيما أرسل به من قرآن كريم، مؤلف من حروف، وألفاظ، وكلمات، تقع فى أساليبهم، ومن جملة ما يتكلمون به وينطقون، ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

بان عجزهم، وظهر تهافتهم إزاء ما يلقى على أسماعهم، وما يقوله محمد لهم، وما يدعوهم إليه من تحدٍّ واضح، فكان منهم ذلك الاتجاه إلى لون آخر من الاتهامات التى لا تقف على قدمين، ولا يساندها دليل من عقل وفكر، من أنه اكتتب هذه الكلمات، فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً.

هذه عناصر مجمعة لتلك الخصائص التى تتميز بها تلك المعجزات التى كانت سنداً لرسول الله فى هداية أقوامهم، وتبصرتهم بما فيه صلاح الأمر من العقائد، والمعاملات، والعلاقات الاجتماعية والروحية التى تربط بين الناس، وكان لهذه المعجزات تأثيرها فى القوم ما بين مصدق بها ومكذب.

ويبقى علينا أن نعرض لتلك الفروق الواضحة بين هذه المعجزات، وهى فروق لا تدعو إلى المساس بما لها من مكانة وقيمة، فالله هو خالقها ومرسلها؛ لتكون هداية لمن وجهت إليهم، ومناسبة لأحوالهم، ولكن نعرضها لتوضيح حقائقها وما لها من حكمة جديرة بالتناول والتعريف.

واختلاف المعجزات بين الأنبياء لا يشعر باختلاف فى العقيدة التى أرسل بها الرسل، فالعقيدة واحدة فى جوهرها، ولا اختلاف بين المؤمنين فى كل عصر حيالها، فالإسلام هو دين كل مؤمن من لدن إبراهيم، عليه السلام، حتى خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهَى لِّلَّذى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فى دعاء إبراهيم، وفى قول عيسى، عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

عقائد واحدة، عبادة الله وحده، إيمان بالأصول العامة من بعث، وحساب، وجنة، ونار... إلخ. أما الشرائع، فهى التى تختلف من عصر إلى عصر، ومن قوم إلى قوم، وهى تحكم العلاقة بين الخالق والمخلوق: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، لذلك نجد ألواناً من الفروق والاختلاف تتضح فيما نعرضه من دراسة تقارنية قائمة على التحليل والموازنة بين مختلف الشرائع.

اختلاف المعجزات:

بالنظرة الفاحصة، والقراءة الواعية لتاريخ الأنبياء والرسل، وما ترك لنا من آثار وكتب سماوية، نستطيع أن نتبين أن اختلاف الشرائع أدى إلى اختلاف فى الوسائل والمعجزات التى أمد الله بها رسله، فقد كانت المعجزات السابقة على رسالة محمد بن عبد الله الخاتمة تبدو فى الآتى:

١ - أن معجزات موسى وعيسى، عليهما السلام، معجزات أمدهما الله بها فى مجابهة أقوام كافرين لا يستكفون أن يطلبوا من أنبيائهم أن يروا الله جهرة، وهم أولئك الذين آذوا رسل الله، وقتلوا من دعاهم إلى عبادة الله وحده، وهم بنو إسرائيل، جماعات صغيرة، لهم انتماءاتهم الأسرية والعصبية، ويشعرون بأنهم أفضل من بقية البشر، ويتميزون على من عداهم من بقية المخلوقات، لذلك كثر منهم العناد، والمحااجة، والكفر، فكان لا بد من معجزة خارقة للعادة تكون طريقاً إلى الإقناع والتدليل على

صدق الرسول الذى أرسل إليهم، معجزة موائمة لأحوالهم وما اشتهر بينهم من أمور، فكانت العصا التى تلقف ما صنع السحرة، وتبطل ما وصل إليه العلماء من أسرار، وسطوة على فرعون وآله، ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٩].

قال أيضاً: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وكذلك إذا نظرنا إلى آيات المسيح، عليه السلام، الذى أرسله الله إلى خراف بنى إسرائيل الضالة، وجدنا أن الله قد حباه بمعجزات مادية كثيرة مشاهدة بالآعين من تلك الجماعات الصغيرة التى أرسل إليها، فأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله.

وقال الله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكذلك معجزات سليمان، عليه السلام، وغيره من الأنبياء والرسل الذين أرسلوا إلى أقوام سابقين محدودى العدد، محصورين فى جماعات صغيرة من قوم صالح، وقوم هود... إلخ، تأتيهم معجزة تتفق مع طبيعة الرسالة، ولكنها قليلة النتائج فما يلبث القوم إلا أن يرجعوا إلى تكذيب رسلهم كما حدث مع قوم موسى وعيسى، عليهما السلام.

٢ - كذلك نرى من خصائص هذه المعجزات أنها تقع فى مكان واحد، يراها فيه أهل ذلك المكان فقط، وهى لذلك وقف على المشاهدين لها فقط، تنقرض بانقراض مشاهديها، كما تشاهد أيضاً فى لحظة من الزمن ثم تختفى، ولا يكون لها صفة الاستمرارية، وكلها معجزات مادية محسوسة قريبة من معارف ذلك العصر، وما اشتهر عند القوم من طب وعلوم.

معجزة القرآن الكريم:

هي معجزة قولية تشاهد بالبصر والبصيرة، تخاطب العقل والوجدان، ولا يقتصر الإيمان بها على من عاصرها، وإنما يستمر لمن أتى بعدها، وهي أيضاً لكل مخلوقات الله من إنس وجن، وصالحة لكل زمان ومكان، وخاتمة أيضاً لكل الرسالات السابقة، ومصدقة بكل ما جاء به الأنبياء السابقون، لذلك كانت رسالة عامة، جامعة، خاتمة.

ولكن ما خصائص هذه المعجزة؟ وما أوجه إعجازها؟

لو نظرنا إلى القرآن الكريم، لوجدناه معجزة قولية، أمد الله بها رسوله محمداً؛ ليهدى بها أصحاب البلاغة والفصاحة، والذين يعرفون أسرار الكلمة، وما توحى به استخدامات اللفظة، وما تهدى إليه استعمالات الأساليب، هذا بالإضافة إلى أنهم قوم لدّ في خصومتهم، مرونا على الجدال والخصام، وبرعوا في تطويع الكلمات لأغراضهم وأفهامهم، ونجحوا في فنون القول من شعر، وحكمة، ومثل، ونثر، ولهم في ذلك مجالات خصبة استوجبوا لأنفسهم بها زعامة القوم من بدو وحاضرة، والتقدير الأدبي في أسواقهم الأدبية التي كانت تعقد في مواسم الحج وغيرها، وتجمع كل الناس الذين ينطقون الضاد بين صفوفها ليتذوقوا الكلمة، وما تتركه في وجدانات الناس من تأثير، وفي عقولهم من تغيير، وما تثيره من اتجاهات وعقائد، واختيار السبل التي تعالج الأوضاع الاجتماعية، والروحية، والاقتصادية.

لذلك كان التحدي بهذه المعجزة القولية سافراً أمام القوم في كل ناد ومجتمع، يقرع آذانهم بلفظه، ومعانيه، وطرائقه، وأساليبه، فيبهتون، ولا يستطيعون تصرفاً في قول، أو محاكاة في أسلوب، تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بأقصر سورة كذلك، ولكن هيهات أن تقف قدرة عاجزة قاصرة خاسرة أمام قدرة الله التي أوحى بهذا القول لرسول الله ﷺ.

فهذا القرآن شاهد على صدق الرسالة أولاً، فمن تدبر في آيات الله، وجد أنها من عند الله، لا تمت بصلة إلى بشر، وإذا ثبت ذلك، دل على صدق الرسول المبلغ به.

لقد أعلن أحد زعماء قريش، وهو الوليد بن المغيرة، عجزه حينما ذهب إلى محمد يعرض عليه تلك المغريات التي اعتقد أنها تستطيع أن تغير مسار دعوة محمد، أو تغريه بمظاهر الحياة كما تغرى أهل الدنيا، أو تفت في عضده، وتوهن من عزمه، فقرأ عليه

السلام قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، فما كان منه إلا أن رجع إلى قومه، وقال: والله لقد سمعت كلاماً ما هو بكلام الإنس، ولا بكلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى.

كلام زعيم من زعماء الرأى والمشورة والبيان، ويعرف محمداً فى نشأته وفى صباه، ويعرفه فى مراحل حياته معرفة سماع أو مخالطة فى بيئة ضيقة يتصل فيها المجتمع بعضه مع بعض، وتتقسم فيه العائلات والأسر وظائف الحياة التى يحتاج إليها المجتمع، فى ذلك المكان الذى هبأه الله لعبادته، وأرسى فيه القواعد أبو الأنبياء إبراهيم، عليه السلام؛ ليكون أول بيت لله فى الأرض لعبادته.

كانت للقرآن ولا تزال تلك المكانة العليا التى أرادها الله لكلمته الهادية، والتى عبرت عنها الآيات القرآنية فى وصف أثره فى نفوس المؤمنين به فى قوله تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفى آية أخرى: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

كتاب معجز يخاطب العقل والوجدان، ويرسل هدايته إلى كل جبل يتحدى بإعجازه الزمان والمكان؛ لأنه من لدن حكيم خبير.

وهذه المعجزة من جملة ما نطقت به الألسن، وما جرى فى الاستخدام اللغوى من حروف وألفاظ، ولكنها فى الذورة من البلاغة التى لم تعهد فى تراكيبهم الأسلوبية، ولم تتخلف هذه البلاغة، ولم تضعف هذه الفصاحة، بالرغم من كثرة سوره، وتكرار موضوعاته وأغراضه، واختلاف أساليبه وعباراته من إيجاز، وإطناب، وتقديم، وتأخير، حتى أن هؤلاء العرب وحذاق الكلام مع شدة عداوتهم للإسلام، لم يجدوا فيه مجالاً لطعن، بل قالوا: إنه ليس من جنس الخطب والشعر، وبدأوا ينسبونه إلى السحر مرة، وإلى أنه إفك مرة أخرى افتراه محمد، وأعانه عليه قوم آخرون، أو أساطير الأولين اكتتبها، فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً.

افتراءات واتهامات اتخذت طريقها إلى شخص الداعي، وهو الرسول، ولم تتجه إلى صلب القرآن الكريم وما به من إعجاز، لعلمهم اليقيني أنه ليس من كلام البشر، وليس في مقدورهم الإتيان بمثله، لذا كان من جانبهم التحذير لأنفسهم ولأصحابهم من الاستماع إليه، فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ومع شدة عداوتهم للرسول، وكفرهم بما جاء به، كانوا يتسابقون خفية إلى الاستماع لهذا القرآن، ثم إذا انكشف أمرهم، تعاهدوا على عدم الرجوع مرة ثانية، وكتمان هذا الأمر حتى لا يفتضح أمرهم أمام قريش.

كل هذا يدل على أن القرآن معجزة رسول الله العقلية ببلاغته، ووجوه إعجازه العديدة التي لا تقف عند لون معين، وطريق واحد، وقد عجز العرب عن الإتيان بمثله، ولكن أخذتهم العزة بالإثم، إذ كيف يخضعون لمحمد، ويتركون دين الآباء والأجداد، ويعبدون الواحد الأحد، ويتنازلون عما لهم من كبرياء؟ دفعهم ذلك كله إلى أن يقفوا من رسول الله موقف المحاربة والقتال؛ للصد عن سبيل الله، وقد يعرضهم ذلك إلى سبى نساءهم وأطفالهم، وقتل الرجال منهم، وبذل المال الكثير في سبيل المعارك، وإعداد العدة لقتال المسلمين.

لماذا اختار العرب المشركون موقف المحاربة من محمد؟ اختاروا هذا الطريق، مع ما فيه من تضحية ودم ومال؛ لأنهم أنفوا أن يقروا بعجزهم أمام تحدى الرسول ﷺ لهم في كل وقت وحين بهذه الآيات القوية في دلالاتها: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولو كان هؤلاء الكفار من قريش وأتباعهم يظنون أن محمداً يستعين بغيره من القارئين والأحبار والرهبان، لأمكنهم أيضاً أن يلجأوا إليهم ويستعينوا بهم، فلما لم يفعلوا ذلك، وآثروا أن يقفوا من محمد موقف المحاربة والنزاع، دل ذلك على أن القرآن معجز، وأن بلاغته ووجوه إعجازه عديدة، لا تقف عند حصر، فلا يستطيعون لها تقليداً، ويعجزون عن معارضتها.

الأسلوب القرآنى وتأثيره:

أتى القرآن الكريم بأسلوب معجز، متميز عن بقية الأساليب المألوفة فى وقته؛ لأنه من الله، فبهر الناس حينما سمعته، وأسر منهم القلوب، وسيطر على نفوسهم، فاستجابت الأفتدة إليه، ولم تنأ عنه إلا تلك القلوب المريضة التى قست كالحجارة، فلم تستجب لدعوته، ورسدت نفسها لمحاربتة والوقوف أمام دعوته فى الهداية للحق؛ حفاظاً على ما لهم من سلطة، ودفاعاً عن تقاليدهم العفنة، وعباداتهم الباطلة، حاربوا القرآن بمحاربة رسول الله ﷺ، فأخذوا يكيلون إليه التهم الباطلة، ويلفقون الأكاذيب، ويمنعون الناس من الاستماع إليه، ويعذبون من يتلو القرآن من صحابة رسول الله فى المسجد الحرام، سلكوا هذه المسالك؛ لأنهم عجزوا عن محاكاة القرآن، أو الإتيان بمثل أقصر سورة فيه، وتهاوت أسلحتهم العديدة أمام هذا الكلام المعجز بلفظه وعباراته، وسبكه وصياغته، وأخباره ونواهيته... إلخ، كل هذه الألوان المؤلفة من جنس ما يقولون ويؤلفون، ولكنهم عاجزون أن يأتوا بمثله، وهو الذى سمعته الجن، فقالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢].

وسمعه نفر من النصارى، فخشعت له قلوبهم وقالوا، كما عبر القرآن الكريم: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

وسمعه زعيم من زعماء قريش، فقال: إنه يعلو ولا يعلى عليه. نطق بالشهادة الحق فى قرآن الله الذى كان له وقعه فى القلوب والنفوس، فكان يقتلع منها عقيدة الشرك وهجمة الباطل.

وما لنا لا نذكر ذلك الموقف الذى كان له تأثيره فى مجرى الأحداث فى بدء الإسلام، فأمد الإسلام بجبار الجاهلية عمر بن الخطاب، رضى الله عنه وأرضاه، لقد دخل على أخته حينما سمع بإسلامها يريد أن يبطش بها، وتناولت عيناه صحيفة القرآن، فقرأ: ﴿ طه مَا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَى تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ [طه: ١ - ٦]، فأخذته رجة عنيفة أصابت مكمم الحقيقة من نفسه، وقلبه، وعقله، فقال: دلونى على محمد.

موقف تعجز مؤثرات الحياة ومغرياتها أن تحول تلك الطاقة من نقيض إلى نقيض، من جاهلية، إلى إسلام، من شدة بغض، إلى تفان في حب، من جبار في الجاهلية، إلى عادل في الإسلام، كل ذلك فعلته تلك الآيات القرآنية التي جمعت بين الأسلوب الإنشائي في النداء بكلمة: ﴿طه﴾، وبين الإخبار بالنعم الجليلة التي أسبغها الله على عبده محمد، وهي نعمة القرآن والإسلام، وما به من سعادة، والتذكرة لأصحاب القلوب التي تحشى الله، والإعلام بخالق الأرض والسماء، والجدير بالعبادة، والإيمان، والطاعة. كل ذلك كان سبيلاً إلى قلب عمر وعقله، فاستجاب لله، وكان سلاح الإسلام وعونه ضد الشرك وأعدائه.

موقف آخر يدل على تأثير القرآن في النفوس المتفتحة لقبول الدعوة والاستجابة لكل معروف، فقد أرسل رسول الله ﷺ أول معلم للقرآن إلى المدينة بعد أن دخل بعض أهلها في الإسلام، وهو مصعب بن عمير، فأخذ يعلمهم القرآن، وعلم بذلك سعد بن معاذ سيد الأوس، ففزع فزعاً شديداً، ورأى أن هذه بداية لشيء خطير يزلزل من مكانته، فقال لابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذا الرجل وتزجره؟! فلما ذهب إليه أسيد، قال له: ما جاء بك؟ وهدده، وقال له: اعتزل إن كان لك في نفسك حاجة، ولكن مصعباً أجابه في ثبات المؤمن، قائلاً: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره.

ثم أخذ مصعب يقرأ القرآن، وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتى أسلم، ثم ذهب إلى عمه، وقال له: ما رأيت بالرجل بأساً، فغضب سعد، وذهب إلى مصعب ثائراً، فاستقبله مصعب بمثل ما استقبل به أسيداً، وانتهى الأمر بإسلام سعد الذي ذهب إلى قبيلته وجمعها، وقال: ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، فقال سعد: كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا، فأسلموا جميعاً.

ويكفي أن هذه الآيات من كلام رب العالمين، الأمر بكل حسن، الزاجر عن كل معصية، الداعى إلى مكارم الأخلاق، الهادى إلى الصراط المستقيم، والمعجز بكل صورته وأشكاله الأسلوبية التي صيغ منها، فهو متنوع بين الأسلوب الخبري والإنشائي، والإيجاز والإطناب، والأسلوب المباشر، والأسلوب القصصي، والأسلوب المعتمد على الوصف، والأسلوب الحكمي، والأسلوب القائم على ضرب المثل، إلى اللفظ المعبر، والتعبير المصور والمشخص، كل هذا التنوع جاء في مقامه، ونجح في تحقيق أهدافه،

وكل هذه الأسرار الأسلوبية دفعت أصحاب البلاغة إلى تلمس معرفتها، والوصول إلى خفاياها.

ولما كان ليس فى مقدورنا الإحاطة بكل هذه الأساليب وتناولها بالدراسة؛ لضيق الحيز، ولصعوبة التناول، فإننا نستطيع بإذن الله أن نخلص من تلك الأساليب إلى ما هو أساس بحثنا، وعنوان مؤلفنا، وهو أسلوب الأمثال القرآنية، وطريقة تكوينها وأهدافها.

أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم:

أفاضت كتب التفسير قديمها وحديثها فى بيان أوجه الإعجاز القرآنى، وإنا لموجزون تلك الأوجه إتماماً للفائدة فى هذا المقام:

١ - لا تقتصر جوانب الإعجاز القرآنى على الجانب اللفظى وما به من فصاحة فى الأسلوب استحوذت على أفئدة أرباب الفصاحة من قديم الزمان وحديثه، ولا على بلاغة تراكيبه وما حوته جملة من طرائق عديدة فى التكوين، والتركيب، والتنويع^(١)، من جوانب لفظية شملت ما كان عند العرب سابقاً فى آدابهم من شعر، ونثر، وحكمة، وبيان، وإلا لكان ذلك قاصراً على من ينطق بهذه اللغة فقط، ولا يستطيع التأثير فى المخاطبين الذين يكلفون بأمر هذا الدين، ويستجيبون له من الأمم الأخرى.

ولذا فإن أمر الإعجاز يتعدى الجانب اللفظى، وفصاحته، وبلاغته، وسمو تراكيبه، إلى جوانب أخرى تشد انتباه الناس حقاً فى كل عصر، وفى كل مكان، ولذا توضع موضع الاهتمام والدراسة، وتحظى بكثير من التقدير والاحترام، ويمكننا أن نشير إلى بعضها فى الآتى.

٢ - حفل القرآن الكريم بأخبار السابقين والقرون السالفة التى هلكت، كما يحمل أخباراً مغيبة عن انتصارات وأحداث وقعت مثل فتح مكة، وانتصار الروم على الفرس.

٣ - كشفت آيات القرآن الكريم عن ألوان النفسيات التى يعج بها المجتمع فى قديم الزمان وحديثه، وبخاصة أهل النفاق، وما لهم من خصائص.

(١) واشتماله على جميع فنون البلاغة من ضروب التأكيد، أنواع التشبيه والتمثيل، وأصناف الاستعارة، حسن المطالع والمقاطع، حسن التواصل، التقديم والتأخير، الوصل والفصل، إلى آخر ما هنالك.

٤ - ىمئل أيضاً القرآن الكرىم فى طباته منهجاً كاملاً يعالج الزمان والمكان، وىصلح من شأن العباد فىهما، وىصلح أمر الدنيا والآخرة بما ىجوبه من قىم وأوامر، وما ىضعه من تعالىم صالحة للتطبىق فى كل حىن: ﴿لَا ىَأْتِىهِ البَّاطِلُ مِنْ بَیْنِ ىَدَیْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِّنْ حَكِیْمٍ حَمِیدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

هذا قلیل من كثیر من جوانب الإعجاز القرآنى الذى تحدى به العرب و غیرهم من حىث المحتوى الذى أفحم المفكرىن على اختلاف العصور، فكىف ىتأى لىحمد ﷺ فى تلك الفترة القصىرة التى دعا فىها إلى الإسلام أن ىبتكر وتظهر هذه التشرىعات التى تناولت جمىع مجالات الحىاة سیاسىة، واقتصادىة، وتربوىة، وعقائدىة، وتشرىعىة، لا تقتصر على وقت معىن، أو تهتم بىجىل خاص، وإنما تصلح لجمىع الأزمان، والأمكنة، و لجمىع الأجىال التى تختلف فى تفكیرها، وعلومها، وقدراتها، بتلك الأحكام الضابطة لأمر الدنيا والآخرة جمىعاً لا تتغىر؛ لأنها من وضع العلىم الخبىر الحكىم.

مظاهر التیسىر فى القرآن:

١ - نسب الله سبىحانه وتعالى إلى ذاته القدسىة فضىلة التیسىر، فقال: ﴿وَلَقَدْ ىَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، وذلك للترغىب فى قبول ما ىأتى به من شرائع ىسودها الرفق، والرحمة، والیسر، وفى كثیر من مظاهر العبادات التى فرضت على الإنسان، فهو الرحىم بعباده، ولا ىكلف نفساً إلا وسعها.

٢ - كانت الحماىة من لدنه لقرآنه من التحرىف والتبذىل الذى لحق بالكتب التى أنزلت على موسى، وعىسى، وعلی نبىنا أفضل الصلاة وأزكى السلام، والحماىة له أيضاً من الضىاع بالنسیان والغفلة، فقد ىسر حفظه لكل راغب، وقراءته وتلاوته فى كل وقت لكل قاصد.

٣ - كان الرسول یتلوه، وىقرؤه، وىكرره مرات ومرات، فى لىله ونهاره، فى صلاته وسجداته، وىجب أن ىسمعه من غیره؛ تنشیطاً للهمم، وحفزاً لأصحابه، وإثارة للعلم والتعلیم فى نفوسهم.

٤ - بالإضافة إلى أنه ىطبىق القرآن فى حىاته كمنهج للحكم ىسیر علیه المؤمنون فى حىاتهم، وىحكم به المجتمع فى تألفه وارتباطاته، وتدعى إليه الأمم والشعوب الأخرى فى تعاملاتها وتعاقباتها، وتصاغ على هدى تعالیمه سیاسة الأمة الإسلامىة، وتحكم بمقتضاها شعوبها من قبل الحكام.

ألىس فى ذلك مظهر من مظاهر التیسىر للذكر والتذكر، والحفظ والانتفاع بالفهم

والاسترشاد؟. ذلك كان وعد الله لعباده المؤمنين ولرسوله الأمين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

بقى علينا أن نتعرف الغاية، وأن نعرف الحكمة، وأن نتبصر أمورنا فى الحياة بمختلف اتجاهاتها سلماً وحرماً، علماً وعملاً، عظة واعتباراً، تطبيقاً وإدراكاً، سلوكاً وفهماً، حكماً وسياسة.

هل من مذكر؟ سؤال يوقظ فى كل نفس معانى المعرفة، والإدراك، والفهم، والانتعاض بما حدث فى الماضى، والعمل على إصلاح الحاضر، والطموح لبناء المستقبل، دعوة موجهة للفرد، والجماعة، والأمة، كى يعى كل دوره، وإمكاناته، ومسئوليته فى معترك الحياة.

دعوة موجهة لتحمل الأمانة الكبرى التى أئيتت بأعناق كل من وقع تحت دائرة التكليف السماوى، أمانة الاختيار، وحرية الإرادة، والقدرة على تحمل المسئوليات، اختيار الإنسان الظالم لنفسه، الجاهل بحقيقة دوره ووضعه، تلك الأمانة التى عرضها الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أمانة ترينا الفرق بين مكلف ومكلف، بين السموات والأرض والجبال، وبين ذلك الإنسان القوى الضعيف صاحب الإرادة والاختيار، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

اقتضت النظرة الإلهية لهذا الإنسان الذى خلقه فى أحسن تقويم، وميزه على بقية المخلوقات بالعقل والتدبير، أن جعله محلاً لكرامته بالرسالات والكتب؛ ليحقق الحكمة من وجوده، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والخلافة تقتضى تعمير الكون على بصيرة من الأمر، والتكوين للذات الإنسانية، والتحمل للمسئوليات التى يترتب عليها الجزاء من ثواب وعقاب فى الدنيا، وكذلك

فى الحياة الأخرى التى تفرز الطيب والخبيث، وتحقق عدل الله لمن حرم هذا العدل فى دنياه، واستدامة حياة أخرى تليق بخليفة الله، الإنسان، عن بقية المخلوقات التى خلقت من أجله، وعاشت فى دنياه من كل ما خلق الله.

وهذا الأمر من تحقيق حكمة الوجود الإنسانى، والداخل فى علم الله الذى ينفرد به وحده، ويغيب عن مدركات مخلوقاته الأخرى، الملائكة التى أمرت بالسجود تنفيذاً لأمر الله، سيكمل ويتحقق ما دام خاضعاً للمنهج الإيمانى الذى حدده الله فى قوله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة التى يرضيها الله لعباده الذين خلقهم هى العبادة التى تنتج عن تفكير، وإرادة، وحرية، واختيار، وعلم، وبصر، والتى توجب الامتياز والتفضيل عن بقية المخلوقات التى لا تملك هذه الوسائل، ولا تستطيع الحصول عليها بحكم تكوينها وإمكاناتها، وإن كان ما خلق الله جميعه من أرض، وسماء، ونبات، وحيوان، وطير، تشترك جميعها فى عبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد، تعبد الله وتؤدى دورها فى الحياة أداء طاعة وتسخير لما خلقت من أجله، وبما يتناسب مع خصائصها وذواتها، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٥ - ومن مظاهر التيسير التى كتبها الله لقرآنه، أنه قد حفظ بالكتابة والطباعة على مدى العصور، فقد سخر الله الإنسان حتى من لم يؤمن به، لكى يشترك فى أمر المحافظة عليه، وذلك أنه أخذ صفة العالمية فى وقتنا الحاضر، فالفن بكل إبداعاته يتجه إلى إخراجه فى أبهى صورة له فى أنحاء العالم، مؤمنه وكافره، وتتسابق إلى ذلك دور الطباعة والنشر فى سبيل إخراجه وإبرازه على الوجه الأكمل الذى يحفظه من التصحيف والضياع.

٦ - ومن فضل الله علينا وعلى الناس، أن سهل حفظه على الناشئة فى صغرهم، ويسر نطقه وقراءته على تلك البراعم الصغيرة التى ترغب فى تعليمه وحفظه، فهم عن طريق التلقين يستمعون ويكررون القول، وينطقون الآيات والحروف تبعاً لما يسمعون، ويعلق هذا بأذهانهم حتى على غير الناطقين باللغة العربية.

والإنسان يأخذه العجب، وتتملكه الدهشة، حينما يسمع إلى قارئ القرآن ينطق الآيات نطقاً سليماً يدل على حبٍّ شديد لما يقرأ، حبٌّ يملك عليه نفسه وقلبه، فإذا

تقرب منه وتعرف عليه من خلال لغته، ولهجته، وزيه، وشكله، رآه باكستانياً، أو هندياً، أو تركيا... إلخ، لغته غير العربية، ومع ذلك فالنطق، والاستماع، والفهم، والقراءة لتلك الآيات البينات التى أوحاها الله لنبيه، عليه السلام، يدل على أن الله جلت قدرته قد حفظ هذه الآيات، ويسرها للذكر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فقارئه لا يسأمه، وسامعه لا يمججه، بل تكرراره يوجب زيادة محبته.

٧ - وكما يسر الله قراءته على الناس، يسر علمه على قلوب قوم، ويسر فهمه على قلوب آخرين، فكان من الدراسات التى تفرّعت عنه ما أحاط بالحياة وما فيها من حاجيات النفوس، وما يتتابها من مشكلات، ولقد استطاع الفقهاء والعلماء والباحثون فى شتى المجالات، أن يستخرجوا من كنوز هذا القرآن المحفوظ من رب العالمين ما يعالج أدواء الحياة التى تخنقها الأزمان، فأبانوا عن شريعة الله التى يسودها اليسر، والرفق، والرحمة، والتى يسهل على الناس قبولها، وعلى العقول فهمها، وعلى الجميع تطبيقها والعمل بها، متى تم لهم الإيمان، وقوى اليقين.

٨ - ولقد عرفت الأمم والشعوب ما فى هذا الكتاب المنزل من قبل السماء من دعوة للحق، وشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وإيمان بالله، فبدأ الانكباب على دراسته، ومعرفة أسرارها، والإلمام بجميع جوانبه، حتى كثرت ترجمة معانية إلى لغات أجنبية عديدة، وتواترت الأخبار أن ترجمة معانى القرآن الكريم إلى لغات الشعوب الظامنة إلى معرفة الإسلام، واعتناق هذا الدين، وصلت إلى سبعمائة لغة، وهذا من فضل الله منزله، فقد كتب له الحفظ فى الصدور، والاستمسك به فى العمل، والحماية من التبديل والتحريف، والحماية من عبث العابثين، وحقد الحاقدين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّمْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

فإنه قد كتب التيسير على نفسه والحفظ لكتابه بهذه الأساليب المؤكدة التى تنزع ما يلحق بالنفس من عدم قدرتها على الإحاطة بهذا الكتاب، وحفظه، وفهمه، وإدراك ما فى جوانبه من أمور فيها صلاح الحياة والبشر، والحاضر والمستقبل، وفى ذلك رد على الذين نصبوا أنفسهم للتربية وتعليم شباب الأمة، وعملوا على أن يساعدوا بين الناشئة وحفظ القرآن الكريم، بدعوى أن الحفظ يلغى ملكة التفكير، ويقعد بالطفل عن الفهم واستغلال الإمكانيات فى البحث والإدراك.

ولو علم هؤلاء أن طريق التجربة خير طريق، وخير دليل لإثبات صدق ما يعرض من قضايا، والحكم عليها بالصلاحيية وعدمها، لما احتاجوا إلى تذكرة بتلك التجارب التى مرت بها شعوبنا الإسلامية فى مراحل طفولتها، وتربية شبابها أيام أن كانوا فى حضن مدرسة محمد ﷺ، وفى أيام عزة الإسلام ومنعته، كانت التربية القرآنية من حفظ، وفهم، وتطبيق، الشعلة التى أضاءت لهم طريق الحياة، فخرَّجت صحابة وتابعين، فرساناً بالنهار، وعباداً بالليل، يحاربون من أجل كلمة الله، ونشر كلمة الإسلام، والصد لهجمات الكفار الشرسة أيام الرسول وصحابته، وأيام الصليبيين والتتار، لولا هؤلاء الحفظة وما تفعله فىهم تلك الآيات البينات من الأثر النفسى والعقدى من طلب للاستشهاد فى سبيل الله، ما كان للإسلام بقاء، ولا للدين وجود.

وإننا لنذكر تلك الغزوة الشهيرة التى تلاقت فيها تلك الجموع الغفيرة من أعداء كلمة الله بقضها وقضيضها، وأسلحتها وعتادها، مع تلك الفئة التى أخلصت لله وحده، وحملت لواء الإسلام عقيدة وسلاحاً، وكان الصراع شديداً، والهجمة قاسية من الأعداء على صفوف المسلمين، حتى تراجع منصفهم الصفوف، وزلزلت القلوب، وكادت الدائرة تكون عليهم، لولا أن قام القائد المسلم المناضل بتذكر ما يجب أن يتذكره فى موقفه من الله، ومن دفاعه عن كلمة الله، فنادى فى أصحابه: يا أصحاب سورة البقرة، النداء للقرآن، ومن أجل القرآن، فرجعوا جميعاً إلى حومة القتال، وكان الله منزل القرآن معهم، فكان النصر المبين.

دعوات هدامة:

وإذا كانت الدول الحاضرة، الغنية بمواردها، والحافلة بعلمائها، والمتقدمة فى مجتمعاتها، والسبابة إلى أجواز الفضاء بسفنها ومراكبها، قد اهتمت بلغاتها، وأخذت منها سبيلاً إلى فرض سيطرتها على غيرها من الشعوب والأمم، فاختارت من نماذجها البشرية المتفوقة فى الشعر والأدب ما تجعله محط أنظار أطفالها وشبابها فى مراحل تكوينهم اللغوى والأدبى، وذلك باختيار ما تراه من نماذجهم الشعرية والنثرية للدراسة والفهم والمحاكاة.

إذا كانت هذه الدول تنحو هذا النحو، أفلا نستطيع أن نقدم لأبنائنا ذلك الأنموذج الأمثل الذى جعله الله سبحانه وتعالى نوراً وهدى للقلوب والعقول فى بداية ما يتمثله الأبناء من قول وعمل؟.

وإذا كانت لقمة العيش والعمل من أجل الحياة والتغلب على أزماتها وصعابها، وظروفها الاقتصادية، قد أدت إلى لون من التقارب بين أمم وشعوب قد اختلفت فى مذاهبها، وتباينت فى لغاتها وأنظمتها السياسية والاجتماعية، كما يحدث الآن فى أوروبا، أفلا نملك نحن أمة القرآن أن نجعل هذا القرآن طريق اتصال لغوى وفكرى وعقدى بين هذه الشعوب التى حباها الله بالإسلام ديناً، وبالقرآن دستوراً؟

إن الاتصال اللغوى هو الطريق إلى الاتصال الفكرى، وإذا توحدت اللغة، وتقاربت الأفكار، كان ذلك أدعى إلى تحقيق وحدة قوية بين الأفراد والمجتمعات والأمم، وإننا نستطيع أن ندرك بعد أن اتضحت النوايا، وتكشفت أساليب الحياة التى تمارسها القوى الكبرى، وتخضع لها الدول الصغرى فى تعاملاتها السياسية والاقتصادية، أن شرماً ما يبتلى به مجتمع مسلم أن يخرج إنسان إلى مجالات الحياة، وأن يتخرج من مراحل التعليم ولا يستطيع أن يقرأ سورة من السور القصار، ولا أقول: يحفظها أو يفهمها.

إن تلك الدعوى القائمة على الاهتمام بالعقل ونموه وإدراكه، وإهمال جانب الحفظ، إنما هى دعوى هزيلة مريضة تضيع شخصية الأمة، وتقوِّض لغتها التى اختصت بها، ولم يدفع إلى تلك الفكرة إلا ما يحتجىء وراءها من رواسب التأثير الفكرى المتشعب بالتيارات الغربية والأجنبية التى حكمت عقولنا وأفهامنا ردحاً طويلاً من الزمن.

ومن عجب أن نجد هذه الدعاوى أنصاراً ومؤيدين بين صفوفنا، علماً بأن دعواتها لا يذهبون فى كتاباتهم وأساليبهم مذاهب التحرر من اللغة واستخدام كلماتها، والتحرر من قواعدها، والميل إلى التبسط فى الألفاظ، والتساهل فى الضوابط التى تحكم شعرهم ونثرهم.

نراهم مع تلك الدعاوى التى يطلقونها، شديدي المحافظة على الأطر التى تعلموها فى مراحل التعليم، ولهم من أساليبهم المميزة التى تثير عند قارئها هزة وعجباً، مما يدل على اعتنائهم فى صغرهم بحفظ القرآن الكريم، واهتمام بطريقته فى صياغة الأساليب المتباينة من خبر إلى إنشاء، وإيجاز، وإطناب، وتقديم وتأخير... إلخ، بل ونرى بعضهم يصل بأسلوبه الذى خص به إلى درجة تتشابه مع أولئك الأدباء فى العصر الأموى والعباسى.

فهذا الارتباط الفكرى والعقلى مما يدل على شدة الإعجاب الذى سيطر على ذلك

الكاتب أو الشاعر، فسار به إلى هذا المنحى والأسلوب، فما يصدر عنه من دعوى إلى التساهل فى اللغة، وعدم الارتباط بقواعدها وقوانينها، واستخدام العامية فى التعليم، وعدم الحفظ والاهتمام بتعليم القرآن، إنما هى أمور دفعت إليها ظروف تعليمهم وتربيتهم التى ربوا عليها وشجعتهم على خدمة أغراضها الاستعمارية التى كانت سائدة، أو تحقيق مصالح فئوية أو طائفية لها ظروفها وأغراضها، لذا لم تجد أمامها تلك التربة التى تحفظ لهم ما بذروا، ولم تستجب لرجواتهم فى الإثمار لتلك الأفكار المدسوسة والخبيثة، ما لبثت أن ماتت فى مهدها وظهرت أفكار طاهرة أخرى ربطت الماضى بالحاضر، واستعلت على كل أزماتها واستغلت كل إمكاناتها فى الخبرات المتجددة، والنور الذى أفاء الله به على عباده المخلصين فى استلهام نور الله، وقرآنه فى خطوات الحياة التى يجب أن يجيهاها المسلم الآن.

إن تجربتنا فى حفظ القرآن الكريم فى مرحلة الطفولة، تجربة دفعت إليها حكمة الآباء، ورغبتهم فى تقويم الألسنة، وإصلاح الأخلاق، والتهيئة لاستقبال أمور الحياة بسلاح قوى.

وكان الخطباء أصدقاء للمنابر، يعتلون منصتها، ويتدفقون كالسيل المنهمر فصاحة وأسلوباً مما يعد أنموذجاً رائعاً للبيان العربى القويم الذى طبع بالطابع القرآنى استشهاداً وتمثلاً واقتباساً.

وبهذا الطريق وحده حفظت بلادنا من محو شخصيتها الإسلامية العربية تحت تأثير الألوان من الاستعمار التى جثمت على صدورنا فترة طويلة من الزمن، الاستعمار الثقافى بتأثيره وسحره فى النفوس والعقول، والاستعمار السياسى والاقتصادى يجبروته وسطوته التى هيمنت على مختلف شئوننا الاقتصادية والعسكرية.

وإننا إذا نظرنا إلى واقع بلاد عربية أخرى تعرضت لظروف مماثلة لما تعرضنا له فى أفريقيا، رأينا أن الاستعمار الفرنسى استطاع أن يثبت أقدامه فترة طويلة من الزمن حتى كاد ينجح فى محو شخصية هذه البلاد التى تحكم فيها من جرأً سيطرته أساساً على لغة البلاد، وفرض لغته الفرنسية لغة حديث، ومخاطبة، وتعليم، وتضاءلت بذلك الاهتمامات باللغة العربية، وبالتالي حفظ القرآن الكريم، مما مكن ذلك المستعمر من خلق أجيال غربية اللسان واللهجة والثقافة، وطبعت بعادات بعيدة كل البعد عن عادات وأخلاق المجتمعات العربية.

وكانت هذه التحولات حجر عثرة فى سبيل التغلب على هذا الاستعمار الذى لم يقتصر على الجانب العسكرى والسياسى، ولكنه قضى على شخصية هذا الشعب العربى بقضائه على لغته وأصالته، إلى أن عرف طريقه وبدأ يحس بالحاجة إلى عودته إلى اللغة الأم، اللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

أما مصر، فقد استطاعت أن تخرج من هذا الفخ الذى نصب لها بفعل عوامل عديدة، كان من أبرزها وجود الأزهر الشريف، الذى كان له من تأثيره الدينى واللغوى ما يعد صمام أمان، وحماية للغة العربية من الضياع والضعف، وصيانة للألسنة من تغلب العامية، واللهجات المحلية من السيطرة والتغلب على لغة الحديث والكتابة، وبالتالي لم يسمح للغة الأجنبية أن تزحزح اللغة العربية عن مكانها ومكانتها التى لها فى النفوس، والتربية والتعليم.

وها نحن الآن نرى مظاهر نشاطات لتلك الأجهزة المهيمنة على أمور التعليم والثقيف، والدعوة الإسلامية فى الاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم، وعقد الحلقات التى يشترك فيها الكثير من الأطفال والشباب، وعقد مسابقات يتبارى فيها الجميع فى مختلف المحافظات، والمدارس، والمساجد.

وهذه الصحوة المباركة، إنما هى إعداد للحياة الكريمة عن طريق القيم النبيلة التى يتلقاها الجميع من وراء الآيات القرآنية، والتعرف على أهدافها ومراميتها.

قد تكون هناك دعوات أخرى معارضة لهذه الاتجاهات، كما نشر أخيراً فى إحدى الصحف عن اعتراض أحد أولياء الأمور على تكليف أطفاله حفظ آيات من القرآن الكريم، وقد يكون فى ذلك ما يعارض عقيدتهم أو ما يؤثر فى تفكيرهم.

لقد تولى مواطن آخر يشترك معه فى العقيدة، الرد، فأنكر عليه قوله، وأعلمه بما لهذا التعليم والحفظ لآيات الله من آثار خلقية ولغوية فى مصلحة الطفل أن يتعلمهما، ويقتدى بتلك القيم التى تدعو إليها، فهى قيم مشتركة بين الأديان جميعها، لا تختلف من دين لآخر، ثم ضرب أمثلة عديدة من تاريخ زعماء ملكوا ناصية البيان، وأجادوا حفظ القرآن الكريم، ولم يكن ذلك بمخرج لهم عمّا هم فيه من اعتقاد، ولم يريد هذا الأب أن يخرج ابنه معوج اللسان، سقيم التعبير، لا يستطيع أن ينطق بجملة صحيحة فى بنائها وتركيبها؟ أيرضى أن يستقى أسلوبه وتعليمه من أساليب البشر، ولا يجب أن يأخذ ذلك من قرآن خالق البشر؟.

وأما الجانب الآخر، فهو ما يعرضه القرآن الكريم من هداية للخلق، والتبصرة بالأمر، والدعوة إلى معرفة الصالح من أمر العقيدة، والابتعاد عن تقليد الآباء والأجداد فى الفاسد من العمل، والقبیح من الأخلاق، وتنزيه الله الخالق الجدير بالعبادة والطاعة عن كل شوائب الشرك.

هذه أمور فاضت بها آيات القرآن الكريم فى كل سورة، وفى مطلع كل شمس، وفى كل لحظة حياة تنبت نبتة من فكر، وتظهر بارقة من أمل فى فهم جديد فى كل آيات الله الكونية والعقلية، حتى أن الإنسان ليحار ويعجب كيف استغلت هذه الأمور على أفهام العقلاء، وغابت عن أبصار الرائيين.

ألم يدع القرآن الكريم فى أول أمر له إلى القراءة: ﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

دعوة إلى القراءة الواعية فى صحف الوجود، وفى كتب العلم وأجلها القرآن، وبغيرها لا يهتدى الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يتعرف على خالقه، وربط القراءة بالقلم، وبخلق الإنسان وتطوره حتى يكون من ذلك معرفة حقيقية بالكون وخالقه ذى الجلال والإكرام، وربط العلم بالإيمان حتى يكون الإيمان قائماً على أساس سليم لا يهتز ولا يضطرب.

جاء الأمر الإلهى: ﴿ اقرأ ﴾ مرتبطاً بأساس التكوين الإنسانى من علقه إلى مُضغته، إلى إنسان سوى بعد أن كان من تراب، وفى ذلك دعوة للنظر إلى أيسر السبل على الإنسان للاهتداء والالتقاء مع النفس حتى يعرفها ويتأملها، ويبحث عن أصلها ووجودها.

قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال أيضاً: ﴿ أَكْفَرْتُمْ بِالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧].

دعوات إلى التفكير، واستخدام العقل؛ لأنه مبدأ العلم، وطريق الحياة، وساق الآيات العديدة إلى أولئك الذين يعقلون ويفكرون؛ لأنهم يهتدون وينتفعون، ويرتقون بإنسانيتهم إلى مستوى راق بالفكر، والعلم، والعمل، لا بالمال، والتراث، والثراء. بكل

تلك القيم النبيلة التى تُعلَى من شأن الإنسان كإنسان، فيرتفع فوق شهوات نفسه، ورغباته، وأطماعه.

ومع الدعوة إلى العلم، واستخدام العقل والفكر، تأتي الدعوة أيضاً إلى استغلال المفيد من التجارب، والأحداث التى مرت، والسنن التى وقعت، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

العالمون الذين وصلوا إلى النتائج الصحيحة من مقدماتها باستخدام عقولهم، وربطوا بين الأسباب والمسببات، وعرفوا حقائق الأمور بفهم السنن التى تحكمها، وكيف جرت هذه السنن كما أرادها لها خالقها فى الكون الواسع العريض، بأرضه وسماؤه، وأفلاكه وبجاره، وفى حياة مخلوقاته، من نبات، وشجر، ودواب، وحشرات، وطيور، وأسماك، وإنس، وجان.

كل ذلك خضع لتلك المشيئة الإلهية التى حكمته وأجرته تبعاً لسنن لا تختلف ولا تتغير، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

يعرض القرآن كل ذلك فى تلك الصور والمشاهد التى تتسع لتوضيح المرئيات، وتصل إلى العقول والقلوب، فتجتث منها الأفكار السقيمة، وتقتلع منها النباتات الضارة من المعتقدات الفاسدة والأفكار الخيثة، وتغرس المبادئ السليمة، والقيم الصالحة فى تلك البيئات، والنفوس الجديدة التى استفادت بنور الله، واقتدت بهديه، وعرفت طريقها إلى الصالح من الأمر فسارت فيه، إلى غير ذلك من المشاهد الفسيحة فى تاريخ الأقسام السابقين، وبسط أحوالهم، وذكر ما حاق بهم من نتائج أعمالهم.

وقد تضيق هذه المشاهد، وتختصر تلك الصور فى كلمات موجزة بسيطة، تعرض الأمور على عقول تستطيع أن تلمح ما وراءها، وأن تسترشد بإيجاءاتها، وأن تفهم ما تقصد إليه، وعلى قلوب تحس باحتياجاتها إلى الهداية فى ليل الظلمة الحالكة، وفى دياجير الحياة الخافقة بالاعتقادات الفاسدة، والأوهام والأباطيل الملقية للعقل، والفكر، والإرادة، والاستقلالية.

كل ذلك يعرض فى كثير من الألوان الحكيمية، والمشاهد التى تعرض فى آيات الله وأمثاله، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الحاجة إلى علاج هذه الموضوعات:

النفس الإنسانية تواقه دائماً إلى ما يرضى حاجتها، ويشبع نهمها، فهى ظمئة إلى ذلك السلسيل من المدد الروحى الذى يفىض عليها بالراحة النفسية، والوجدانية، والعقلية.

وإذا كانت هذه النفس قد تعرضت فى أزمنتها السحيقة لكثير من ألوان المحن والابتلاءات، وصنوف من الفساد متعددة، حتى باعدت بينها وبين معرفة خالقها وموجدها، وانحرفت بها عن جادة الصواب بكثير من فعالها، وضلت السيل فى عبادتها، فلم يتركها الخالق سبحانه وتعالى تعيش فى ذلك الخواء الروحى والنفسى، بل أنعم عليها من فضله بأولئك الرسل الكرام الذين اصطفاهم من خلقه؛ ليكونوا أداة هداية، ودعاة نور لبني جنسهم وأقوامهم، يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويباعدون بينهم وبين عبادة تلك الأصنام التى تحول بينهم وبين معرفة الواحد الأحد، وبالتالي يدعونهم إلى النجاة من النار التى أعدها الله للكافرين الفجار.

عالج الأنبياء والرسل الكرام أوضاع هذه الحياة بوحي من الله فى كتب بين أيديهم، وآيات يبصرونهم بها، ومعجزات يجريها الله على أيديهم ويمدهم بها، لتكون سنداً لهم فى دعوتهم، فتقف أمامها سطوات الجبابة، وقوى البغى، عاجزة لا تستطيع لها دفعاً ولا صدأ؛ لأنها قدرة الله وعونه لعباده المؤمنين المخلصين.

مع هذه الآيات الموحى بها من قبل السماء، والآيات المرئية فى كون الله الواسع المحيط بالإنسان فى بره وبحره، وأرضه وسمائه، وكل ما يقع تحت حواسه المختلفة، ومع المعجزات التى تجرى على أيدي الرسل والأنبياء، جاء محمد ﷺ ليصل بهذه الأمة إلى الرشاد من الأمر، وليكون متقدماً لها من الضلال، وأخذاً بيدها إلى مرفأ الأمن والأمان، جاء بتلك الرسالة الخاتمة، رسالة القرآن، الكلام المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، قد فصلت آياته وأحكمت؛ لتكون هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، ولتصنع تلك الأمة المسلمة الرائدة فى أولها ووسطها وآخرها لهذا العالم المتخبط الحائر الذى لا يعرف طريق هداية، وتتغشاه ظلمات بعضها فوق بعض من ضلال العقائد، وانهار القيم، وأطماع الحياة والأنانية المفسدة، والبعد عن جادة الطريق.

رسالة الإسلام تحدت من قبل السماء، ويوحى الله إلى بنى البشر عن طريق خاتم الأنبياء محمد، عليه الصلاة والسلام، فى صنع هذا الأتمودج الرفيع لتلك الأمة التى عبرت عنها الآية القرآنية: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أمة ذابت بينها الفوارق العرقية، والطبقية، واللونية، ولم يبق أمام المسألة الإلهية يوم القيامة إلا ذلك المبدأ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، انصهرت هذه الأمة فى بوتقة الإسلام، فكانت جديدة أن تكون شهيدة على الناس يوم القيامة، ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

أمة صنعها الله سبحانه بقرآنه المعجز، وبتكاليه، وأوامره، ونواهيه، فاستقامت شئون الحياة، وصلاح أمرها، وأمر معتقى رسالة الإسلام، والمتبعين لتعاليم الله دون بغى أو عدوان.

عاشت هذه الأمة فى ظل القرآن، وسعدت بعدالة السماء، وتأثرت بأخلاق رسول الله وصفاته، وأخلاق صحابته، وما كان لهم من مجاهدة وجهاد فى سبيل الله، وما ظهر على أيديهم من عدالة وسماحة نبعت من شريعة الله، وعالجت أوضاع الحياة بالاستقامة على النهج والتمسك بالتعاليم، والفهم للغايات.

ثم رانت عليها نومة ثقيلة، بفعل الجهالة التى تحكمت فى العقول، والذلة التى هيمنت على النفوس، والتواكل الذى أضاع جوهر التوكل، والدسائس التى حيكت ضد الدين وأهله من داخل البلاد وخارجها، ومن الاستعمار الذى بسط سلطانه بالقهر والعدوان على مقدرات هذه الأمة وعلى مقدساتها، وعلى كل من نطق بالضاد، ومن الفرقة التى أصابت جسم هذه الأمة، فنفشى داء الانقسام بين أطرافه حتى غدا أوصالاً ممزقة، وفرقاً شتى، وشيعاً وأحزاباً، يحارب بعضها بعضاً، وتولى زمام الأمر فيها إما جاهل أحمق، وإما مستبد غاشم، وإما عبد لشهوات نفسه ورغائبها، وهكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعد قرون طويلة من القوة، جسداً مريضاً تنهشه كلاب جائعة من حوله، لا تترك فيه رمقاً من حياة، ولا تقدم له الدواء كى يعيد سيرته الأولى فى قيادة الحياة وإنارة البصائر، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

وبعد لأى من الزمن، وصحوة القلب المريض، ويقظة العقل الجاهل، تنبه المسلمون

إلى حالهم المستكين، وتأخرهم المريض، وعرفوا سر ما هم فيه من انكسارات تقوض دعائمهم، وهزائم فى ميادين الحياة المختلفة تستل منهم مواطن العزة، وجدوا كل ذلك وعرفوه بمقارنة حالهم بجماعة الأمم الأخرى التى تعيش بالفكر، والعقل، والعلم، واليقظة لدروس الحياة، فبدأوا يتلمسون الطريق، ولكن أى طريق يسلكون؟ وأى نور يتلمسون؟ أكل طريق يصلح للسير فيه؟! أكل نور يصلح للهداية؟!!

هذه التساؤلات دفعت عقلاء القوم، والمستنيرين منهم، إلى جدية البحث وراء العلاج الذى يشفى من كل مرض وراء الحياة الجديرة بالأمّة التى حباها الله بالقرآن، وراء الحياة الحقيقية التى يجب أن يحيها المؤمن، والتى تحقق له خيرى الدنيا والآخرة، الحياة التى تقوم على دعائم العقيدة، والروح، والعقل، والفهم، والتدبر فى ملكوت الله حتى يكون السير على هدى وبصيرة.

إن حاجة هذه الأمة إلى تلك اليقظة التى تشمل كل كيانها، حاجة ملحة وشديدة، وفى الاستفادة من دروس الماضى وعبره، وسير الأولين والآخرين، وفى الرجوع إلى آيات الله وقرآنه الحكيم ما يجعل الأمة المسلمة، والفرد المؤمن، يرى طريقه الصحيح، ويجتنب العثار والسقوط.

وفى النظر إلى ما يحدث فى الحياة الحاضرة من أحداث، وما يقع فى العالم من أزمات ومشكلات، وما يجابه الإنسان المعاصر من متغيرات تدعوه إلى إصلاح مساره، وعلاج انحرافه، وطلب المزيد من التجارب الناجحة التى مورست، ويمارسها الإنسان فى الحاضر لإصلاح شأنه، فى جميع ما يحتاج إليه فى هذا الشأن من الأمور الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، واختيار الطريق الأصلح والأقوم للنجاح فى هذه الحياة.

كل ذلك يوسع دائرة البحث، والعلم، والاستفادة، وينير للإنسان طريقه، فلا يخضع لتقليد مقيت يحره للماضى وما فيه من أمور حكمت تجارب الحياة الحاضرة بفسادها وعدم صلاحيتها للاقتباس منها، وتمثلها فى خطواتنا.

وكذلك لا يخدع بالحاضر، وما فيه من مغريات تغطى على بصره وبصيرته، فلا يرى طريقه الصحيح، ولا يستبين معالمه.

وإنما هو العقل الراشد، والإيمان الثابت، والإرادة القوية، التى تفتح مغاليق الحياة، وتجعل الإنسان أمر نفسه، وصاحب كلمته فى الأرض التى خلقها الله من أجله.

التصوير فى الأسلوب القرآنى:

قد يعرض المعنى فى الأسلوب القرآنى عرضاً مباشراً معتمداً على استخدام الكلمة والجملة فى الاستعمال الحقيقى الذى لا يحتمل غيره، فيفيد بذلك السامع والقارئ، ولا يوجه إلى كبير معاناة فى الفهم، أو الجرى وراء التماس معان أخرى يبحث عنها، ويبدو ذلك دائماً فى كل ما ورد من ألفاظ القرآن الكريم وآياته التى تناولت الأحكام والفرائض والمعاملات، مثل: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ألفاظ واضحة الدلالة تصل إلى السامع مباشرة، فلا يحتاج معها إلى بحث، إلا إذا كان استخدام اللفظ غريباً على سمعه لجهله به، أو لصعوبة تلفظه به، فإنه لا بد وأن يعتمد إلى المعجم ليعرف معناه.

ولكن يبقى بعد ذلك استخدام الكلمة فى غير ما وضعت له، وهذا أمر شائع فى كل لغات العالم، وبالتالي فهو شائع أيضاً فى اللغة العربية، وقد استعمله القرآن الكريم ليفيد اللغة اتساعاً من الناحية اللغوية، ويفيدها أيضاً جمالاً من الناحية الجمالية، ويسمى ذلك مجازاً، وفى هذا المجاز قوة وتأثير وتصوير، فإذا استمعنا إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله أيضاً: ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١]، فى هذه الآيات عبارات ناطقة قوية بالغة القوة فى استنطاقها ما لا ينطق، وفى حوارها فيما بينها، وأمام صاحبها، وهو صامت مأخوذ من نطقها^(١).

وقد أدى استخدام هذا المجاز واتساعه إلى كثير من ألوان لايبان، بدءاً بالتشبيه إلى الاستعارة بأنواعها المختلفة، وكلها إضافات جديدة للاستخدام اللغوى بدلالات اجتماعية ونفسية.

وليس المقام هنا عرض نماذج عديدة لكثير من ألوان البيان، ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة التى تكون أساساً لما نريد الوصول إليه من طبيعة التصوير فى الأسلوب القرآنى ووظيفته.

(١) انظر: التيارات الأدبية فى الشرق والغرب، للدكتور/ إبراهيم سلامة.

فقد نجد التشبيه يأخذ مكانه فى الأسلوب القرآنى؛ لتتم عن طريقه المقارنة بين طرفين، والموازنة بينهما، فمثلاً يقول الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، فقد تماثل المشبه وهو الحور العين، مع المشبه به وهو اللؤلؤ المكنون، فى صفة مشتركة هى الصفاء واللمعان، عن طريق أداة التشبيه وهى الكاف، أركان أربعة قام عليها أسلوب التشبيه، وفيه انتقاله بالمشبه إلى مرتبة أعلى مما كانت له سابقاً لم يكتسبها إلا عن هذا الطريق البيانى، وقد يتدرج الأسلوب بحذف الأداة، ووجه الشبه إلى ما يسمى بالتشبيه البليغ الذى يعطى قوة ومبالغة أكثر، كأن المشبه هو عين المشبه به، وهكذا تختلف الصورة من صياغة إلى صياغة، فإذا حذف أحد الركنين الأساسيين، المشبه أو المشبه به، كان ذلك انتقالاً إلى مبالغة أقوى، واستخدام أكثر تأثيراً، وهو ما يطلق عليه اسم الاستعارة، تصريحية أو مكنية.

وقد تقوم المشابهة بين الطرفين على صفات مشتركة، وأحوال متقاربة، وهو ما يسمى بالتشبيه التمثيلى، أو التشبيه المركب، فتبدو الصورة كاملة التأثير بما ترسمه من كلمات تتوفر فيها عناصر اللون، والحركة، والصوت، وتتجمع جميعها فى إبراز مكونات الحالة الأولى المتمثل لها المشبه بالحالة الثانية المتمثل بها المشبه به، إلى تلك الصورة الرائعة بمكوناتها وتأثيراتها المختلفة التى تصدق عليها، وعلى غيرها مما تنطبق عليه هذه الأحوال.

فإذا نظرنا إلى تلك الصورة الرائعة فى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥]، وجدنا أنها عرضت صورة لليهود الذين أعطوا التوراة ولم ينتفعوا بما فيها من هداية وتعاليم، بحال الحمار الذى يحمل كتباً كثيرة نافعة فوق ظهره، ولكنه لا يستفيد بها، ولا ينتفع بشىء منها.

فالمشبه مركب من أجزاء: حامل، وهم اليهود، ومحمول نافع، وهو التوراة، وعدم انتفاع بالمحمول لانصرافهم عن العمل بما جاء فى التوراة التى حفظوها.

والمشبه به: مركب من أجزاء هى: حمار حامل، محمول نافع، وهو كتب العلم، وعدم انتفاع الحمار بما يحمل؛ لأنه لا يدرك ما فيه مع تحمل المشقة فى الحمل.

وكذلك إذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧]، وجدنا أن

الصورة المعروضة لأولئك المنافقين الذين تملكتمهم الحيرة والحسرة؛ لأن نور الإيمان لم يصل إلى قلوبهم، ولم يحققوا الفوز والنعيم المقيم؛ لأن إيمانهم كان مجرد زعم وادعاء؛ لحقن دمائهم وصيانة أموالهم.

المشبه به: حال وهيئة أولئك الذين طلبوا إيقاد النار للاهتداء بها، فلما أضاءت لهم وسطع نورها حولهم انطفأت، فملكتمهم الحيرة فى الظلمات، وأصابتمهم الحسرة على فوت ما فات، وغمرهم اليأس من بلوغ ما كانوا يريدون لو بقى لهم ذلك النور.

وإذا سيقت هذه الصورة البيانية بحذف ركنها الأول، وهو التمثيل له المشبه، واكتفى بذكر التمثيل به المشبه به، كان ذلك تدرجاً فى البيان، وقمة فى الإيجاز والاختصار، وعدّ من أساليب الاستعارة التمثيلية التى نجد مكانها واضحاً فى تلك الأمثال الحكيمية التى حفل بها القرآن الكريم، وعرضها علينا قضايا مسلمة، محكوماً بصحتها، ويمكن اللجوء إليها، والاستشهاد والتمثيل بذكرها بفرض حال مناسبة مشابهة لها، وقد عرضت كتب التفسير نماذج لذلك فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدر: ٣٨]، ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الأمثال:

طريقة من جملة الطرائق الأسلوبية التى عاجلت بها الآيات القرآنية، الحقائق فى منازعها المختلفة.

حقيقة المثل: يقوم المثل على الشبه والنظير بين طرفين؛ لتتم بينهما المقارنة والمشابهة، وقد يكون المثل بمعنى الصفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، أى صفة الجنة، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، أى الصفة العليا، وهى قولنا: لا إله إلا الله، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الفتح: ٢٩]، أى صفتهم. وقال قوم: إنما يعنى المثل: المثال الذى يحذى عليه كأنه جعله مقياساً لغيره.

رأى علماء البلاغة فى الأمثال:

يرى عبد القاهر الجرجانى فى كتابه: أسرار البلاغة، أن المثل يقوم على التشبيه المركب فقط، فوجه الشبه فيه منتزع من صور لا يمكن فصل بعضها عن بعض، حتى

أنك لو حذفتها منها جملة واحدة في أي موضع، كان ذلك أخلّ بالمعزى من التشبيه، وقد أعطى أمثلة توضح فكرته، فقال:

إن هناك فرقاً بين أن تقول: رجل كالأسد، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

فوجه الشبه في الأول مفرد، وهو الشجاعة، أما في الآية القرآنية، فوجه الشبه صورة منتزعة من جملة أمور. وهو يرى أن كل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً. كما يرى أن للتمثيل مظهرين:

أ - أن يجيء المعنى ابتداءً في صورة التمثيل، وهذا نادر قليل، ولكنه على قلته في كلام البلغاء، كثير في القرآن الكريم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بكم عَمَى فهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠].

ب - المظهر الثاني للتمثيل: هو ما يتأثر بالمعاني، ويجيء في أعقابها؛ لإيضاحها وتقريرها في النفوس، ومثال ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فقد أورد المثل بعدما قرر أمر التوحيد في أول السورة، وشنع على الذين اتخذوا من دون الله أولياء يقربونهم إليه زلفى، ونصب الدلائل على نفى هذا الشرك، وذكر الجزاء.

والتمثيل في رأى الزمخشري إنما يصار إليه لكشف المعانى، وإدناء المتوهم من الشاهد، فإن كان الممثل له عظيمًا، كان الممثل به مثله، وإن كان حقيراً، كان الممثل به كذلك.

رأى الفقهاء فى الأمثال:

قال أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى^(١): ضرب الله الأمثال لمن غاب عن الأشياء، وخفيت عنه الأشياء، فالعباد محتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء، فضرب لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه؛ ليدركوا ما غاب عنهم، فأما من لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فلا يحتاج إلى الأمثال.

ويقول صاحب تفسير المنار (ج ١): يضرب الله المثل فى كلامه تعالى؛ لأنه ليس نقصاً فى حد ذاته، وليس نقصاً فى جانبه، وإنما هو حق؛ لأنه مبین للحق، ومقرر له، وسائق إلى الأخذ به بما له من التأثير فى النفس.

وذلك أن المعانى الكلية تعرض بمجمل مبهمة، فيصعب على الذهن الإمام بها، واستخراج سرها، والمثل هو الذى يفصل الجمل، ويوضح المبهم، فهو ميزان البلاغة. المهدف من ضرب الأمثال:

يضرب الله الأمثال لنفوس العباد، حتى يدركوا ما غاب عن أسماعهم وأبصارهم الظاهرة بما عاينوا^(٢).

وتساق أساليب الأمثال فى صورة من الإعجاز البيانى لأولى الأبواب، حتى تكون صمام أمان من عذاب الله الذى أعده للكافرين، وتبرز تلك المعانى المجردة فى صورة محسوسة، أو الأشياء المتخيلية أو المتوهمة فى صورة متحققة أو متيقنة من التمثيل الحركى أو القولى، حتى يكون لذلك صداه فى نفس المتلقى أو المشاهد، فينطبع فى ذاكرته، ويصل إلى قرار فؤاده، فلا يمحو على مر الأيام.

كانت الكتب السماوية معرضاً للأمثال التى تساق للتأثير فى النفوس والقلوب، حتى أن الإنجيل أفرده سورة كاملة من سوره تسمى سورة الأمثال، وأكثر منها الأنبياء والرسول والحكماء، كما أكثر من ذكرها القرآن الكريم فى كثير من الآيات، حتى وصلت إلى بضعة عشر موضعاً، يضرب فيها الأمثال بياناً للناس وتذكيراً، وهو الحق وأحسن تفسيراً، وأمثال الكفار فى ضلال وبهتان^(٣).

واستخدمها رسول الله ﷺ فى كثير من المواطن للإيضاح والتعليم، أخرج البيهقى،

(١) من علماء القرن الثالث الهجرى. انظر: (ص ٢) من كتاب الأمثال فى الكتاب والسنة.

(٢) انظر: كتاب الأمثال للترمذى.

(٣) انظر: الأمثال فى النثر العربى.

عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال»^(١).

وتضرب الأمثال لمن يتغى هدى وصلاً من الأمر، وعلاجاً لكل داء، ومحاربة لكل ألوان الفساد التي تمزق المجتمع، وتهدد قيمه، وتبدد طاقاته.

وإذا نظرنا إلى طبيعة المثل في البيان العربي، وجدنا له مورداً ومضرباً، فالمورد هو أساس المثل الذي قيل فيه، والحدث الذي ورد فيه، وأما المضرب فهو الذى يستشهد به فيه من حال مماثلة فى كل وقت وعصر، وقد يكتفى القارئ بذلك المضرب، وقد يذهب الباحث وراء المضرب ليعرف مورد المثل وحقيقته، وهذا أمر مألوف فى الأمثال العربية وطبيعتها وتكوينها، يبحث عن الجذور والأصل؛ ليستطيع الربط بين المورد والمضرب.

ولكن أنقاس الآيات القرآنية بهذا المقياس؟! ليس من الصائب من الرأى أن نخضع ما ورد عن الله عز وجل لمقاييس من صنع البشر، فالكلام كلام الله خالق البشر، وما يصنعون من قول، ويزخرفون من حديث، ويدبجون من ألفاظ، على أن الأمثال العربية فى قمتها، وهى تلك الأمثال الحكمية أو الكامنة، كما يسميها السيوطى، قد تنوسى فيها المورد، ولم يعد الإنسان بحاجة إلى معرفة ذلك، فالمهم هو التطبيق، والنظير، والشبيه بالمثل فى حالته وصورته.

أنواع الأمثال:

سيكون عمادنا فى هذا المؤلف أن نعرض للأمثال القرآنية التى ضربها الله للناس فى مجالات مختلفة، عاجلت وتعالج شئون الإنسان، والحياة التى يحيها، والعقيدة التى يؤمن بها، وكيف حققت هذه الأمثال نجاحها الباهر بأسلوبها القرآنى الأخاذ، وبذلك النمط الذى سيقت فيه للدلالة على صدق ما أخبرت به الآيات عن طريق الدليل، والحجة والبرهان، بالإضافة إلى ما تعطيه من قوة وتأثير فى الكلام، وإقناع بما تسوقه من أفكار، فكانها تأتى بالشىء ودليله من واقع الحياة.

وإذا نظرنا إلى نماذج هذه الأمثال الفريدة فى صياغتها، رأينا أن سوقها بهذا الأسلوب فريد فى نوعه وطريقته، ويختلف عما عدها من الأساليب العربية المعهودة فى

(١) انظر: أمثال القرآن (ج ٤) (ص ٤٤)، والإتقان فى علوم القرآن.

ذلك الوقت، والمأثورة عن عصر الجاهلية قبل نزول القرآن الكريم، فلم يعهد فى أسلوب القدامى الفصحاء والبلغاء أن أتوا بهذا النسق من الكلام الذى جرت به الآيات القرآنية فى سوق الأمثال بخصائصها وطرائقها، لم يؤثر عن القدامى فى الجاهلية إلا ذلك النمط من الحكمة الصائبة الصادقة، والقول السديد فى لفظ موجز بليغ، وهو لون لا شك أنه من جملة الأساليب التى تحاط بالاحترام والتقدير؛ لما لها من أثر النفس، وتقدير فى العقل، وهو ما يطلق عليه الأمثال الحكيمة، وهى نتاج خبرات، وأحداث، وتفكير، وصدق، إلا أنها لم تعد ذلك الجانب الذى وردت به، ولم يكن لها ذلك الحظ من المساحة العريضة الواسعة من تصوير المشاهد، وإضفاء الجوانب التأثيرية، كما ورد ذلك فى القرآن الكريم، وقد يرجع هذا إلى طبيعة العصر وما فيه من بداوة، أو لضيق أفق وفكر فى الإمام بكل جوانب الحياة، وللجاهلية الفاشية فى نقص معلوماتهم، وتقليدهم واتباعهم للآخرين، وتأثرهم بتفكير السابقين فى قولهم وفعلهم.

عوامل عديدة قعدت بهم عن إعطاء ذلك المظهر التعبيرى الفسيح الذى كان بحق وثيقة تاريخية كتابية صادقة لمست ونطقت بحياة الناس، فكانت كما عبر أحد الكتاب عن قيمة الأمثال: إنها مرآة ترى الإنسان وجهه وحقيقة نفسه، وما فى حياته من أشياء، كما تراه ما خلفه من مناظر ومشاهد يعجز أن يراها بغيره.

الأمثال مرآة صادقة للحياة، وقد ظهرت بأنواعها العديدة فى آيات الله، حتى أن بعض المفسرين حاول أن يحصر ما يطلق عليه من أمثال حكمية، فوجدها تقرب من الثلاثين مثلاً، وتكلف آخرون فى إيجاد ارتباط بين الكثير من الأمثال الحكمية التراثية التى وردت إلينا من خلال الموروث من الآداب الجاهلية وغيرها، وبين آيات القرآن الكريم، والتدليل على ذلك بذكر هذه الآيات، وتبيان ما بينها من معان متفقة، وقريبة الصلة بمعانى أمثال معروفة سائرة، فهى أمثال بمعانيها لا بألفاظها، ومن هنا سميت أمثال كامنة، كما عبر عن ذلك الإمام السيوطى فى كتابه الإقتان فى علوم القرآن، الذى قال: إنها تمثل القسم الثانى للأمثال القرآنية التى لا ذكر للمثل فيه، ولم ترد فيه حكاية الأمثال الشائعة، وإنما هى أمثال فى نظر العلماء من حيث ما ورد فيها من معنى قريب الصلة بمعانى أمثال معروفة سائرة.

وقد أعطى نماذج عديدة لذلك، مثل قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿ذَلِكَ بِمَا

قَدَمْتُ يَدَاكَ ﴿ [الحج: ١٠] ، ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١] ،
﴿ أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر:
٤٣] ، ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وهذه العبارات لا تدخل فى باب الأمثال، فإن اشتمال العبارة على معنى ورد فى مثل لا يكفى لإطلاق لفظ المثل على تلك العبارة. فالصيغة الموروثة ركن أساسى فى المثل، وهذه المحاولة لا سند لها من دليل نصى ولا تاريخى، والقرآن الكرىم لم يصرح فى هذه الآيات بأنها مثل.

والنوع الثانى: وهو عماد دراستنا، وموضوع بحثنا فى هذا المؤلف، هو ما يطلق عليه القرآن الكرىم كلمة المثل أو الأمثال، ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [العنكبوت:
٤٣] ، ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا ﴾ [الروم: ٢٨] .

آيات عديدة نستطيع أن نطلق عليها، كما أطلق ذلك الدكتور/ عبد المجيد عابدين:
الأمثال القياسية.

ونحن إذا قرأنا آيات الله، واستعرضنا ما ورد بها من أمثال قرآنية، وجدنا أنها تأخذ ذلك الأسلوب الذى لم تسبق إليه فى البيان العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام فى صياغتها، وتكوينها على النحو الفريد الذى عرضت فيه. فهى تعرض لنا:
أولاً: صورة وصفة المتمثل له، والمتمثل به على هذا النحو الذى تمثله النماذج
القرآنية فى الآيات التالية:

أ - قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾
[آل عمران: ١١٧] .

ب - وقال أيضاً: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١] .

فالآية تبدأ بكلمة ﴿ مَثَلٌ ﴾ التى تدل على الصفة والحالة، وتعرض المتمثل له مباشرة، ثم تعقب ذلك بكلمة ﴿ مَثَلٌ ﴾ المكررة التى تفيد الحالة والصفة أيضاً للمتمثل به، مسبوقة بالكاف الدالة على التشبيه، وهذا فى أكثر الاستخدامات القرآنية، وقد

وردت فى القرآن الكريم تلك الأمثال القياسية على هذا النحو مصحوبة بالنص على ضرب المثل بصياغة الماضى، والمضارع، والأمر، وهو لفظ يفيد إيقاع الشىء وتحقيقه، وقد اختير لفظ الضرب، كما عبر صاحب المنار: لأنه يأتى عند إرادة التأثير، وهيج الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به آذان السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهى إلى أعماق نفسه^(١).

ثانياً: يسرد المثل قصة كاملة للمتمثل له، أو يعرض صورة مجازية مبسطة جىء بها للإيضاح، والتصوير، أو قصد التأديب.

ثالثاً: من سمات المثل القرآنى: الإطناب، وعمق الفكرة، وجمال التصوير.

إذا توافرت هذه الخصائص، كان ذلك من المثل القياسى الذى استجمع كل شروطه، ولهذا يخرج العلماء كل الآيات التى تستخدم فيها كلمة المثل، وتعتمد على التشبيه البسيط من المثل القياسى، مثل قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس: ٧٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦].

فهذه الآيات السابقة، وإن صرح فيها بلفظ المثل، فهو ليس مثلاً؛ لأنه لا يقوم على التشبيه المركب.

وقد اعتبر بعض البلاغيين أن من جملة المثل القياسى، ما قصد منه عرض قصة، أو صورة مجازية، ولم يرد فيها لفظ المثل صراحة، مثل قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ﴿ وَأَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد نظروا فى ذلك إلى ما تقصد إليه الآيات من هدف التأديب، والتذكير، وما توحى به من أمور الاعتبار والاتعاظ.

(١) انظر: تفسير المنار (ص ١٩٨).

اجتهادات العلماء فى هذا المجال تقوم على معرفة الغرض والحكمة من وراء سوق العبارات، فإذا أبرزت الآيات صورة كاملة لحالين متشابهين فى أمور ممتزجة لا انفصام بينها، كان ذلك مثلاً قياسياً، ولو خلا من كلمة مثل، أو شبه، أو ضرب، ما دام يخدم الفكرة ويوضح الغاية فى رأيهم، وبمقتضى هذا الفهم يتسع المثل، فيشمل كل ما ورد فى القرآن الكريم من أحوال السابقين من قصص، وذكر أحوال، مثل: أخوة يوسف، وقصة موسى، وعيسى، وأهل الكهف، وغيرهم مما حفلت به الآيات القرآنية وسور القرآن الكريم، وعرضته بغية الوعظ والاعتبار. ولا نغالى إذا قلنا: إنه ما من آية إلا وتحمل فى طياتها دعوة، وعظة، واعتباراً، وعرضاً لأحوال السابقين، ما عدا تلك الآيات التى تبين تشريعاً، أو تضع قواعد، وتكاليف، وأمور عبادات.

لذا فنحن لسنا مع أولئك القائلين بهذا القول، أو الذاهبين هذا المذهب، فلا يصح أن نخضع هذا الأمر لقياسات العلماء، أو القواعد التى يطبقون عليها، فالأمر يجب أن يكون بخلاف ذلك، والعكس هو الصحيح، وهو أن تقعد القواعد، وتوضع الموازين على هدى كتاب الله، اللسان العربى المبين، والصياغة التى وردت فيه، فهى النموذج الأمثل.

لقد فعل أصحاب القواعد النحوية مثل هذا، وذهبوا هذا المذهب، ولم ينكر عليهم أحد اتجاههم هذا إلى وقتنا الحاضر، فقد جعلوا القرآن الكريم هو الأصل، وما عداه مقيس عليه، يصلحون من قواعدهم، ويتلمسون العلل فيما أتى مخالفاً للنموذج لأنفسهم.

وهذا الجهد الحميد من أولئك العلماء، علماء البلاغة، لا ينكر، والاجتهادات التى توصلوا إليها من بلاغيين، ومفسرين، وعلماء، فى هذه الميادين، اجتهادات ولا شك مشكورة، حفرت الطريق أمام السائرين، ومهدته لكى يواصل المسيرة من أراد فى طريق النماء العقلى، والتقدم العلمى، حتى وقتنا الحاضر، ولمن يأتى بعد ذلك.

تمهيد:

وراء كل عمل فلسفة معينة تدفع إليه، وتكون حافزاً لإتمامه على نحو معين، يصدق هذا على كل مجالات الحياة، ويبرر كل خطوة يخطوها الإنسان فى فكره، وعمله، وإبداعه.

وأعمال الله سبحانه وتعالى جلّت عن الشبيه والنظير، وتنزهت عن اللهو والعبث، إنما كانت لتحقيق غاية وحكمة تقتضيها مصلحة الإنسان والحياة، وتتناسب مع ذلك التكريم الذى كرمه للإنسان، إذ خلقه فى أحسن تقويم، وللتمييز الذى ميزه به عن بقية المخلوقات، إذ جعله مناطاً للتكليف، وحمله تلك الأمانة الكبرى التى عرضها على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان.

أراد الله لهذا الإنسان أن يكون خليفة فى الأرض، يعمرها، ويتنفع بخيراتها، ويستفيد بتلك الكائنات والمخلوقات التى سخرت له من حيوان، ونبات، وأرض، وسماء، وجبال، وأنهار، ونجوم، وأفلاك... إلخ ما خلق الله، وهو كثير، ووقع تحت علم الإنسان، ومعرفته، أو الذى لم يستطيع أن يصل إلى أسراره، وفك طلاسمه، ولم يقع تحت سيطرته بعد.

أبدع الله كل ذلك على هيئة مهياة لفعل من الأفعال المناسبة لخلق الإنسان، وفطرته التى فطر عليها، وعقله، وإرادته، فهذا كله جعله فريداً بين مخلوقات الله، ومهياً لتلقى العلم، مستفيداً بما يحصل عليه، قادراً على تحصيل ما لا تستطيعه الملائكة من ذات أنفسهم، والذين يفعلون ما يؤمرون، فالإنسان بهذه الفطرة التى تلتقى مع العقل، يسلك طريقه فى الحياة، إما على هدى من الأمر، أو انحراف إلى الضلالة حسبما تؤثر فيه المؤثرات والعوارض المختلفة التى تتتاب نفسه، فتلهمها فجورها وتقواها، وتلدعها إلى فعل الخير، أو اقتراف الشر.

ولكن كما قال الله تعالى فى محكم قرآنه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، عرف أن الإنسان بإمكاناته السابقة لا يستطيع أن يجعل نفسه بمنأى عن تلك العوارض التى تؤثر فى مسار حياته، وأنه بحاجة إلى تكميل من نوع هذه المخلوقات، ومن نفسه، فكانت حكمته أن جعله أهلاً للرسالات، وتلقى أوامره ونواهيه، واصطفى له من جنسه من يراه أهلاً لتبليغ رسالته، وحمل كلمة الله إلى القلوب والعقول، ففتحقق الهداية، وتكون العبادة خالصة لوجهه الكريم، مبرأة من الدوافع والغايات، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

من هذا المنطق، وجدت أن خير بدء لهذه الموضوعات التى تعالجها الأمثال القرآنية

هى تلك البداية الحققة التى بدأ الله بها رسالته الخالدة، رسالة الإسلام، عن طريق الوحي الذى نزل به جبريل، عليه السلام، على محمد بن عبد الله ﷺ.

بداية اليقظة العقلية والروحية التى كانت بداية حقيقة لهذه الإنسانية التى أرادها الله، بداية التعرف على موجد الكائنات، وخالق الإنسان، وإزالة الغشاوة التى رانت على العيون والعقول والقلوب، فباعدت بينها وبين الحقيقة الكبرى، وهى معرفة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، معرفة حقيقة جديرة بمخطوات ذلك الإنسان الذى خلقه الله على هذه الأرض، خطوات تتبع من تلك الكلمة الأسرة، الأمرة لرسول الله، وللإنسان العاقل: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

البداية بالعلم، والعلم هو المعرفة بكل ما تحمله هذه الكلمة فى طياتها من معان المعرفة بكل ما يقع فى الحياة، والنفس، والكون، وبكل ما تحتاج إليه هذه النفس البشرية فى حياتها ومجتمعاتها وعقائدها، العلم بحقيقة الوجود، وموجده، بالله خالق الخلق، والإيمان بوحدانية الله، وتنزيهه عن تلك الأفكار الضالة الجاهلة التى تفتشت، فأوقعت النفس فى الشرك بالله، واتخاذ الأصنام والأحجار، والمعبودات الباطلة، التى لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضرراً، ولا حياة ولا نشوراً.

المعرفة إذن هى الطاقة التى فتحت بأنوارها الكاشفة، فكانت البداية لتطهير النفس البشرية، حتى تكون فى صفائها ونقاها، أهلاً لتلقى أمر الله بالتكاليف والأوامر، واتباع ما يأتى من قبله بإيمان واقتناع يعلى من شأن الإنسان كإنسان له رأيه الخاص الذى ينفرد به، وله شخصيته الواضحة التى تخلعه عن الاتباع والتقليد لمن سبقه من آباء وأجداد، فى هفواتهم، وسقطاتهم، وجهالاتهم، والتى يقولون فيها: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ كَوَّ كَانْ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فهذا التقليد يتنافى مع إيمان المؤمن القوى بعقله، وروحه، وقلبه، ويجعله مسخاً مشوهاً للإنسان الذى يجب أن يزن الأمور بميزان العقل، ويعلم أن لكل شىء نهاية، وأن وراء كل عمل جزاء، وأن الفرق بين الحق والباطل واضح، ويترتب على ذلك حساب الله وعقابه يوم القيامة، ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾

[غافر: ١٧]، وأن أولئك الضالين الذين يقولون: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، إنما يهدرون آدميتهم، فهم كالأنعام بل أضل سبيلاً.

وإذا كانت هذه الملامح هى أولى خطواتنا على الطريق، فإن الأمر يستدعى أن تكون خطواتنا بمكة، حيث نبتت الدعوة، وننطلق معها، لتتعرف عليها فى جوها ومجالها، حتى تكون الصورة واضحة، فبعد أن نرسى القواعد الأساسية للاعتقاد، ويقام البناء على الإيمان بوحداية الله، والإيمان باليوم الآخر، والحساب والعقاب، وتحارب التقليد، وإغفال العقل، تبدأ النفس الإنسانية تتوزعها نوازع شتى من خارج بيئتها الحقيقية، فتجد معها فى طريق الحياة من يتناقض مظهره مع مخبره، وأقواله مع أفعاله، ويبدى شيئاً ويخفى آخر.

وهكذا نقائص فى الحياة بدأت تطل برأسها، وتعكر صفو الحياة، وجوهر الدين وحقايقه، فكان لابد من كشف ذلك، حتى يتطهر المجتمع من أدرانها، وينقى من شوائبه، حتى يكون المجتمع سليماً فى صفوفه، قوياً فى بنيانه، لا تهزه كلمة، ولا تؤثر فى عزيمته شائعة.

فهذا النفاق الذى أطل برأسه فى المدينة، دفعت إليه ظروف المجتمع الجديدة، وضعف فى بعض النفوس، ودسائس من المخالفين من أهل الديانات الأخرى، فاحتاج الأمر إلى تطهير الأرض من عوامل فسادها فى العقيدة، والشخصية، والنفوس، وتهياً لذلك النبت الجديد الذى تحوطه عناية الله بالحفظ والصون، وبكل ما يمد به بأسباب الحياة، أن يقوى ويشتد بفعل الطاعات، واجتناب المحرمات، وبالبذل من جانب المؤمنين بإنفاق المال، والتحكم فى النفس الشحيحة، فكان الإنفاق والدعوة إليه من مقومات بناء المجتمع الجديد، الذى يقوم على الالتزام والعمل من أجل الآخرين، والدفاع عن العقيدة، يقبل على ذلك رغبة فى رضا الله سبحانه وتعالى، لا طلباً للشهرة، وإنما هو الإحساس بالمسئولية حيال أولئك الذين يتصدون للدعوة، ويحاولون إطفاء نور الله، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

وإذا كان العمل فى هذا البناء يحتاج إلى تضيحة بالنفس فى صد اعتداءات المعتدين، وهجمات الحاقدين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، فهو يحتاج كذلك إلى اليد التى تنفق، والنية الحسنة التى تفعل الخير، والمال الذى تقوم عليه الحياة.

وكل هذا عن طريق الترغيب فى مجالات الخير بكل أنواعه؛ ليفوز المؤمن بشواب الله، ﴿ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وإذا كان للترغيب صولته ومكانته فى الدعوة إلى الخير، والصالح من العمل، ففى المقابل كذلك يظهر جانب التحذير لعلاج تلك النفوس الخبيثة التى جبلت على الشر، والبخل بالمال، أو انحرفت عن جادة الصواب، وسلكت طريق الضلال، فارتكبت المعاصى، واجترحت السيئات، وابتعدت عن عمل الخير، وكانت عوناً للشيطان، فخضعت لغريات الحياة وشهواتها، وسقطت فى حمأة الرذيلة، وساءت نيةً وخلقاً، وخرجت بذلك عن دائرة التكريم الذى منحه الله لها، بأن جعلها خير مخلوقاته، والجديرة بتحمل أماناته فى الحياة الدنيوية التى يحياها الإنسان.

ثم يكون بعد ذلك التسلسل الطبيعى أن تتجه الأنظار إلى القيادة المختارة من قبل الله، والمصطفى من عباده؛ لحمل هذه الأمانة والرسالة، فىأتى الرد على أولئك الذين يعترضون على رحمة الله، وينكرون أن يكون الرسول بشراً، ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

بل ويقترحون على محمد ﷺ الاقتراحات التى لو استجيبت، لكان فى ذلك هلاك أولئك القوم وتدميرهم تدميراً، ولكن رحمة الرسول التى جبل عليها كانت سبيلاً إلى إبعاد الهلاك عنهم، فلعل ذرية تخرج من أصلابهم تسبح الله وتحمده.

وهكذا كان الرسول كما عبر القرآن الكريم: ﴿ فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِطْرَةَ النَّاسِ لَفِطْرًا مُّذْمُومًا مُّذْمُومًا لَّيْسَ لَهُمْ خِيَرَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وبعد دور القيادة يأتى دور الشخصية المسلمة السوية، وكيف تكونت، واقتدت بالرسول الإنسان الكريم، فى خلقه، وعمله، واتباعه لسنته، حتى ظهرت تلك النخبة الصالحة التى فتحت الآفاق، وأشعت هذا النور فى كل الأرجاء.

ما سر ذلك؟ وما المنهج الذى ربوا عليه؟ ذلك هو الدور الأخير الذى يحتاج إلى تبيان، كى نرى منهج القرآن الكريم فى علاج هذه النفوس التى تتوق إلى علاج فى وقتنا الحاضر.

لقد تعرضت هذه النفوس لمناهج عديدة أخذت ترسم لها طريق الحياة بنزعات أصحابها ومفكرتها، واصطدمت بنظريات عديدة ما لبثت أن تهاوت، فلم تفلح فى علاج نفس، ولم تقض على أزمات الحياة بألوانها وأشكالها، وكانت النتائج لذلك وخيمة فى أمراض نفسية عديدة، وأزمات أخلاقية شملت الأفراد والجماعات.

ولذا فإن الاتجاه إلى تلك المناهج الربانية من ينابيعها الأساسية هو ولا شك خير طريق إلى الفلاح، على أن نحسن الفهم، ونعدل فى التطبيق، ونسائر الحياة بمتطلباتها العديدة.

١ - الدعوة إلى الإيمان بالله ووحديته:

وهى دعوة قام عليها الدين، وبنى عليها أوامره ونواهيها، وجعلها أساس العقيدة الصحيحة التى يعتقدونها المؤمن بربه، والتوحيد معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفى الأنداد عنه جملة^(١).

وقد شغلت قضية البحث عن الله العقل الإنسانى من قديم الزمن، فمنهم من آمن بأن الله موجود، نظر إلى كل ما خلق الله حوله، واستمد منه يقينه ومعتقده فى تلك المظاهر التى تدل على الخالق والمبدع من أرض وسماء، وإنسان وحيوان، ونبات وجماد... إلخ، ورأى فى كل ذلك نظاماً مرسومًا، وقدرة فائقة تدل على مبدعها ومنشئها، فلا يعقل أن تكون قد خلقت بدون خالق، وآخرون أخذوا أنفسهم بالبحث عن دليل يؤيد فكرتهم ودعواهم الباطلة التى لا تؤمن إلا بالماديات، وبما يقع تحت الحواس، وهم لذلك ينكرون المغيبات من وجود الله، والملائكة، والبعث، والحساب، واليوم الآخر، وما فيه، ويجعلون حواسهم هى الطريق إلى الإيمان بمقاييس يضعونها لأنفسهم مع علمهم بقصورها، فهناك أشياء موجودة ويعرفونها، ولا تستطيع حواسهم أن تعرف عنها شيئًا، مثل الروح، مجهلون حقيقتها، ولا يعرفون عنها شيئًا، علمًا بأنها ثابتة وموجودة، ويحكمون بعد ذلك الحكم الفاسد أن الطبيعة هى التى خلقت هذا العالم وما فيه، وهذا الكون وما يسير عليه من نظام بديع لا يتغير ولا يتبدل، نسى أولئك القوم تلك الحقيقة البديهية أنهم إذا أرجعوا ذلك كله إلى الطبيعة، فمن أوجد الطبيعة؟ أوجدت نفسها؟

(١) انظر: كتاب التعريفات لعلى بن محمد الشريف الجرجانى (ص ٧٣).

سؤال يحتاج إلى إجابة، ولا يستطيع أولئك القوم أن يجيبوا، لضلالة فى نفوسهم، وضيق فى تفكيرهم، وغياب فى عقولهم. إن كتاب الله بين أيدينا يدعو العقل إليه: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [الملك: ١ - ٣].

حجج وأدلة تهدى من يريد الله له الهداية واستخدم عقله وحواسه فى مواطنها التى خلقت من أجلها، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وليس من المغالاة إذا قلنا: إن كلام الله وقرآنه قد وجه كل آية إلى أولئك الذين ألغوا عقولهم وتفكيرهم واتجهوا اتجاهات باطلة فى عبادة غير الخالق الذى رزقهم وأطعمهم وسقاهم ويده الخير، انحرفوا إلى عبادات باطلة تتمثل فى آلهة يعتقدون ألوهيتها، وأصنام يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها، وظواهر طبيعية تبدو لهم فى رعد وبرق، ومخلوقات خلقها الله بقدرته من شمس، وقمر، وملائكة، وحيوانات، اعتقدوا فى ذلك النفع والضرر، وآمنوا بها وهم يعلمون أنها لا تقدم ولا تؤخر، ولكنهم مع ذلك أسلموا إليها قياد أنفسهم، يستشيرونها فيما يقدمون عليه من عمل وما يريدون إنجازه من أمور، يضربون القداح، ويستقسمون بالأزلام، ويرضخون لعادات باطلة من صنع أيديهم، وإلغاء عقولهم.

تأخرت بهم تلك المعتقدات الباطلة عن انتشار أنفسهم من مهاوى الضلال، والتقليد، وباءوا بخسران مبین، حتى أصبحت الهوة شاسعة بينهم وبين غيرهم من الشعوب المجاورة، والمجتمعات الأخرى التى تمتعت بقسط وافر من التقدم فى مجالات الحياة، وتحقيق النظم الاجتماعية المتطورة.

هوة شاسعة بين طريقين: طريق جهالة، وطريق علم، تقدم وتأخر، تفكك وتجمع.

لم يرجع هؤلاء الذين أرسل إليهم رسول الله إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها، وكانت كفيلة بالأخذ بأيديهم إلى القرب من الصفاء، والتقاط الهداية من قبل السماء، فالإنسان الذى يولد على الفطرة لا يرى غير وجه الله، وقد دعت ذلك الأعرابى الذى لم يتلوث بأضاليل الشياطين من إنس وجن، ولم يحجب ذلك النور الإيمانى من سرعة الظهور، حينما سنحت فرصته، غطاءات من أدناس النفس والحياة، حينما سمع

الأعرابى ذلك النداء إلى الإيمان بالله الخالق، والموجد، الرازق، قال: إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفلا يدل ذلك الكون بأرضه وسماؤه على الخالق القدير؟

ونفس الموقف تعرض له رجل آخر، وإن كانت له سابقة من أدناس النفس حجبت عنه الضوء فترة من الزمن، وقعدت به عن سرعة الاستجابة إلى الله، بل كانت له مواقف محاربة ضد الدعوة الإسلامية، فقد كان عكرمة بن أبى جهل من أولئك الذين لهم سهم معلوم فى موقف الكفار المعاندين للدعوة فى مكة.

أحاط الهول والخطر بعكرمة، وهو هارب إلى الحبشة على ظهر سفينة، ورأى الناس يدعون الله أن ينقذهم من ذلك الخطر الدايم، فقال لهم: ألا تدعون آهتكم؟ فقالوا: إنها لا تقدر على ذلك، فكانت هذه الإجابة سبباً فى رجوعه إلى صوابه، وأدرك حقيقة ما هو عليه من باطل، وحاجته إلى ذلك النور الجديد، كى ينقذ نفسه وحياته، فعاد إلى مكة، وآمن بالله ورسوله، وكان من جند الله المخلصين.

فطرة صافية وصلت إلى تحقيق إيمان كامل ثابت فى نفس صاحبها، وعقيدة عجزت عقول الكثيرين عن الوصول إلى نتائجها مع ما اتصفوا به من كمال عقل، وفصاحة لسان، وقوة منطق، وبلاغة أسلوب، ومع ما لديهم من سابق معرفة بأخبار الأمم وأحداثها، وما يصل إلى مسامعهم من بشارات الكتب السماوية الأخرى التى تنبىء بعهد جديد فى الاعتقاد والالتزام، وطهارة المسلك والطريق.

ما كان من أولئك الذين أرسل إليهم رسول الله إلا الانحراف فى الفكر، وإلا الضلال فى العقيدة، سار فى ذلك الكثيرون وأعانهم على ذلك شياطين الإنس من أرباب الكهانة، والسيطرة الدينية، ممن يعيشون فى كهوفها، ويريدون أن يكون الجميع على منوالهم، يسиров فى طريق الفساد، وأعاوناً للشياطين فى الأرض، فكانت الآلهة أصناماً، وأشجاراً، وملائكة، وأشخاصاً... إلخ، مما باعد بينهم وبين الحقيقة الباهرة التى يجب أن يعيشوا فى نورها، ويرتقوا بأنفسهم وفكرهم إلى مستواها، ألا وهى حقيقة التوحيد.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤].

نعم: لقد جهلوا حقيقة فطرتهم، وانحرفوا بها عن القصد، وسلكوا طريق من حرم التوفيق والبصيرة، والفهم بتلك العبادة الباطلة للأحجار والأصنام.

٢ - حقيقة التوحيد:

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
[الأنعام: ٧٩].

الإيمان بوحداية الله، وهو إفراده بألوهيته فى الأرض، كإفراده بالألوهية فى السماء، وعدم تعدده فى ذاته، وصفاته، وأفعاله، هو الفارق بين طريق وطريق، طريق الحق، وطريق الباطل، طريق الهدى، وطريق الضلال، وكانت هذه الحقيقة التى نطق بها أبو الأنبياء إبراهيم، عليه السلام.

هذه النقلة فى الاعتقاد كانت طريق الأنبياء والرسول، ولم يكن هذا الطريق ممهداً مملوءاً بالورود والرياحين، ولكنه طريق الشوك والقتاد، طريق الصعاب، والألم، والتضحيات، فكم من نبي ورسول حورب من قومه، وقوبل بالهزاء والسخرية، وكان محل تندر، وسخرية مريرة من أهله، وكم من نبي ورسول قتل فى سبيل هداية قومه إلى طريق الحق كما حدث فى بنى إسرائيل.

ولم يكن محمد، عليه الصلاة والسلام، بدعاً من الأمر، أو بعيداً عن مواطن المشقات والمتاعب، فقد أرسل إلى قوم غلف القلوب، غلاظ الأكباد، صم الأذان، عمى العيون، لا يستمعون لكلمة الله ولا يصيخون لدعوة الحق، ولا تؤثر فيهم موعظة حسنة، حتى إذا نزلت إليهم الآيات القرآنية تدعوهم إلى عبادة الله وحده بطرائقها العديدة، وأساليبها المختلفة من أمر إلى نهى، من استفهام إلى خبر، من قصة إلى مثل؛ لاستمالتهم والتأثير فى نفوسهم، اتخذوا من ذلك أداة للتندر والتفكه، وأعرضوا عن السماع، مع ما لهم من ملكة التذوق والفهم لهذه الأساليب التى أتت من جنس ما يتكلمون ويتحدثون، ولكنه الكبرياء الذى تمكن من نفوسهم، والغرور الذى سيطر على قلوبهم، فكيف يدعو محمد إلى ذلك، ويظهر من بين أيديهم، ولا يكون من أولئك العظماء الذين يدينون لهم بالطاعة والخضوع، ويعرفون لهم مكان الشرف والسيادة: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وفى آية أخرى. ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ

وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سٰحِرٌ كَذٰبٌ اَجْعَلِ الْاٰلِهَةَ لِهَا وَاَحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾
[ص: ٤، ٥].

تدرجت الآيات القرآنية بأساليبها العديدة فى دعوتهم عن طريق الإقناع، وسوق الدليل؛ لتنمى فيهم جانب العقل والتفكير، حتى إذا كان الإيمان كان على بصيرة من الأمر واقتناع بما أنزل الله، وإيمان كامل بوحى الله وشريعته.

استمر الرسول يدعو إلى الإيمان بوحداية الله، وهى الأساس الإيمان بكل ما جاء من عنده، فى مكة ثلاثة عشر عاماً، ثم انتقل بعد ذلك إلى الهجرة إلى المدينة، فكان الانتقال إلى مرحلة البناء والجهاد فى سبيل الله، والاتصال بالمجتمعات الأخرى، وإرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء، يدعوهم إلى كلمة الله والدخول فى الإسلام، وكان اللقاء مع أولئك الذين صدّوا عن سبيل الله فى ميادين القتال فى الحرب والسلام.

كانت مرحلة التأسيس، وتطهير النفوس والقلوب مما ران عليها من الشرك، والجهل، والتقليد، هى أخطر المراحل، وأولها بالاهتمام، يبدو هذا من آيات الله فى أمثاله، والإكثار منها، وما تناولته من عقائد وشريعته من شرائع، ودعت إليه من قيم.

ثم كانت بعد ذلك مرحلة البناء، والمحافظة عليه بالحرب والسلام فى المدينة، وهى مرحلة بدأها رسول الله بالوحى الذى أنزل عليه، ثم سار بعد ذلك على دربها صحابته ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

ونحن إذ نعرض لتلك الآيات القرآنية التى تعالج الدعوة إلى وحداية الله، والإيمان به، فى ذلك الثوب القرآنى، ثوب الأمثال، لا نقصد من وراء إيرادها على ذلك النهج أن تكون خاضعة لتسلسل نزولها، ففى ذلك جهد لا نملك أدواته، ولا نستطيع أن نقطع فيه برأى، وإنما نقصد من وراء ذلك تحقيق الهدف والغاية التى إليها نسعى، ونقصد من كتابة هذه الموضوعات وهى غرس القيم الدينية البعيدة عن الانحراف، القيم التى تدعو إلى الإيمان بالله ووحدايته، واتصافه بالكمال المطلق، والإيمان بما أنزل.

هذه القيم هى التى يجب أن يعلو صوتها فوق كل صوت، وتأثيرها فوق كل تأثير، فى وقت نعيش فيه، ويعيش فيه شبابنا، ويحسون بذلك الفراغ الروحى الذى يسيطر على كل خطواتهم وميولهم واتجاهاتهم، فيحسون معه بالضيق، والاكتئاب، والقلق، والعتار، ويتلمسون كل وسيلة يعتقدون أن وراءها حلاً لمشكلاتهم، وقضاء على

معاناتهم، وقد يقعون نتيجة ذلك فريسة سهلة لألوان من المخدرات القاتلة التى تذهب بأرواحهم وقوتهم وعقولهم، دون أن تبدو منهم مقاومة لها؛ لأنهم لا يملكون من وسائل القدرة على ذلك ما ينفعهم فى موقفهم، فعقولهم وأفئدتهم خواء لا شىء يعمرها، ولا فكر يمد يده لينقذها مما تردت فيه.

يجب أن يكون للقيم النبيلة تلك الصدارة على قيم أخرى التى تعتبر أدنى مرتبة وأقل تأثيراً فى النفس، لقد انعكست الأمور فى وقتنا الحاضر، فأخذت المادية تطغى على كل النفوس فى مواقف الحياة، وفى التعاملات، والعلاقات، والتطلعات المختلفة، والطموحات العديدة التى يرنو إليها كل شاب متطلع للحياة بكل ما فيها، وهذا هو موطن الخطورة، يحس بذلك أولو الأمر فى اتجاهاتهم السياسية والثقافية، ويشعر بها المربون والآباء فى سعيهم الثقافى، والتربوى، والاجتماعى، ويرون فى ذلك نذيراً لمستقبل لا يبدو باسمًا بحال، ولا مبشراً بطريق مستقيم.

ولكن إذا بدأت القيم تغير من أماكنها على مسرح الحياة، وفى شعور الناس وعقولهم، وبدأت تسترد اعتباراتها التى كانت لها فى الماضى، ويعاد ترتيبها من جديد، وتحل القيم الرفيعة صدارتها الأولى، كان ذلك بداية إلى ما هو أفضل فى الحياة، وقضاء على عادات وانغماسات فى مهالك مردية يقع فيها الكثيرون.

إن ما نلحظه فى وقتنا الحاضر أن تلك الأنظمة التى شددت انتباه الناس، وبخاصة الشباب الذى بهر بما فيها من حرية وانطلاق، واستمتاع مطلق بكل ما تحمله المدنية الحديثة فى طياتها من خبائث الشراب والجنس، بدأت تلك الأنظمة تعيد النظر فى ترتيب أوراقها، وترجع إلى فهم حقيقى للحرية المنشودة للإنسان المعاصر، الحرية التى تلتزم بالقيم النابغة من الدين، المحافظة على الأخلاق العامة وعلى حقوق الآخرين.

١ - قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

جاء هذا المثل القرآنى عقب آيات تناولت أحوال أمم سابقة لهم فى مجال المعصية دور مشهود، وفى محاربة الرسل السابقين لهم عمل مشهور، وفى إنكار الدعوات

الصالحة التى تدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار، وتدعوهم إلى تطهير أنفسهم من قبائح الحياة والرذائل المنفشية فيهم، فأصابهم الله جزاء أعمالهم وظلمهم لأنفسهم بتلك العقوبات التى تنوعت بإرسال الحاصب من السماء، والرجفة التى تهلك، والخسف، والإغراق.

ألوان من العذاب تتناسب مع كفرهم بالله، وظلمهم لأنفسهم، واعتمادهم على أفكار ضالة، وإيمانهم بعبادات باطلة، فكان الاستحقاق من جنس العمل، ولا يظلم ريك أحداً، وكان هذا إشارة إلى عقوبات مماثلة تلحق بمن يتشابه مع السابقين فى مواقفهم، ولن يكون المصير مختلفاً، فالنتائج واحدة ما دامت الأعمال واحدة، وقد قال الله فى هذه الآيات: ﴿فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فى ضوء هذا التمهيد، جاء المثل ليبين حقيقة أولئك القوم الكافرين الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ، وما وصلوا إليه من فهم سقيم، فالمشرك الذى يعبد الأصنام ويعتقد فى نفعها وضررها، وألغى بذلك تفكيره بالقياس إلى المؤمن الذى يعبد الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى بيده النفع والضرر، والإحياء والإماتة، يشبهان فى حالهما بحال تلك العنكبوت التى لجأت إلى نسجها الضعيف الواهى تلتمس فيه نجاة، وتتخذ منه حماية لها ولحياتها، وهو لا يدفع عنها شيئاً من حر أو برد، بالقياس إلى من بنى بيتاً حصيناً اعتمد فى إقامته على كل ما يثبت دعائمه.

وهكذا تتضح الصورة، وفرق بين بيت وبيت، وفرق بين عبادة وعبادة، عبادة قائمة على شىء واه ضعيف، وعبادة قائمة على أساس سليم من الاعتقاد، والفكر، والافتناع، ولذلك جاء التأكيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

فالإنسان الذى له مسكة من عقل، جدير به أن يستند إلى حقيقة ودعامة ثابتة تقيه شر تقلبات الحياة، وما تأتى به من أرواء، تلك الدعامة التى تعلى من شأن الإنسان وترفع من مكانته، فلا يذل لمخلوق، ولا يحرم نفسه من مكانة أعزه الله بها، وهى خلافة الله فى الأرض، يعمرها بالفكر والعقل، والإرادة، والحرية، والتحكم فى شهوات النفس وغرائزها.

هذا هو الإنسان الذى أسلم وجهه حقاً لله، وعرف حقيقة وضعه، فتجرد من أنانيته، وكان مستعداً لتلقى وحى الله، ودعوة رسله، لا يخضع لصنم، ولا يركع لوثن، ولا يذل لطاغوت، وإنما يؤمن بمن خلق الصنم والوثن، وخلق الكافر والمؤمن، والحياة والموت، يؤمن بالله الذى بيده الأمر، وهو على كل شىء قدير: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، والذى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْبِئِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَتَشَابَهُونَ ﴾ [الروم: ١٩، ٢٠].

يعرض على أولئك الكفار فى هذه الآيات مشاهد مألوفة ومحسوسة لديهم، تقع عليها أنظارهم، وتتصل بحياتهم ومعاشهم، لعلها تثير فيهم نزعة التفكير والتأمل، وتوجه حواسهم إلى أداء وظائفها على أكمل وجه فى الإيمان بالله، والاعتراف بفضله ونعمه التى لا تعد ولا تحصى.

هذا ما يعرضه المثل القرآنى، وما يهدف إلى تحقيقه، ولكن كيف استقبل أولئك المشركون هذا المثل؟

لقد استقبل هؤلاء المشركون هذا المثل الذى يوضح حقيقتهم بطريق المقابلة والموازنة، استقبال أهل الغفلة والضلالة، فهم لا ينظرون إلى الحكمة والمقصد، وإنما يتعلقون بالقشرة الظاهرة، وهذا دأب التافهين الذين لا يفكرون ولا يتعمقون فى الأمر، نظروا إلى ما فى المثل من عنكبوت، وإلى أمثال أخرى تحوى ذباباً وبعوضاً، تمثل أحوالهم، وتعرض صورهم، فقالوا: إن رب محمد يضرب الأمثال بالذباب تارة، والعنكبوت أخرى، يتضحكون ويستهزئون، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ [البقرة: ٢٦].

حقاً الله سبحانه وتعالى يضرب المثل بالشىء القليل والحقير الذى لا ينال من الكفار حقاً من احترام؛ لأنهم جهلوا أن ضرب المثل يحقق حكمة يريد بها الله، وهى العظة والاعتبار، زيادة الفهم والإدراك للأمور، وأن الله خالق الشمس والقمر، والكون الكبير، هو الخالق للصغير من الأمر، فليست هذه أصعب من تلك، فإذا اقتضت مشيئة الله أمراً خلقه بقدرته القادرة القاهرة، يشترك فى ذلك النملة والفيل، والكبير والصغير.

وكم من دلالات يتعلمها الإنسان، حتى فى علو مكانته، وسمو منزلته، من تلك الأشياء الصغيرة، إن نظرة فى أعماق التاريخ يرى موقف ابن آدم، عليه السلام، حيث قتل أخاه، يقف موقف الخاسرين، لا يعرف ما يأتى وما يذر، فيبعث الله إليه غرباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه، فأصبح من النادمين.

وسليمان، عليه السلام، وهو نبي مرسل من قبل الله، يمرّ على بيت للنمل، فتراه النملة، فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

وكذلك موقفه من الهدهد الذى أتى إليه بأخبار ملكة سبأ، كل هذا كان مدداً لسليمان، عليه السلام، من تلك الأشياء الصغيرة التى كانت مصدر علم ومعرفة لنبي الله، فكان منه الشكر، والطاعة لله رب العالمين، ليست العبرة إذن فى كثرة الأشياء وقتلتها، وكبر الأحجام وصغرها، وثقل الأوزان وخفتها، وإنما فيما تركه من أثر فى اهتداء العقل، وضلاله، وإيمانه، وانصرافه عن الحق.

٢ - قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

ما موقف الآيات التى سبقت هذا المثل ومهدت له؟ جاء هذا المثل عقب آيات تناولت قدرة الله المطلقة فى السموات والأرض، وأنه صاحب الأمر فيهما، وكل من خلقه خاضع لمشيئته، من إنس وجن، راجع إليه لا يخرج عن قدرته وسيطرته، وقدرته أيضاً على الخلق والإعادة، واتصافه بصفات الكمال المطلق، العزيز الغالب الذى يصنع كل شىء فى حكمة وتقدير، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٦، ٢٧].

هذا هو التمهيد والفرش لما يأتى من مثل بعد ذلك، يثير فى العقل الإنسانى وكل من يخاطب ويقع فى دائرة التكليف دفعة إلى التمييز بين المتقابلات، والفهم للحقائق، وحسن استخدام ما جعله الله تكريماً للإنسان، وهو العقل.

تناول المثل واقع هؤلاء المشركين الذين يشركون مع الله إلهًا آخر يتنازلون برغبتهم واختيارهم عما ميزوا به من عقل، فاتجهوا إلى أصنام يعبدونها ويسلمون إليها رقابهم ويخضعون لمشيئتها، إن كانت لها مشيئة، وفى نفس الوقت لا يرضون أن يكون أولئك العبيد والأرقاء والإماء الذين يملكون رقابهم، لا يرضون أن يكونوا لهم شركاء فيما يملكون من مال، أو يتدخلون فى شئونهم الخاصة والعامة، وأن تتساوى تصرفاتهم مع تصرفات السادة والأمراء، يأنفون من ذلك، ويخافون أن يكونوا أندادًا لهم.

ومع ذلك يرضى أولئك الكفار أن يشركوا مع الله فى عبادته تلك الأحجار والتمائيل العاجزة، وهو القادر الخالق حتى لهذه المعبودات، وينسبوا إليه الشركاء.

بهذا الأسلوب الإقناعى المستمد من الحياة التى يجيها أولئك الناس، الحياة الاقتصادية والاجتماعية التى تعتمد على تجارة العبيد، واستغلال الأرقاء والإماء، يخاطبهم ويوجه تقريره ولومه لمن يهمل ما يميزه الله به من عقل فضله به على بقية المخلوقات، وأعطاه القدرة على الملاحظة، والتدبر، وحسن التصرف.

حَقًّا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

اتجاهات ولا شك تدل على تدن فى التفكير، وإلغاء للعقل يخرج بالإنسان من دائرة الإكرام الذى عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنَى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ما الموقف الذى يدعو إليه المثل؟ ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، بهذا الختام نلمس ما يدعو إليه من موقف سليم فى الاعتقاد، والعمل، والسلوك، موقف ذلك الإنسان الذى يتلقى ضوء السماء، فيسير فى حياته لا يتخطى، يحافظ على منزلته التى حباه الله بها فى دنياه، ويتجه اتجاهًا حقيقًا إلى خالقه رب العباد جميعًا، وخالق الأسباب والمسببات، وأن يقيم اعتقاده على الإيمان بالله وحده الذى يأخذ بيده على صراط الله المستقيم، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وما دام هذا الدين هو الفطرة، فعلى كل مؤمن أن يرجع إلى ربه، وأن يعرف طريقه

إليه فى كل وقت وحين، فى سرائه وضرائه، فى صحوه ونومه، فى حركاته وسكناته:
 ﴿ مَبِينٌ إِلَيْهِ وَاقْتُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
 وَكَانُوا شِعَابًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

٣ - قال الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ
 مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٥].

جاءت الآيات السابقة لهذا المثل، والممهدة له، توضح حقيقة أولئك الكافرين الذين
 يؤمنون بالباطل ويكفرون بنعم الله عليهم، والتي تمثلت فى قدرة الله التى جعلت لهم
 من أنفسهم أزواجًا، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة، كما رزقهم من الطيبات،
 وأنعم عليهم بنعم كثيرة من الصحة والمال والعقل، ومع ذلك ألغوا عقولهم وتفكيرهم،
 فاتجهوا اتجاهات باطلة نحو عبادة ما لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضررًا، عبادة
 أصنام لا تملك من أمرهم شيئًا من رزق أو مرض، حياة أو موت، فهى مخلوقات
 ضعيفة قد حرمت صفة القدرة، والذى لا يملك التأثير فى نفسه لا يملكه فى غيره.

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
 بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ وَيَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا
 تَضُرُّوهُ لِلَّهِ الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٢ - ٧٤].

وقد أبانت الآيات أن الله جلت قدرته يعلم حقائق ما يأمر به عباده من فعل، وما
 ينهاهم عنه من باطل، ويبيده الأمر كله من نفع وضرر، وحياة وموت، ورزق وفقر،
 ونصر وهزيمة. والإنسان العاجز المخلوق قاصر عن فهم هذه الحقائق، جاهل بحقيقة
 نفسه، محتاج إلى الإيمان بخالقه، فكان هذا المثل الذى يوضح تلك الحقيقة الكبرى فى
 تلك الصورة المأخوذة من حياتهم الواقعية، وأمورهم الاقتصادية، حتى يكون العقل
 على إدراك كامل بحقيقة الموقف الذى ينحاز إليه.

صورة ذلك العبد الذى فقد حرите وأصبح خاضعًا لغيره، ذليلاً لمن يتحكم فى
 رقبته، وجهده، ووقته، فما يجنيه من عمل يحصل عليه سيده، وما يبذله من جهد إنما
 يذهب ريعه لمن اشتراه ودفع ثمنه، فهو بمثابة البهيمة التى لا تملك الدفاع عن نفسها

حين يراد ذبحها، أو بيعها، أو التصرف في أمورها، حرم ذلك العبد سمات الإنسان الذي يملك القدرة على التفكير، وإبداء الرأي، والتصرف في ملكه.

هذه هي صورة ذلك الكافر الذي نحت صنمه، وأخذ يسجد ويركع له، وهو من صنع يده، وقد أخضع نفسه وتصرفه لهذا الضعيف، يستشير في أموره، ولا يصدر رأياً، ولا يعزم على أمر إلا بالرجوع إليه.

هل يستوى هذا بمن رزقناه منا رزقاً حسناً: صورة أخرى تختلف عن الأولى جدية بالاحترام والتقدير، صورة السيد المالك لأمره، المتصرف في أمر نفسه وأمر غيره، الحر الذي يفعل ما يشاء، وهو الله سبحانه وتعالى خالق الموجودات، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وكل مخلوقاته له عبيد.

هل يستوى العبد بالسيد؟ وقيل: هو مثل مضروب للوثن، والحق تبارك وتعالى، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]: إيقاظ للنفس الإنسانية الغافلة كي تثوب إلى رشدها، وترجع إلى طبيعتها الجديرة بها، الطبيعة المفكرة العاقلة التي تعمركون، وتصل في نهاية المطاف إلى أن تكون في زمرة أولئك الذين يعلمون الحقائق، ويؤمنون بالله الواحد، ويمجدون الله على تلك النتائج التي وصلت بهم إلى العقيدة الصحيحة، والإيمان القوى، والمعرفة بحقيقة دورهم في عمارة الكون والاستخلاف في الأرض.

٤ - قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

هذا المثل يكمل الصورة السابقة، ويؤكد بما يحويه من مضمون تلك الحقيقة الكبرى التي ترمى إليها الآيات، حقيقة الألوهية، والابتعاد عن الشرك، فإذا كان المثل السابق تكلم عن العبد العاجز الذليل الذي لا يملك حريته، ولا يتصرف بإرادته، وإنما هو خاضع لغيره في كل تصرفاته، فهنا أيضاً رجل لا يستطيع أن ينطق، حرم نعمة الكلام، فهو عاجز عن التعبير عن حاجة نفسه، وعن إرادته، عاجزاً حقيقياً لنقص في أدوات الكلام، أو عاجزاً معنوياً لحرمانه من كمال العقل والتفكير، وبذلك حرم من سمة الإنسان الذي له إرادة، وحركة، وقدرة، وعمل، فهو مقهور، ويحتاج إلى من يتحكم فيه،

يسير حسب أهوائه، فنفسه خبيثة طبعت على الرضا بالهوان، والمسكنة، والخضوع، لا ينتظر منه خير فى مسلك أو عمل صالح.

أما الرجل الآخر، فهو كمنظيره فى المثل السابق الذى يملك ماله، ويتصرف بإرادته، ويفيض على الآخرين فى كل وقت وحين، له عمله، وحرية، وحركته البناءة التى تدل على حقيقة حاله، هنا أيضاً له أمره الذى يصدره عن عزة واقتدار، لمن يخضع لمشيئته، فلا يملك إلا التنفيذ وسرعة الاستجابة، أمر يصدر يحمل فى طياته النفع، والخير، والهدى، والعدل.

هذه الأمثال التى تناولتها سورة النحل سبقت فى إطار واحد لتوضيح حقيقة لا لبس فيها، ولا غموض لدى الإنسان الذى يملك إرادته، ويعرف الحكمة من وجوده، وهى أن العبودية لله وحده؛ لأن السلطان بيده، والحكم له، يأمر بالعدل، وينهى عن المنكر، وكل فعل يجب أن يكون فى إطار ما شرع الله، وعلى هدى سننه، وكل تحرك بالعمل، والفهم فى هذه الحياة التى يحيها الإنسان يجب أن يأخذ نوره وقبسه من شرع الله، ويبتعد عن أولئك الظالمين لأنفسهم، والمضلين لغيرهم، الذين تحكمت فيهم عقائد الجاهلية وغوايات الشيطان.

٥ - قال الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩]. هذا المثل أتى عقب آية قرآنية تشيد بأمرين جديرين بالتأمل والاستفادة، وهما:

(أ) أن الله اقتضت حكمته أن يكثر فى كتابه الكريم من ضرب الأمثال للتذكير، والعظة، والاعتبار.

(ب) وأن يكون ذلك فى معرض قرآنه الحكيم الذى أنزله بلسان عربى مبين؛ ليكون طريقاً إلى الإيمان القوى، وليكون علاجاً للنفوس المريضة التى لم تتشرب الإيمان الحقيقى، فيكون طريقاً إلى التقوى والخوف من الله جل فى علاه، ومراقبته فى السر والعلن، وخشيته فى الظاهر والباطن، والإيمان به إيماناً قائماً على أعمال الفكر، والتدبر، والنظر، والاستدلال، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

تبدو كل هذه المعانى فى ذلك المثل الذى يأخذ أمثله من الحياة التى يحيها الناس،

وما يشغل بالهم وتفكيرهم فى كل وقت وحين، يأخذ أمثله التى توضح فكرته التى يرمى إلى إيضاها، ألا وهى حقيقة الألوهية أيضاً التى تعزب عن بال أولئك المشركين، يأخذ أمثله من واقع الحياة الاقتصادية التى يجنونها، تتشابك فيها المصارع، وتتصارع الرغبات، وتبدو الاهتمامات، ويظهر الطمع والجشع، وتبدو النفس عارية على حقيقتها بما فيها من شرور وآثام.

يضرب الله المثل لأولئك الكافرين بما بين أيديهم من أدوات الحياة الاقتصادية التى يستخدمونها وهم العبيد. فهذا عبد مشرك حكم عليه بالعبودية، يتحكم فيه عديد من السادة، ويتنازعون فى رقبته، كل له رغبة قد تتفق وقد تختلف، وهذا العبد حائر بين أيدى سادته، لا يعرف له طريقاً، ولا يبصر له نهجاً ينقذه من حيرته وضلاله.

ورجل آخر مؤمن له سيد واحد يخضع لما يأمره به، وينفذ ما يريد دون أن تتبدد قواه، أو تتوزع نفسه بين جملة شركاء، يعرف طريقه، ويسير على هدى وبصيرة من الأمر، هل يستويان؟ لا شك أن الأول ضائع، معذب فى دنياه، والثانى منعم يشعر ببرد الراحة والهدوء فى سيره ونهجه. وكذلك من يعبد غير الله، ويتخذ آلهة له وشركاء فى عبادته مظلم النفس والبصيرة، ومن يعبد الله لا يلتوى به الطريق، ويعرف طريقه نحو خالق السماء والأرض.

لذلك ختمت الآية بقوله: ﴿ الحمد لله ﴾ الذى اختار لعباده الأمن والطمأنينة، وإن صدرت منهم أعمال تتصف بأعمال الجاهلية، وبعيدة عن روح الدين وحقيقة التوحيد، فآكثرهم لا يعلمون.

٦ - قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]. أتى المثل القرآنى عقب آية تندد بكل تفكير معوج، وبالعادات البالية التى سيطرت على أخلاق الكافرين فى أفكارهم، وباعدت بينهم وبين استلهاهم الضوء من مصدره الجدير بالاتباع والإيمان، فإذا بذل رسول الله نصحه لهم باتباع ما أنزل عليه، غلبت عليهم شقوتهم وأغضبتهم الجاهلية، وفكرهم المريض الذى يدعوهم إلى التقليد، ومسوخ الصورة الأدمية التى كرمها الله بالعقل والتمييز، وجعلها جديرة بالاستخلاف فى الأرض، ولذلك كان هذا الرد المعوج الذى تعرضه الآية القرآنية فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ كُورًا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

نعم يصرون على موقف، وهم يعلمون أنهم جاهلون بنتائجهم، ويصرون على الاتباع ولو كان يؤدى إلى الهلاك، وبخاصة وقد حرم أولئك المتبعون من السابقين من نعمة العقل والاهتداء، وإلا لكانوا فى موقف آخر من الإيمان، ومحو عار الجاهلية الذى لصق بهم، واستدعى إرسال الرسل إليهم، ودليل ذلك إصرارهم على معاداة النبى ومحاربتة، والوقوف ضد دعوة الإسلام، حتى بهذا التدنى فى المرتبة التى تصمهم بوصمة الحيوانية التى سلبت العقل والهداية، وهذا ما عرضه المثل بعد ذلك: ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١].

جو واحد، تشابهت فيه الأشخاص والدواب، وسلكت كلها فى مسلك واحد، لا تفكير، ولا اهتداء، وإنما اتباع مضلل، وطريق إلى الهاوية، نرى ذلك كله فيما يعرضه المثل من صورة أولئك المقلدين لغيرهم فى خطواتهم الضالة، والذين ألغوا عقولهم وتفكيرهم التى خلقها الله للاهتداء بها، فهم يرون الحق ويعرضون عنه، ويصرفون أنفسهم عن دلالاته وآياته، ويتبعون خطوات الشيطان، ويقولون على الله بغير علم، ولا دليل ولا برهان، وهم على فساد من الأمر.

صورهم الله فى هذا المثل بتلك البهيمة السارحة التى لا تفقه ما يقال لها إذا صاح فيها راعيها، بل هم أضل منها، فهى ترى وتسمع وتصيح، ولكنهم: صُم، بُكم، عُمى، مع وجود هذه الحواس، ولكنهم معطلون لها، ولا تؤدى وظيفتها التى خلقها الله من أجلها، صُم لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم، بُكم لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم، ولا يعقلون مبدأ ما هم فيه، ولا غايته كما يطلب من الإنسان، وإنما ينقادون لغيرهم كما هو سائر الحيوان. وهؤلاء الكفار هم المشركون الذين تكرر منهم القول: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

صورة تحذر من اتباع الشيطان، وتعطيل الفكر عن المعرفة والهداية، وتلقى أمر الله والشريعة من غير الجهة التى يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة.

٧ - قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. جاء هذا المثل بعد آيات أربع افتتحت بها سورة الجمعة، وتناولت هذه الآيات:

(أ) تمجيد الله وتعظيمه بذكر صفاته، وخضوع المخلوقات من إنس، وجن، وسماء، وأرض، له، وتسبيحها بحمد الله، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَنْتَفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

(ب) اختيار رسول الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور من جنس العرب؛ ليتلو عليهم آيات الله.

(ج) رحمة الله شملت غير العرب الذين آمنوا، ومن بقى من أمة محمد من الأجيال اللاحقة.

(د) أسبغ الله نعمًا كثيرة على عباده الذين أراد لهم الهداية، وجدير بمن يعرف هذه النعم أن يوفىها حقها من الذكر، وحق موجدتها بالطاعة والعبادة والتوحيد، حتى يكون من جملة المسبحين والمعترفين بفضل الله.

أما أولئك القوم الذين ضرب بهم المثل من اليهود الذين كانوا فى عصر الرسول، وعرفوا حقيقته من الآيات التى بين أيديهم التى تحويها التوراة، وما عرفوه من علامات، حتى أنهم كانوا يستفتحون على غيرهم من الكفار بأنهم سيتبعون الرسول الذى سيرسل، وسيكونون عونًا له عليهم، فلما أرسل الله محمدًا، عليه الصلاة والسلام، إذا بهم ينكرون الرسالة ويحاربونه أشد محاربة؛ لأنهم كانوا يحسبونه من قومهم ومن جنسهم.

هؤلاء القوم الذين كلفوا العمل بالتوراة، ولم يؤمنوا بمحمد، ولجأوا إلى التأويل والتحريف والتبديل، ضرب الله لهم المثل بالحمار الذى يحمل فوق ظهره كتبًا تحوى كنوز المعرفة واليقين، ولا يدرى عنها شيئًا، ولا ينال من حملها إلا الثقل دون فائدة، بل هم أسوأ حالًا من الحمار؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء هم فهم لم يستعملوها.

وفى هذا التصوير القرآنى دعوة واضحة لكل ذى لب أن يستوعب علم ما يحمل، وأن يتفهم جوانبه وأهدافه ومرامييه، حتى لا يلحقه الندم من جراء جهله بما معه، والذم ممن يراه، وأن يعمل بمقتضى ما فيه من نهج صالح، ودعوة بناءة فى الحياة الدنيا، وسعادة فى الآخرة.

إنها دعوة المعرفة التى تنتظم جوانب النفس، وجوانب المجتمع والحياة زراعة، صناعة، تجارة، حتى تصل إلى كفايتها التى تطمح إليها، ثم تصل فى نهايتها إلى المعرفة

الروحية، وهى صفاء القلب، وتفتح العقل ونوره، حتى لا يكون مظلماً، وغير قادر على العمل، فالعقل مصدر كل شىء، والتقدم مرهون بتشغيل عقول الناس.

ومن خلال هذا المثل نرى الفرق واضحاً بين مَنْ عَطَّلَ حواسه، ومن أحسن استغلالها فى فائدة تعود عليه، فمثل ﴿الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

وبعد استعراض تلك الأمثال القرآنية التى تناولت فكرة الاعتقاد والدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الذى يتجه إليه بالعبادة، ويفرد بالتعظيم والإجلال، وتطهير النفوس من غواشى الجهالة التى تسيطر عليها، فتحول بينها وبين الإيمان الصحيح القائم على استخدام العقل والفكر.

ولذلك كانت رسالة محمد ودعوته إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وما يتبع ذلك من أمور اعتقادية، هى من صميم الفكرة الأم التى دعا إليها القرآن، ونادى بها رسول الله، فإله هو خالق الخلق، وهو المحيى والمميت.

وإذا كانت هناك حياة، فلا بد وأن يكون هناك موت، وإذا كان هناك موت، فلا بد أن تكون هناك حياة أخرى للحساب، والعقاب، والمجازاة على الأعمال التى كانت وحدثت من الإنسان فى دنياه، فلا يعد الإنسان إنساناً إلا إذا كان صاحب إرادة، وصاحب عمل يصدر عنه، ويكافأ عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذا هو مقتضى العدل الإلهى الذى وضعه الله للإنسان فى دنياه وأخراه، وبذلك كان التمييز عن بقية المخلوقات التى تكون تراباً، والمخلوقات الأخرى فى ملكوت الله الواسع العظيم التى خلقها لتكون فى يومها الموعود على غير ما هى عليه فى الدنيا من نظام مرسوم.

حياة دنيوية هى مقر الإنسان، ومحل العمل، يترتب على ذلك جزاء وثواب، وعقاب فى الدنيا وفى الآخرة.

هذا هو طريق الإيمان الذى يجب أن يسلكه المؤمن فى اعتقاده، ولذلك كان البعث، والنشور، والحساب، من مستلزمات هذا الإيمان، والكفر بذلك يقتلع فكرة الإيمان من جذورها، ويجعلها لا تقوم على أساس، آمن بذلك القدامى، وسيطر ذلك على

اعتقاداتهم، وظهر هذا فيما تركوه لنا من آثار تشهد لهم بالإيمان بفكرة البعث والحساب بين يدي الله سبحانه وتعالى منذ آلاف السنين، وما تلك الآثار التي تطل علينا من أهرامات وشواهد إلا شاهد صدق على حقيقة هذا الاعتقاد، ودليل على سلامة ما كان يفكر فيه أولئك القوم.

إلا أن لوثة من الفكر السقيم سيطرت على مجموعات أخرى من الشعوب الجاهلة، قد اندست وترسبت في أعماقهم، فجعلتهم يكفرون بالحياة الأخروية، وما بها من حساب، وعقاب، وبعث، ونشور، واعتقدوا أن ذلك ضرب من المحال، ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فكان أولئك الدهريون أولى بأن تتجه إليهم الأمثال القرآنية؛ لتحارب هذه النزعة الفاسدة من نفوسهم، وتدعوهم إلى الإيمان بفكرة الجزاء، والثواب، والعقاب.

٣ - البعث والنشور والحساب:

من كمال الإيمان بالله سبحانه وتعالى، الإيمان بكل ما جاء من قبله في كتابه العزيز، وقرآنه الكريم.

وكما دعانا إلى الإيمان بوحدايته، وعدم الإشراك به، دعانا كذلك إلى الإيمان باليوم الآخر، والاعتقاد الكامل في أن هناك حساباً وعقاباً يوم القيامة، يوم تجزى كل نفس بما عملت في دنياها من خير أو شر.

وكما أنه لا يقبل في حكم العقل أن يتساوى محسن مع مسيء في دنيانا، لذلك كانت هناك آخرة لأيام الإنسان مهما طال، ولا بد له أن يموت مهما طال به الأجل: ﴿ فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]، ﴿ أَفَإِنَّمَا أَتْنَا بِعِظَامٍ وَعِظَامًا أَتْنَا لَمَبْعُوثِينَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]، ﴿ أَفَإِنَّمَا أَتْنَا بِعِظَامٍ وَعِظَامٍ أَتْنَا لَمَبْعُوثِينَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ ﴾ [ق: ٣].

بذلك قضى الله، وكما حكم بالموت على الإنسان حتى الأنبياء، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

جعل هذا الموت نهاية لكل حي في دنياه، ثم بيعته مرة أخرى يوم القيامة، حيث

الحساب والعقاب، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، حيث النعيم الأبدى، والعقاب الأبدى.

هكذا جاء فى القرآن الكريم، وفى شرع الله، ولكن هذه الحقيقة صدمت الكثيرين من أهل الجاهلية فى اعتقاداتهم التى ورثوها، وأخذوا يتناقلونها من أن الموت نهاية كل حى، ولا حساب، ولا عقاب، ولا بعث، ولا نشور، وإنما هى أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر.

وتصور الآيات القرآنية هذا التفكير والاعتقاد، ونسيان الآخرة، وما أعد الله فى هذا اليوم الموعود بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

اعتقدوا هذا الاعتقاد، وسيطر على تفكيرهم، حتى أنهم أرجعوا ذلك إلى الدهر، وما يأتى به من أحداث. كان هذا التفكير مقدمة إلى تفكير أهل الزيغ والإلحاد فى العصر الحاضر، الذى يقول بالطبيعة وما تجر به من أحداث.

الدين وما يأتى به فى القرآن الكريم تحارب هذا اللون من التفكير، والابتعاد عن استخدام العقل والمنطق فى تصحيح المسار، فكل شىء خلقه الله من حياة، وموت، وصحة، ومرضى، وسعادة، وشقاء، ورزق، وفقر، والقادر على الإحياء قادر على الإماتة، والقادر على الإنشاء والبده قادر كذلك على إعادة مرة ثانية.

ودليل هذا من واقع الحياة، فالإنسان الذى ينشئ شىء من غير نموذج سبق، يستطيع بعد ذلك أن يعيد ترتيبه وإعادة من جديد دون صعوبة فى ذلك.

وهكذا جابه الرسول ﷺ ذلك الكافر الذى أتى بعظم قد رُم، وفتته بين يدي رسول الله، وقال: يا محمد، أيجبى الله هذا بعد أن تفتت وأصبح رميمًا؟ قال: «نعم، ويدخلك النار».

فإنه قادر على أن يجعل العظم الرميم إنسانًا، فقد خلقه أصلاً من ماء مهين، ثم تطور فى بطن أمه حتى ولد، وصار إنسانًا يجادل ربه ويخاصمه، ويطلب منه الدليل والبرهان، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

فإذا كانت النطفة أصل الإنسان، وسر نشأته الأولى، والله قادر على أن يجعل منها إنساناً، فهو قادر على أن يجعل العظم الرميم إنساناً.

استبعد ذلك الكافر إعادة الله ذى القدرة العظيمة، التى خلقت الشمس والقمر، والسماء والأرض، للأجسام والعظام الرميمة، ونسى نفسه الذى خلقه من ماء مهين، وأنه خلقه من عدم، وهو بكل خلق عليم، يعلم العظام فى سائر الأرض، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت، يجمعها بعضها إلى بعض، ويبعث فيها الحياة.

فلا مفر من الوقوف بين يدى الله للحساب على الصغيرة والكبيرة التى اقترفت فى الدنيا، فكل نفس بما كسبت رهينة، وعمل الإنسان واعتقاده هما المقياسان الجديران بالتقدير والإكرام، ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَامِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٦ - ١١].

وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّئِيِّنَ لَكُمْ وَبِقُرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

فى هذه الآيات استدلال على إمكان البعث، وإحياء الناس من قبورهم بتلك الأدلة المشاهدة بين أيدي الناس من واقع تكوينهم فى بطون أمهاتهم، وتطور حياتهم إلى نهايتها، ومن إحياء الأرض الهامدة بذلك الماء الذى يحييها بالخصب والنماء، فالله قادر على إحياء الموتى، وأن أمر الساعة حقيقة لا يصح أن تكون مجالاً لشك أو ريبة، وأن الله يبعث من فى القبور لحسابتهم على أعمالهم فى دنياهم التى أحصاها عليهم فى كتاب مبين، ولا يظلم ربك أحداً، ولذلك جاءت الآية الكريمة فى سورة يس: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، لتفيد قدرة الله على إحياء الموتى يوم القيامة، وأن أعمال الإنسان وأفعاله مسجلة عليه فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيجزى كل إنسان

بأعماله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم أعقب هذه الآية بذلك المثل وتلك القصة التى تناولت تلك القرية التى حاربت رسل الله إليها، وما كان من وراء ذلك من نتائج بالغة للفريقين، الذين آمنوا، والذين كفروا.

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ؕ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِيْلِكُمْ لِمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ قَالُوا إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ لَيْتِن لَمْ نَتَّهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ ؕ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنِ لَّا يُسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّى إِذَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لى رَبِّى وَجَعَلَنى مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿ ١٣ - ٢٧ ﴾ .

أمر من الله لرسوله، عليه الصلاة والسلام، أن يقص على كفار مكة، ومشركى قريش، ومن يناصبونه العدا، وينكرون ما يدعو إليه من دين ورسالة، وإيمان بالبعث والنشور، والحساب يوم القيامة.

يقص عليهم قصة تلك القرية الظالمة، التى جاءها رسل الله يبلغونهم دعوة الله، فقبولوا بالتكذيب؛ لأنهم بشر مثلهم، وكان الله فى اعتقادهم يجب أن يجعل رسالته فى جنس آخر من الجن، أو من الملائكة، حتى يكون كلامهم مسموعاً، ومصداقاً، ومسلماً بصحته، وكانت الحاجة بين الفريقين، حاول الفريق المؤمن أن يثير فى نفوس أولئك الكفار دوافع الإيمان، بأن الله يعلم حيث يجعل رسالته، وأنهم لو كذبوا على الله فى التبليغ لانتقم منهم، وأنه سيعزهم بنصره وتأييده، وستكون العاقبة لهم، والفرصة سانحة للهداية، فإن أطعتم ربكم، كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة، وإن لم تستجيبوا كانت العاقبة وخيمة، وكانت جهنم وبئس القرار مثوى لكم.

ثم كملت صورة المثل بموقف ذلك الرجل الصالح الذى سمع أولئك الدعاة،

ووعى ما يدعون إليه من أمور صالحات، فدعا قومه إلى الاستجابة لهم وعبادة الله الجدير بالطاعة والعبادة؛ لأنه الخالق القادر، الذي لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، وييده الخير، وهو على كل شيء قدير.

أما ما يعبدون من آلهة، فهي عاجزة عن حماية نفسها، وحماية عابديها، ولكن الكفار عاجلوه بالقتل، فأدخله الله جناته جزاء لظهارة نفسه، وثبات يقينه، وشدة تمسكه بالحق، ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

تمنى في موقفه بين يدي ربه أن يحظى قومه بذلك الظل الظليل من النعيم، بإيمانهم بالرسول، واتباعهم لأوامر الله.

هذا مثل مضروب لأصحاب قرية ظالمة، وأمر الرسول بأن يقصها على كفار قريش، فالمواقف متشابهة بين أصحاب القرية وكفار قريش، والأحداث تكاد تكون واحدة، والنتائج أيضاً واحدة، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وما أطلق الله عليه مثلاً، فهو مثل لاستجماع شروط المثل فيه كما قدمنا من متمثل له، ومتمثل به، وتصوير حال، وتحقيق هدف.

فالعبرة من وراء هذه القصة واضحة، في الدعوة إلى الاستجابة لكل دعوة ببناء، والإيمان القوى القائم على الدليل والبرهان، وبخاصة إذا كانا مأخوذين من واقع الحياة.

وقد أدى هذا المثل الغاية المقصودة من ورائه، في لفت الأنظار إلى ما حدث قديماً من أمور في مجتمعات لا تختلف كثيراً عما يحدث في مجتمعات أخرى بعد حين من الزمن قد يطول، وقد يقصر، فالنفس هي النفس، والتفكير يتشابه، ويحتاج الأمر إلى الصبر، ومحاولة الإقناع بالدليل وبالبرهان، ويعرض ما يراد عرضه بأسلوب يجذب الأنظار، ويقنع العقل، ويرضى المنطق، وبخاصة لو صيغ هذا المثل في ثوب فضفاض من القصص والأسلوب الحوارى الذى تبدو فيه الشخصيات المتنوعة، وما تعرضه من واقع وأحداث تكون بمثابة الدليل والبرهان على ما يعرض من أمور العقائد، وبخاصة الأساسية منها من إيمان بالله وحده، واتباع للرسول فى كل ما يأتى به، الإيمان بالبعث، والحساب، والنشور، الطاعة لله فى كل أوامره.

الرسول ما عليه إلا البلاغ، العمل من أجل الآخرة، الجهاد باب من أبواب الجنة.

الترغيب والتحفيز:

المعركة بين الخير والشر، والحق والباطل، والطيب والخبيث، تدور رحاها منذ أن خلق الله الإنسان من صلصال من همأ مسنون، وأمر ملائكته بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس، أبى أن يكون مع الساجدين، وكانت تلك بدايات الصراع الذى أدى إلى الهبوط إلى الأرض، بعضهم لبعض عدو، فكانت المعركة ضارية، لا يحمد لها أوار، ولا تطفأ نارها.

وقد تتكاثف الظلمات، ويضعف الحق فى فترة من الفترات، ولكن إلى حين، فإن النور لا بد وأن ينبثق، ويعلو صوت الحق، وقد كتب الله فى محكم قرآنه: ﴿لَا غَلِبَنَّ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقد حفل القرآن الكريم بالآيات التى تحمل فى طياتها كل معانى الخير، والدعوة إلى العمل الصالح، وتحبب المؤمن فى التفوق على شهوات النفس، ولذائد الحياة التى تطغىها، وتخرج بها إلى دائرة الحيوانية الرخيصة.

وأبواب الترغيب كثيرة، تشمل الحياة بأسرها، وبكل ما تحتاج إليه من جهد، وطاقة، وعلم، وتقى، وصلاح، يحقق سعادة النفس فى الدنيا، ويمهد لذلك اللقاء الباقى فى الآخرة، حيث يجد كل إنسان ما عمل من خير محضراً.

لذلك كانت الدعوة من الله هى دعوة إلى العمل الصالح، وترغيب فى خير يشمل خيرى الدنيا والآخرة، فى الأوامر التى تدعو إليها، والنواهى التى تنهى عنها، والتكاليف التى تلزم بها، والإلتقان فى العمل عن طريق المراقبة لله، وممارسة العبادات، فإن الوقت الذى يقضيه المرء فى العبادة هو شحن لطاقة الإنسان بقوة جديدة، ونشاط زائد، فالصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت حتى يومنا هذا، وقد فشلت العقاقير فى معالجة كثير من المرضى، فلما عجز الطب تدخلت الصلاة، فأبرأت الكثير من المرضى.

وقد يبدو فى ظاهر هذه التكاليف بعض المشقات التى يكابدها الإنسان، أو المتاعب التى يضيق بها حيناً، كالامتناع عن الطعام والشراب شهراً من شهور العام، أو الأموال التى يخرجها عن نفسه وماله، ولكن لو نظر الإنسان نظر تبصر واعتبار، لعرف أن الله جل جلاله برّ رحيم بعباده، يدعوهم إلى الحسنى فى كل شىء، وينأى بهم عن الشر،

ويخوفهم من مغباته، وما يجره على النفس من مهالك.

وإذا كانت الأساليب المرغبة فى الخير، والناهية عن الشر، قد تنوعت فى أساليب القرآن من أخبار، وقصص، وتذكر لأحوال، وأمر، وتعجب، واستفهام... إلخ، وكان لها من التأثير ما يملك القلوب، ويصل إلى العقول، فتكون الاستجابة، والإقبال على الطاعة، فإن سوق هذا الترغيب والتحذير فى ثوب الأمثال ما يكون له من الإقناع، وتجلية الأمور الخفية وإيضاحها أكثر من وصف الشئ ذاته، وعرضه عرضاً مباشراً، فكأنه يعطى المعنى، والدليل عليه، ويعرض الغائب فى سورة المشاهدة، وهذا سر تأثيره.

ومن الملاحظ أن الترغيب فى الإيمان إذا كان مجرداً عن ضرب مثل به، ولم يتأكد وقوعه فى القلب، كما يتأكد إذا مثل بالنور، أو بشجرة طيبة، وإذا كره فى الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه فى العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، أو بشجرة خبيثة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور، وضرب مثله بنسج العنكبوت، كان ذلك أبلغ فى تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً^(١).

وبعرض هذه النماذج القرآنية المتقابلة تتضح الحقائق، حقائق النفوس، وحقائق الحياة، ويعرف الإنسان موقفه بين يدي ربه فى الآخرة، وليس هناك من رادع عن الشر، وزاجر عن الوقوع فى معصية، من عرض قصة، أو تبيان حالة، كما أنه ليس هناك من داع إلى الخير، ودافع إلى الإحسان، من التمثل بحال من الواقع، وسرد لحقيقة يصحبها الدليل والبرهان.

هكذا النفوس جبلت على الاقتداء، والإيمان بالممارسة والعمل، ولذا فإننا حين نعرض للأمثال القرآنية فى هذا السبيل الداعى إلى الخير، فإننا نتمثل الإنسان وما يصدر عنه، وما يحيط به، وما يقع منه، وكذلك نعرض لهذه الأمثال التى تحذر من الشر، والوقوع فى برائنه، والتأثر بمغريات الحياة وشهواتها من مال، وولد، وجنس، وكل ما يجعل للشيطان سبيلاً إلى سيطرته على النفس، والمعتقد، والفكر.

أتت هذه الأمثال كما سنراها شاملة لجانبى الحياة من خير وشر، ومن فضيلة ورذيلة، حتى يسهل عن طريق الموازنة والمقابلة، الحكم على الأشياء، وبضدها تمييز الأشياء.

(١) من كتاب هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، للشيخ على محفوظ (ص ١٧٧).

ولا يحتاج هذا الأمر إلى دراسات مذهبية، ولا فلسفات فكرية، بل يصل إلى الاقتناع بها الكبير والصغير، والعالم والجاهل؛ لأنها من واقع الحياة، ومن ممارسات الإنسان، ولا تختلف فى ذلك عقائد، أو نحل، ولا ينكرها إلا كل مكابر، يرى ضوء الشمس، فيعمى عن النظر، ويرى الحقائق، فيغض الطرف عنها.

اعتمدت هذه الأمثال على مشاهد من الطبيعة الواقعة تحت أبصار الناس، من زرع، ونبات، وريح، وكلها مشاهد تولد فى النفس اليقين، وتعين على التبصر فى الأمر، والاقتناع بالنتائج، وقد أضيف إلى ذلك مسلك آخر فى الاعتبار، وهو ما حل بالسابقين من تجارب، ﴿ وَسَكَّتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وهو مثل حى مبسوط أمام الأعين، لا يغيب عن أنظار الناس، يعطى دلالاته فى كل لحظة، والعامل من اتعظ بغيره، وهو يقوم على عرض بعض القصص، كما فى قصة أصحاب الجنة.

﴿ إِذْ أُنسِمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتِثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَيْنَا حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَيْنَا حَرْثٌ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [القلم: ١٧ - ٣٢]، حرمهم الله من ثمارها، فرجعوا على أنفسهم باللوم، والاعتراف بالخطيئة .

وكذلك قصة صاحب الجنتين مع صاحب له من ذوى الإيمان الأول تبطره النعمة وينسى الله، ويعتقد أن ماله أخلده، والثانى معتز بإيمانه، ذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، وموجبة لحمد الله وشكره: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنَّ

أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنى خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلَبْ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿الكهف: ٣٢ - ٤٤﴾.

١ - قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ يُثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

سبق هذا المثل بتبيان مواقف الكفار المخزية فى يوم يتحقق فيه وعد الله الذى كفروا به، وهو يوم القيامة، ولم يجدوا فيه نصيراً يدفع عنهم العذاب، حتى أن الشيطان الذى وسوس لهم وزين لهم المعصية فى الدنيا، نفى عن نفسه مسئولية كفرهم، وحملهم نتيجة أعمالهم، فما كان منهم من كفر، إنما كان بسبب رغبتهم فى الشر، وحبهم للمعصية، فاللوم واقع بهم، ولا لوم عليه، فهؤلاء الكفار يتحملون وزر شركهم وعباداتهم الباطلة، وما يقع بهم من عذاب، إنما هو جزاء ظلمهم وكفرهم.

وأما موقف المؤمنين، فهو موقف مغاير لذلك الموقف المخزى، موقف أصحاب الحق، وإخلاص النية، فلهم جزاء النعيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، يجدون فيها جزاء أعمالهم الصالحة، وتحيتهم فيها سلام.

مواقف واضحة الدلالة، ظاهرة الاعتبار لمن أراد أن يذكر، فأخذها من الآيات القرآنية: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لى عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لى فَلَا تَلْمُزُونى وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ إِنى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢، ٢٣].

ويعقب تبيان هذه المواقف المتقابلة هذا المثل القرآنى الذى يتعرض للكلمة، وما لها من نتائج فى النفوس، وتأثير فى القلوب، وتغيير فى الاتجاهات، فالله سبحانه وتعالى

يضرب هذا المثل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ [إبراهيم: ٢٤]؛ ليصور للناس سنته الجارية فى الطيب والخبيث فى هذه الحياة بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة.

فالكلمة الطيبة هى كلمة الحق، وهى أساس الوجود، ولا تستطيع قوى البغى والطغيان أن تقضى عليها، أو هى كلمة التوحيد، فهى كالشجرة الطيبة، ثابتة، مثمرة، متعالية، فبدورها تثبت فى تلك التربة الخصبة، وكذلك الكلمة الطيبة تثبت فى النفوس الطيبة، وفى ظل هذا ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والقول الثابت: بكلمات القرآن، وبالعمل الصالح، وبكلمات الإيمان، يكون العون من الله، والتثبيت للذين آمنوا.

وأما الكلمة الخبيثة، فهى على النقيض من ذلك، هى كلمة الشرك والباطل التى تعمل على إفساد الحياة، وفى نشر بذور الشر فى كل مكان، وفى كل نفس، وهى كالشجرة الخبيثة التى قد تتشابك أغصانها، وتتعالى فروعها، ولكنها لا تثمر إلا ثمراً مرّاً، ولا تعطى فائدة، وفى نفس الوقت لا تتحمل أية هزة، فلا قرار لها ولا بقاء.

وفى ظل هذه الكلمة الخبيثة ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] بسبب ظلمهم وشركهم، واتباع الهوى، وتمكن الخرافات والأباطيل من نفوسهم القلقة المضطربة، يفعل الله ما يشاء بإرادته المطلقة.

مشاهد من قصص المؤمنين والمكذبين، ومصير هؤلاء وهؤلاء، وصور تتضح فيها النفس التى يزيكها صاحبها فيفلح، والنفس التى يسوقها صاحبها إلى الهاوية من خلال ما رأينا فى المثل من مقابلة وموازنة بين حالتين يلمسهما السامع والقارئ، فينحاز إلى ما هو جدير به أن ينحاز إليه من عمل صالح، وابتعاد عن الطالح من الأمر، وقد يفهم من هذا التصوير أن المؤمن مثل الشجرة، لا يزال يعطى من ثماره فى كل وقت، صيفاً وشتاءً، ليلاً ونهاراً، وكذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل آناء الليل وأطراف النهار، وفى كل وقت وحين. والكلمة الخبيثة تمثل كفر الكافر، لا أصل له، ولا نبات، ولا فرع، ولا يصعد له عمل، ولا يتقبل منه شىء.

وفى هذا المجال يأتى دور العالم والجاهل فى بناء هذه الحياة، وما يؤثران به فى مجريات الأمور، فإذا زلّ العالم زلّ العالم زلّ بزلته عالم.

فقد يتعرض الغافل والجاهل لسقطات فى الحياة تجر عليهما أوحم العواقب، وقد

يغفر الناس لهما هذه الزلات؛ لجهلها وغفلتهما، ولكن الذى لا يُعْتَفَرُ أن تقع هذه الزلاتُ ممن يدرك أبعادها، ومن يقصد إلى غايتها، ويميل به الهوى، ويجر على نفسه ومجتمعه ودينه الدمار والهلاك.

وفى مقابل ذلك صلاحٌ يؤدى إلى صلاح الحياة والعالم، فهذا العالم بمثابة الرأس من الجسد، والقلب من الإنسان، له أجره المضاعف، وثوابه الكبير بما ينطق به من قول طيب، وما يسطره من فكر.

وإذا كان قد بدأ بالإنسان وما يصدر منه من قول وعمل، وما إلى ذلك من مؤثرات فى النفس والمجتمع فى الكلمة الطيبة والعمل الصالح، وفى مقابلهما من كلمة خبيثة وعمل خبيث يؤديان إلى فساد الحياة والنفس، فإنه فى التدرج التالى لهذه الكلمة الطيبة كلمة الحق، وما لها من أثر نافع لا يزول مع الأيام، والكلمة الخبيثة كلمة الباطل الذى يذهب جُفاء.

تدرج نراه فى ذلك المثل الرائع الذى صورته لنا الآية الكريمة فى تلك الصورة التى استمدت جزئياتها من الطبيعة بما فيها من أرض وسماء، ومن حياة الناس فيما يتخذون من أدوات مستخدمة فى الحياة، كل ذلك امتداد طبيعى لتقوية وتثبيت الفكرة الأساسية، التى بنى عليها المثل السابق من طريق الخير المؤدى إلى الفلاح، وتبيان طريق الضلال والشر المؤديان إلى الفساد.

٢ - قال الله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْنَغُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

أتى هذا المثل عقب آية قرآنية حوت كل قيمة بناءة فى بناء العقيدة الصحيحة، من الاعتقاد، والإيمان بالله رب السموات والأرض، وأنه الجدير بالعبادة والطاعة وحده، وأن الانحراف والشرك بالله باتخاذ تلك الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، إنما يعد نقصاً فى الإيمان والتفكير، وخروجاً عن حد الاعتدال، فلا يصح فى حكم العقل أن يتساوى الناقص بالكامل، والأعمى والبصير، والظلمات والنور، وكذلك لا يتساوى من يده القدرة على الخلق والإيجاد، وغير الخالق، فالله خالق كل شىء وهو الواحد القهار:

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ
أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦].

قيم عالية تدعو إلى الإيمان بالله الواحد القهار الذى لا يغلبه شىء، ويحتاج إلى تثبيت
من واقع الحياة، كما يظهر ذلك فى المثل القرآنى.

فى المثل موقفان متقابلان، للحق فى ثباته وبقائه، وللباطل فى اضمحلاله وفنائه،
فالحق مهما توارى زمنًا لا بد وأن يعلو، والباطل مهما يرتفع فإنه لا محالة زائل، وقد
ضرب الله المثل حتى لا ييأس أصحاب الحق، وحتى لا يغتر أصحاب الباطل.

يضرب الله بهما المثل من واقع الحياة التى يعيشها الناس، فيرون فيها الباطل وقد
ظهر أمره، وفشا فى المجتمع وعلا، حتى أنه يغطى ما عداه من كلمة الحق، ولكنه فى
حقيقة أمره زيد أو خبت ما يلبث أن يذهب جفاءً، لا حقيقة له، ولا تماسك فيه، فهو
كالزبد الذى يعلو فوق سطح الماء، ولكنه لا يثبت معه، يتكوّن ثم يضمحل، وكخبث
الحديد الذى يعلو فوق الذهب حين انصهاره.

أما الحق، فهو الباقي الساكن الهادئ كالماء الذى يجيب الأرض بعد موتها، فتسيل به
الأدوية على قدر الحاجة، أو المصلحة حسبما اقتضته مشيئة الله وحكمته، فينتفع به من
مختلف الوجوه، ويمكث فى الأرض، يبقى بعضه فى منابعه، ويسلك بعضه فى عروق
الأرض، إلى العيون، والقنوات، والأنهار. وكالمعدن الصريح الذى ينفع الناس فى
الحلى، والأمتعة كالأواني، وآلات الحرب، ويدوم ذلك مدة طويلة.

وقد يحسب بعض الناس فى فترات من الزمن أن الغلبة للباطل بحكم ما يرون من
سطوات الظالمين، وقهر الرجال، والتحكم فى الرقاب، وأن الحق قد انزوى، فلا تسمح
له الحياة بالبقاء، أو التغلب على الباطل وأعوانه. هذا الظن، أو الاعتقاد، فى غير
موطنه، فالله قد حكم فى محكم قرآنه بقوله: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ
كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وهكذا مصير كل دعوة حقة، وكل معتقد يقوم على أساس، ونهاية كل عمل طيب،
وكل قول طيب، ينقذ الإنسان من نفسه، فلا يتملكه الغرور، ولا تتحكم فيه شهوة

تدفعه إلى المهالك.

وكم جرَّ الغرور على أناس من المهالك، فأودى بهم إلى الجحيم، ومثال ذلك واضح من واقع ما عرض القرآن من صور أولئك الذين استبد بهم الغرور فقتلهم، من قصة قارون الذى دفعه الجهل والغرور إلى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، فكانت نتيجته ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [القصص: ٨١] طريق الانهيار الذى يبدو فى الجهالة المهلكة بحقيقة الكون وخالقه، وحقيقة الإنسان وقدراته، وطبيعة النفس البشرية، وما لها من حدود لا تتعداها فى ملكوت الله.

هذه هى الضوابط التى يجب على المؤمن بحق أن يتخذ منها سلاحاً واقياً ضد نزوات الحياة، وخداع الفكر، ونسيان الله خالق هذه الحياة والجدير بالعبادة الحققة، وإذا تخلى الإنسان عن هذه الضوابط، وتسربت إليه النفس الأمارة بالسوء فى المعتقد والفكر، والعمل، فإن هذا يؤدى به فى النهاية إلى الهاوية، ويخرج من هذه الحياة صفر اليدين خاسراً، لا يملك ما يقدمه بين يدي ربه من صالح الأعمال، وهذا المثل القرآنى يوضح هذه الحقائق.

٣ - قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا^(١)﴾ [الكهف: ٤٥].

ذكرت آيات قبل هذا المثل توضح حقيقة النفس التى تنسى الله فى وقت الرخاء والنعمة، ولا تذكره جلت قدرته إلا فى وقت الأزمات والشدائد، حين يمسه الضر، وتقع بها المصائب فى وقت الرخاء، وإسباغ النعم، تستغرق فى شهواتها ولذائذها، ويتحكم فيها غرورها، ونزوات الحس، وتنسى خالقها الذى أنعم عليها بجليل النعم، وحبها من فضله بالكثير من صحة، وعقل، وتكريم.

صاحب الجنة نسى الله فى نعمه الكثيرة، ولم يعط حق الله فى هذا المال لأصحابه من فقراء ومحتاجين يقاسمونه الحياة بما فيها، فأصبحت هذه الجنة خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس، ولم يجد من أحد عوناً فى موقفه يزيح عنه ما نزل به من بلاء، أو يخفف

(١) مقتدراً: قادراً على الكمال، ومن جملة الشئ: الإنشاء، والإفناء.

عنه وقع المصيبة التى ألت به، أو يمد له يد المساعدة فى أزمته؛ لأنه قطع هذه اليد بجرمانها من مال الله، ونفض عنه عون المعينين له بتلك السيئات التى بدرت منه فى حقهم، ونسيانه حق الأخوة والإنسانية لمن يعيش معه فى ظل هذه الحياة التى تحتاج إلى التكافل والتعاقد، والمواساة فى الضراء، والعاقل من عمل لغده وعرف حقيقة حاضره، وأن الأمر بيد الله الذى يثيب على العمل الصالح الباقي إلى يوم الدين.

أما ما نراه من مظاهر الحياة الدنيوية، وما بها من مغريات، فهى إلى زوال، ما لم تحط بالشكر، ولم تؤد الحقوق إلى أصحابها، ولم يصحبها غرور النفس ونسيانها لموجدها، ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٢ - ٤٤].

وهذا التيار الذى يسير فيه ذلك المثل القرآنى، وهو علاج ما يبدو فى الحياة من اغترار بظواهرها، وما تزخر به الدنيا من متع وشهوات خادعة للإنسان عن حقيقة نفسه، ونسيان ماله ومصيره عاجله مثل آخر قرآنى، وهو قول الله تبارك وتعالى فى سورة يونس:

٤ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا^(١) أَتَاهَا أَمْرُنَا^(٢) لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ^(٣) كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ^(٤) لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

المغريات كثيرة من مال وبنين، و صنوف مأكّل ومشرب وملبس، ولكن سريعاً ما تنقضى وتزول بهجتها ومناظرها الخادعة، وتنهار أمام أعين من يعرف حقيقتها، بذهاب رونقها وبهائها، فهذه الدنيا بما فيها من زينات ومتع شبيهة بحال تلك الأرض التى أرسل الله عليها المطر، فأبنت ما يسر الناظرين، ثم نزلت بها جائحة من السماء،

(١) قادرون عليها: متمكنون من الاستمتاع بها.

(٢) أتاهنا أمرنا: أهلكها الله بقدرته بجائحة.

(٣) كأن لم تغن بالأمس: هلكت فجأة، فلم يبق من ثمرها شيء، حتى كأنها لم تنبت.

(٤) نفصل الآيات كهذا المثل، وما يوضحه من حال الدنيا، واغترار الناس بها، أو نفصل حقائق

فأهلكتها قبل الانتفاع بها، وتحول النبات النضر مهشوماً تفرقه الرياح كأن لم يكن، وكان الله على كل شيء مقتدرًا، فهو القادر على الإحياء والإفناء، والكل بيده، وإليه المصير.

أمثلة شاخصة ناطقة تعرض نماذج أولئك الطغاة الذين يظلمون أنفسهم، وينقضون عهد الله من بعد ميثاقه بتوحيده وشكره وطاعته، وتذكره في كل حين، فهذه هي سمات المؤمن الحق، إن أصابته نعماء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، أما من ينسى الله في وقت النعمة، والراحة، والطمأنينة، ولا يذكره إلا في وقت الشدة والضيق ووقوع المصائب، فلن تكون حاله إلا حال ذلك النبات الذي صار هشيمًا تذروه الرياح بفقدان عمله، وضياح ثوابه، وذهاب أجره يوم القيامة.

٥ - قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِيبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

سبقت هذه الصورة الموضحة لحقيقة الدنيا، وما بها من مظاهر الغرور بآيات تبين مواقف جدية بالإعجاب والتقدير، وأخرى لا ينال أصحابها إلا الخزي، والعذاب المهين.

أما مواقف التقدير، فينالها الذين استجابوا لدعوة الله في الإنفاق في سبيله، وبذل المال عن طواعية ورغبة في الأجر من الله، ذلك الأجر المضاعف في ثوابه ونعيمه، ولأولئك الذين آمنوا بالله وبما أنزل وأرسل، ثم جاهدوا في الله حق جهاده، وفي سبيل نشر كلمة الله منهم بذل، وعقيدة، وتضحية نفس متكاملة في إيمانها لا تغتر بما في الدنيا من مغريات المال، وحب النفس، والشهوات والتفاخر بالأهل والعصبية واللهو والزينة واللعب.

أما الذين كفروا بربهم وكذبوا بآيات الله، فقد حرموا هذه المنزلة التي ساقها الله في أول الآيات، ولا منزلة لهم إلا في الدرك الأسفل من النار، ملازمون لها، لا ينفكون عنها بحال.

﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ

كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿[الحديد: ١٨، ١٩].

جاءت آية التصوير للدينا وما بها من غرور، تحمل فى ثناياها الترغيب والتحذير، فهى توضح لنا مظاهر الاغترار بالدينا، فمتاعها غرور لا حقيقة له، إن اطمأن بها الإنسان، وجعلها ذريعة للأخرة، ومثلها فى ذلك مثل ذلك المطر الذى يعجب الزراع، والذى أنبت نباتاً كثيراً استطال حتى نضج، ثم ما لبث أن اصفر وأخذ فى الجفاف، ثم صار هشيمًا متكسراً، لا يبقى منه ما ينفع، وفى الأخرة عذاب شديد لمن آثر الدينا، وأخذها بغير حقها، ومغفرة من الله ورضوان لمن آثر الأخرة على الدينا.

وقال ابن كثير: ضرب الله المثل للحياة الدينا فى أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة بالمطر الذى يأتى بعد قنوط، فيعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث، كذلك تعجب الدينا الكفار، فإنهم أحرص على كل شىء فيها.

ومن خلال هذه الأمثلة العديدة التى ذكرت للدينا التى تغرر بالإنسان بما فيها من لهو، ولعب، وزينة، وتفاخر بالأنساب والأحساب وكلها على خلاف ما يعتقد الإنسان الجاهل، قُوى ضعيفة لا تسانده مساندة حقيقية.

إنما العاقل الراشد فى تفكيره هو الذى يعمل لأخوته، كما يعمل لديناه، وأن يفهم حقيقة ما يدعو إليه الدين من عدم التكالب على حطامها، والتفانى فى جمع المال، حتى لا يكون ذلك سبيلاً إلى التقاطع والتباغض بين الناس، فمن يغرق فى حاضره ويغفل عن الأخرة، تصدق عليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

وهو ولا شك يغرر بنفسه، ويجلب عليها المتاعب بفعل ما يتسم بالتهور، والاندفاع، والطيش، وينقلب الأمر إلى حسرة، وندم كفاقى عينيه عمداً، فلا يبصر طريقاً، ويندم حيث لا ينفع الندم.

أما قصة ذلك المثل العربى، فكما تروىها كتب الأدب، تتلخص فى أن رواية الشاعر: الفرزدق، قال: أتتى التَّوَارَ زوجة الفرزدق، وقالت: كلم هذا الرجل أن يطلقنى، فأتيت الفرزدق، وقلت: يا أبا فراس، إن النوار تطلب الطلاق، فقال: ما تطيب نفسى حتى

أشهد الحسن، فأتى الحسن بن علي، رضى الله عنه، وقال: يا أبا سعيد، اشهد أن النوار طالق ثلاثاً، قال: قد شهدنا.

قال: فلما صار فى بعض الطريق، قال للنوار: طلقتك؟ قالت: نعم، قال: كلا، قالت: إذن يخزيك الله عز وجل، يشهد عليك الحسنُ وصحبه، فترجم، فقال:

ندمت ندامة الكسعى لَمَّا غَدَتُ منى مطلقَةً نَوَارُ
وكانت جنتى فخرجت منها كَأَدَمَ حينَ أخرجهُ السِّرارُ
فكنت كفاقى عينيه عمداً فأصبح ما يضىء له النهار
ولو أنى ملكت يدى وقلبى لكان علىَّ للقدَر الخِيار
وما طلقته شبعاً ولكن رأيت الدهر يأخذ ما يُعار

٦ - قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

أتى المثل القرآنى عقب آيات فضحت موقف أولئك الكفار، الذين ناصبوا الإسلام العداء، وظلموا رسول الله ﷺ وصحبه، ولم يتقبلوا دعوة الحق، بل عاندوا، فهؤلاء ينتظرون يوماً شديداً يتجرعون فيه كأس المهانة والذلة، ولا يستطيعون له دفعاً، فهو يوم القيامة بما فيه من عذاب غليظ نتيجة أعمالهم السيئة والظالمة.

وقد عبرت الآيات عن هذا كله تمام التعبير فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧].

أما ما كان لأولئك الكفار من أعمال تبدو فى ظاهرها خيرة وصالحة، فيوضحها المثل القرآنى الذى أتى؛ ليبين لنا حقيقة هذه الأعمال، وأنها لا قيمة لها ما لم تكن مستندة على باعث نبيل يدفع إليها من إيمان، وعقيدة صحيحة، فهؤلاء الذين يعبدون غير الله، ويكذبون الرسل، ثم يقومون بأعمال فى ظاهرها الخير، والمنفعة، والعمل الصالح، تضيع كلها سدى، ولا ينتفع أصحابها بشيء من نتائجها التى تشبه ذلك الرماد الذى تنثره الرياح فى اليوم العاصف فى كل مكان، فلا قيمة لهذه الأعمال التى قاموا بها فى دنياهم ما لم تستند إلى إيمان حقيقى بالله، وبموجد هذا الكون، والتطابق بين

الظاهر والباطن هو دعوة الإسلام الحقيقية، ولذلك فإن أولئك الذين تعبر عنهم الآية القرآنية الآتية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥]، لا مكانة لأولئك الناس الذين لهم ظاهر يغرى، وباطن يؤذى، وكلاهما من الضلال البعيد، كما عبرت الآية فى المثل القرآنى.

٧ - قال الله تعالى: ﴿ وَسَكَتْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

سيق هذا المثل فى جو يبرز موقف الكافرين الذين ظلموا الرسول، فلم يؤمنوا بما جاء به، وظلموا أنفسهم، فألقوا بها فى المهالك جزاء عنادهم وإصرارهم على الباطل، ومتابعة الشيطان، فالله سبحانه وتعالى ليس غافلاً عما يفعل الظالمون، وسيكون لهم ذلك الجزاء الذى يتناسب مع أعمالهم فى يوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين مقنعى رءوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، ويتملكهم الفرع والرعب، ولا يستطيعون لهذا العذاب دفعا، حتى أنهم يتجهون إلى الله بالدعاء أن يكتب لهم حياة دنيوية أخرى يصلحون فيها أحوالهم، ويتبعون الرسول، ولكن هيهات، فقد بان منهم الكفر، وظهر منهم العناد، ووضحت حقيقتهم فى معارضتهم لآيات الله، واعتقادهم بأنه لا قدرة لأحد على إماتتهم، وأن دنياهم هى آخر المطاف، فلا رجعة مرة أخرى، ولا حياة ثانية يؤمنون بها.

كل ذلك تناولته الآيات القرآنية، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً وَأَنْذِرَ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبُّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا أَمْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤].

هذه الآيات مهدت لما يأتى فى المثل، فهى تجعل اللاحق كالسابق فى اعتقاده، وموقفه، وعقابه؛ لأنه ارتدى ثيابه، وسلك طريقه، وأخذ بتعاليمه، وصد صدوده، وسكن فى مساكنه.

فهذا المثل يضرب لكل طاع ومتجبر يسكن مساكن الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم، فكانت عاقبتهم الهلاك، ومع ذلك لا تؤثر فيه تلك الآثار الباقية التى تتحدث

عن أولئك الهالكين وتاريخهم، فلا يتعظ ولا يعتبر.

يضرب الله المثل بما حل بالأمم السابقة، وبما أنزل عليها من عقاب جزاء كفرانها بآيات الله، وبما أرسل من رسل، فظلموا أنفسهم وعرضوها لعذاب الله فى الدنيا بتلك النقمات التى حلت بها، وبما أنزل عليها من عقاب، حتى صارت إلى ما صارت إليه.

ومع ذلك لا يجد فيها أولئك المشركون بالله فى عهد الرسول ﷺ ما ينذرهم ويخوفهم، أما كان الأجدر بأولئك المشركين أن يجدوا فى ذلك درساً لهم واعتباراً بما حدث؟ إنه أمر لا يحتاج منهم إلى كثير تفكير، وإعمال عقل، فهم ولا شك خلفاء للسابقين الذين كانت لهم تلك الديار التى لحقتها الدمار والهلاك، وسيكون المصير هو المصير، والعقاب هو العقاب، ولكن هل من معتبر؟.

تحذير وتخويف يأتى به المثل لمن سبق، ويأتى به أيضاً لمن لحق، ولمن سيأتى بعد ذلك.

إن يد الله غالبية، وليس فى مقدور أحد مهما طالت قوته، أن يفلت من عقاب الله، وأن العذاب لكل كافر لاحق مهما اختلف نوع الكفر، وكثر النسيان لما أوجد الله من نذر، ودروس تفيد من له مسكة من عقل، وقدرة على التفكير، والنظر فى العواقب، وما لنا لا نتعظ ونحن نرى فى كل يوم أناساً على آلة حذباء محمولين، يطويهم الثرى، وتغمرهم مياه البحار والمحيطات، وتنزل بهم صواعق السماء، وبراكين الأرض، وأمراض العصر الظاهرة والمستترة، وما يجد من أشياء تغيب عن العقل، ولا يستطيع لها فهماً أو تعليلاً.

ويكفى أن يردد المرء قول الله مالك الملك، ومدبر الأمر: ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

سكن واقتداء بالظالمين، وظلم للنفس، ومكر، وجهالة أدوات للتعطيل، والتعرض للهلاك، يقوم بها ذلك الإنسان الغائب عن وعيه، السادر فى أخطائه، فكيف يكون المصير؟ ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل: ١١]، صدق الله العظيم.

الإفناق فى سبيل الله:

لم تحظ دعوة بعد دعوة التوحيد بمثل ما حظيت به تلك الدعوة البناءة للمجتمع الإسلامى، أفراداً وجماعات، دعوة أخذت بحجزه عن الوقوع فى الهاوية والانهيال، فى

وقت اختلت فى الموازين، وتفشت فى عوامل الفساد فى كل شىء، فى معتقداته، فى اقتصادياته، فى طبقاته، فى نظمه وعاداته.

وإذا رجعنا إلى التاريخ السحيق قبل بعثة الرسول، عليه الصلاة والسلام، وفى أيام بعثته، وجدنا دولاً كبرى تتمثل فى فارس والروم، ووجدنا أنظمة رأسمالية بشعة بكل طغيانها وتحكماتها، واستغلاها لكل جهد وحق، وإهدارها لكل قيمة من القيم النبيلة فى سبيل تحقيق أهواء حكامها، وشهوات أصحابها، ونظرتهم الطبقة المهينة، كما نجد فى صفوف هذه المجتمعات أيضاً طبقة العبيد الذين يكدون ويكدحون، ويحرمون من أجورهم، فلا حق لهم فى مال، ولا حق لهم فى تملك، وإنما إذلال لأدميتهم وكرامتهم، واستغلال بشع لجهدهم وجهدهم، وحرمان من التملك الذى هو سمة المخلوق البشرى الذى خلقه الله وميزه على بقية المخلوقات.

وشبيه بتلك المجتمعات الكبرى المجتمعات العربية، وما بها من أوضاع لا تختلف عن تلك الأوضاع السيئة المزرية، فيها الإقطاع بكل صورته وأشكاله، الطبقات من سادة، وأشراف، وعبيد، وألوان، وقبائل، وحضر، وبادية، أدت كل هذه الاختلافات إلى تباين شاسع يعيش فيه المجتمع العربى، ويمزق صفوفه، ويسرع إلى انهيار بنائه.

لذلك ساءت فيه أوضاع القوم، ولم يبق إلا ذلك البصيص من النور الذى يشع فيضعهم على الطريق، ويأخذ بأيديهم على أول درجة من درجات الفهم الواعى لروح الدعوة المنتظرة، دعوة السماء إلى الأرض، دعوة الإسلام، بدأ ذلك بتلك الدعوات السماوية التى أرادت أن يكون بناء تلك الأمة الجديدة بعيداً كل البعد عن روح التكليف والفرض والإلزام، وهى أمور يأنف منها الإنسان، أى إنسان، فما بالك بالعربى الذى يجد حرته وتحقيق وجوده فى الانطلاق فى أرضه وسماؤه، دعوات إلى الحب والتألف، وهو الهدف الأول للدعوة الإسلامية، أن توجد روح المحبة فى النفوس، وتؤلف بين القلوب برباط متين لا تنقضه الأيام.

لذلك كانت الدعوة إلى البذل والعطاء، والإنفاق فى سبيل الله، تتكرر فى كثير من المواطن، وتتفق فى روحها وأهدافها، وتثير فى المؤمن دوافع الشفقة، والإحساس بما يفرضه الواجب عليه حيال غيره فى المجتمع والأمة، وحيال الأفراد والجماعات، السبل كثيرة، وتبقى أن تلتقى معها النفوس الكثيرة أيضاً فى إنفاقها وبذلها، وكل ما يعلى من

شأن الأمة، ويؤدى إلى نفعها، فهو أمر من الله، وفى سبيل الله، من إعداد جيش، وعتق رقاب، ونشر دين، ومقاومة لظلم، وإنشاء مدارس، وملاجىء، ومستشفيات، ومؤسسات تخدم المجتمع... إلخ.

إنفاق خالص لوجه الله، لا يحدد بكم، ولا توضع له مقاييس، إلا ما يضعه المؤمن لنفسه، وما يتفق مع رغبته المحبة للخير، المتعاونة على الحق، والقاضية على تلك الرواسب القديمة التى حملها ذلك الجيل من ماضيه، فى أحقاده وكرهيته، والإنسان الذى يبخل بماله أو يكنزه، إنما يؤدى إلى تعطيل الحياة، فالمشروعات التى تخدم المجتمع والكثيرة التكاليف إنما تحتاج إلى مال سائل يساعدها على النهوض والكمال، وحبس المال إنما هو تعطيل لتلك المرافق أن تقوم بدورها، لذلك كانت الآيات القرآنية:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

استجاب المؤمنون لهذه الدعوات، وتلاقت مع نفوسهم وقلوبهم المحبة للخير، والبذل، والعطاء، فكانت تلك النماذج الرائعة من الصحابة الذين بذلوا كل ما لهم فى سبيل الله، فقد رأينا عثمان بن عفان، رضى الله عنه، يجهز جيش العسرة من ماله، ورأينا غيره ينفق ماله فى سبيل إطعام الجياع عام الرمادة، ولكن قد تضمن بعض النفوس بماها، وتبخل بالعطاء، فالإنسان خلق قنوراً، ولذا فقد فرض الله الزكاة التى تؤخذ من ما لهم وترد على فقرائهم بطريقة معينة لا تنقص أبداً، ولا يكمل إيمان الفرد إلا إذا أعطاها وقدمها.

فرضها الله سبحانه وتعالى فى الأموال، والزروع، والثمار، وفى الغنم، والماشية، وفى الذهب، والفضة، وجعل لذلك أنصبة معلومة، وعاقب من قصر فى أدائها، بل لقد حارب أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، المرتدين الذين أنفوا أن يخرجوا الزكاة، واعتبروها جزية، حاربهم وقضى على المانعين لها؛ لأنها ركن من أركان الدين، وهى طهرة للمال، تنفى خبثه، وتعين على بناء الحياة والمجتمع، وهى حق للفقراء والمحرومين، لذلك كانت فرضيتها إيداناً ببداية جديدة لمجتمع جديد متماسك، كل فرد فيه له حقوقه قبل الآخرين، وليس لأحد أن ينفرد بشيء لا يعطى حقه للحاكم وولى الأمر.

وبذلك الطريق الذى رسمه الله سبحانه وتعالى استقام أمر الجماعة المسلمة، ونجح المؤمنون فى إقامة ذلك الصرح المشيد الذى قاوم الطغاة والبغاة، وكانوا رسل هداية وإنقاذ للمحرومين والمستعبدين فى مشارق الأرض ومغاربها.

ولم يتأخر بنا الزمن، ولم تضع فرص الحياة الناجحة أمام أعيننا إلا حين فرطنا فى أداء الواجبات التى أتى بها القرآن الكريم، وتراخينا فى القيام بتكاليف الله وأوامره وأركانه كما يجب أن تكون.

إن الله سبحانه وتعالى بما فرضه من فرائض، وبخاصة الجوانب المالية والمادية التى يلتزم بها المؤمن، لا يقصد إلى التضييق على النفس، ولا تعذيب الإنسان، وإنما هو اليسر كما قلنا سابقاً، والنظرة إلى الجماعة التى تحتاج إلى كل لبنة صالحة فى هذا المجتمع، ومن هذه المتطلبات الصغيرة التى يخرجها المسلم من ماله وزرعه، إنما يتكون ذلك الصرح الكبير الذى لا يهتز ولا تضطرب أركانه أمام أحداث الدهر.

ولننظر إلى هذه الآيات فى مواطنها العديدة، والتى تعطى صورة حية مؤثرة فى نفس المؤمن، آيات حوتها أمثال قرآنية عاجلت أمور المال، وكيف يستغل، وكيف يخرج المؤمن؟ وأثر ذلك فى الدنيا والآخرة.

١ - قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِثَّةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

جاء المثل القرآنى عقب آيات تبين موقف إبراهيم، عليه السلام، الإيمانى من ربه، يطلب منه المعرفة؛ لأنه مصدر المعرفة فى اليقين، معرفة كيفية إحياء الموتى، ولم يكن ذلك عن شك فى الإمكانية، أو زعزعة فى العقيدة، وإنما لزيادة الطمأنينة فى القلب المؤمن.

وهكذا يكون المؤمن فى كل مواقفه، يطلب الزيادة والطمأنينة فى العقيدة، والثبوت من الفكرة الصالحة التى تعود على صاحبها باليقين والثواب العظيم.

وما حب الإنسان للمعرفة، والعلم، وزيادة اليقين، إلا طريق للفضل، وزيادة الثواب، قال الله تعالى فى هذه الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ

إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٦٠﴾.

ثم أتى المثل الذى يعالج حب المال، وكيف يكون هذا الحب طريقًا أيضًا إلى زيادة الفضل والثواب، فقد طبع الإنسان على حب المال، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، ولذلك تتحكم فى نفسه شهوة الشح به، والضن عن الإنفاق، وتتحكم فيه الأنانية، والمصلحة الخاصة، فيبخل ويحرم نفسه من ذلك الثواب الذى أعدده الله، ووعد به فى دنياه وأخراه.

وقد صورت الآية القرآنية هذه النزعة الشحيحة فى قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

والإنسان مع هذا الشح والبخل، فقير إلى الأجر والثواب، وبم حاجة إليهما، كما هو بم حاجة إلى المال، وحاجته إلى الأجر والثواب أكثر، لذلك كانت الدعوة إلى الإنفاق، وما يترتب على ذلك من مضاعفة الأجر فى تلك الصورة المشرقة التى عرضتها الآية القرآنية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فتلك الأموال التى تنفق فى سبيل الله، وفى سبيل مرضاته، لن تضيع هباء، بل ستكون مضاعفة الأجر والثواب حسب قوة الإيمان فى صاحبها، وحسن نيته، وعمق إخلاصه، كتلك الحبة التى بذرت فى أرض خصبة، فتأتى بتلك الغلة المضاعفة.

لا حرج على الله فى أن يضاعف الأجر حتى على الشئ القليل، ففضله واسع الرزق، عليم بنوايا المنفقين، ويعطيهم أجورهم حسب إخلاصهم، ومن يبدأ الطريق فله أجره، وأجر من يستن بسنته، لا ينقص ذلك من أجورهم، كما قال رسول الله ﷺ، وليس هناك من عاقل يسمع هذه الدعوة ولا يبادر إلى مصلحة نفسه بالأجر المضاعف فى دنياه، والثواب العظيم فى أخراه، ف﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وكما قيل فى المثل العربى: رُب زارع لنفسه حاصد سواه.

فالإنسان الجدير بهذا الاسم لم يخلق لنفسه، وإنما خلق لينفع نفسه وينفع غيره ممن يعيش معه أو يأتى بعده بأوجه النفع العديدة، من مال، وعلم، وخلق، والعمل الصالح

يصل من صاحبه إلى الآخرين، فيتأثرون به، ويقتدرون، ويعملون، وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ فى حديثه عن الجليس الصالح: «إما أن يجذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد ريحاً طيبة».

وهكذا كانت الحكمة الإلهية من وراء الزكاة المفروضة لإعادة الاعتدال إلى تلك المجتمعات الخربة، التى تبدو فى تفاوتات عجيبة، ومستويات متناقضة، تئن من كثرة ما بها من أمراض اجتماعية واقتصادية.

إعادة التوازن فى هذه المجتمعات لا يكون إلا بالعطاء الناجم عن الاقتناع، والبذل للحق المعلوم الذى فرضه رب العباد، وهو العالم بالحقائق، الخبير بما يصلح البشر، ويزيل ما بها من أحقاد وكرامية قد تؤدى إلى أوحم العواقب، من قتل، وحروب، وصراعات عديدة، تأكل الأخضر واليابس.

٢ - قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

الجو العام للآيات السابقة للمثل هو الدعوة للإنفاق فى وجوه الخير، وفى سبيل الله، وبذل المال، وإعطاء المحتاجين، وإخراج حق الله فى هذا المال الذى أنعم به على الإنسان وجعله مستخلفاً فيه، يخرجه عن طيب نفس، وغير مقرون بمن يضيع من ثوابه، أو أذى يؤلم نفس الآخذ، وفى ذلك الثواب العظيم من الله سبحانه وتعالى، ولا خوف على المنفق من ضياع مال فى الدنيا، أو حرمان من ثواب الآخرة، بل فى هذا العمل سرور نفس، وطمأنينة قلب، ورضا عن الفعل والعمل، وخير للإنسان الذى لا يملك ما يقدمه أن يرد رداً جميلاً، فلا يلفظ بما يجرح كبرياء الإنسان، أو يهين كرامته.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣].

يعرض المثل القرآنى صورة تلك النفس الإنسانية التى تصدر أعمالاً خيرة، وتبذل المال، وتنفق الكثير، ثم تتبع ذلك بما يطفىء نور العمل الذى قدم، بقول خبيث، ولفظ جارح، وعمل سيىء، يذهب الثواب، ويضيع الأجر، فالمرأى وما ينفقه كمثل ذلك

الحجر الناعم الذى يتراكم عليه تراب ناعم، ثم ينزل عليه مطر شديد أذهبه، ولم يبق منه شيئاً، فالمراءون لا يستطيعون الحصول على شىء من ثمرة إنفاقهم إذا أصابهم غضبه تعالى، أو أحبط أعمالهم، كما لا يستطيع الحجر إمساك ما عليه من التراب إذا أصابه مطر.

ما المقصود من الصدقة؟

أن ينظر فيها إلى صالح الفرد، فتخفف من يؤسه، وتعالج من حاله، وترفع من معنوياته، وتقضى عنه حوائجه التى يحتاج إليها كما ينظر فيها إلى صالح المجتمع والأمة بتحقيق المصالح العامة، والمشاركة فى المشروعات الخيرية التى يعود نفعها على الجميع، بذلك يكون المتصدق قد أصاب الهدف، وحقق الغرض، أما إذا كان يبغى من وراء ذلك المراءاة للناس، وطلب السمعة الحسنة بين الآخرين، بأنه رجل محسن، وصاحب فضل، أو يلحق ما أنفق لإيذاء لمشاعر الآخرين الذين قدم لهم معروفًا، فمثله فى عدم انتفاعه بما عمل، بذلك الحجر الأملس إذا كان عليه شىء من تراب، ثم أصابه مطر غزير أزال عنه ما أصابه، فعاد أملس كما كان. وكذلك الذى يتبع ما أنفق بالمن والأذى، أو المرائى بعمله، قد وضع نفسه موضع المهانة وغش نفسه، وأظهرها على غير حقيقتها، ولا ينتفع بشىء من صدقاته، بل يجلب المقت لنفسه من الناس، والذم من المجتمع، وضياع الثواب فى الآخرة.

وهكذا يكون الجزاء والثواب، أو العقاب والحرمات، بمقدار النوايا الطيبة، والرغبات الصالحة، ولن يجنى الإنسان من عمله إلا ما عمل، والعاقل من يحذر تعريض نفسه لمواقف يجد فيها خطأ لكرامته فى دنياه، أو يطأطأ الرأس أمام من يملك عليه أمره، ويحصى عليه هفواته.

٣ - قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

فى الآيات السابقة ظهرت موبقات العمل الصالح، وعوامل محقه من رياء أمام الناس، وطلب للسمعة، ومن بتعداد النعم التى قام بها للمنع عليه، وأذى من لفظ جارح أو قول غليظ يؤلم النفس ويجرح الكرامة، وفى هذا المثل المكمل تجرى تلك

الموازنة والمقابلة بين حالتين: سابقة ولاحقة، ففى هذا المثل نرى كيف يُحفظ الثواب لصاحبه، ويدخر له فى دنياه وآخرته، لا يضيع عليه شىء من عمله وجهده.

عرض المثل صورة للمخلص فى صورة ناطقة بالعمل، والخير، والأمل، والإنتاج، صورة تلك النفس الخيرة التى تبذل ما بيدها، وتنفق ابتغاء مرضاة الله، ودليلاً على تمكن الإيمان من القلب هذه النفس التى استكملت عناصر نجاحها مادة وروحاً، كتلك الجنة التى استوفت كل عناصر الخصب، والحياة، والجمال، فى موقعها الفريد، ووفرة المياه، وما بها من شمس، وهواء، وشجر، ثم نزل عليها مطر شديد، فأدى ذلك كله إلى ثمار مضاعفة، وخير كثير، فالجنة تثمر كثيراً، قلّ المطر أو كثر، وهكذا نفقات المخلصين تنمو عند الله العليم بدوافع كل ذلك من إخلاص فى النية، ورغبة فى النفع، قلّت هذه النفقات أو كثرت، ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾، فهو عليم بمن خلصت قلوبهم فى الصدقة، فلم يتبع رضا أحد غير الله تعالى، فيجازيها على إخلاصها واحتسابها الخير لوجه الله.

٤ - قال الله تعالى: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تُكَوَّنَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

صورة مكملّة للصورة السابقة، وتمثل نهاية النفقة، والصدقة التى اتبعت بالمن والأذى أو بالمراعاة، تلك النهاية التى هى الحق الكامل حتى لم يبق من أثرها شىء يفيد صاحبها، فأصبح عاجزاً لا يجد ما يستند إليه فى موقفه، فهو شبيه بذلك الشيخ الفانى الذى كبرت به السن، واحترقت جنته التى يعتمد عليها فى معاشه، وكبرت عياله، وقلّ كسبه، فلا يملك من إنتاجها شيئاً.

موقف مؤلم لذلك الذى قدم الحسنة، وأتبعها بما يحققها، كتلك الجنة التى أتى عليها الإعصار بناره المحرقة، فى وقت الحاجة إليها، ولا يستطيع لذلك دفعاً، أو لها إنقاذاً.

وقد يكون الحق فى الدنيا، فالذى ينفق ماله يكون له من الجاه والسلطان، ما يرفع من مكانته فى مجتمعه، ويفتح له الأبواب المغلقة، ويقضى مصالحه المادية والدينية، فإذا ذهب ماله، ذهب جاهه، واحتاج إلى ما غرست يده، فيحول دون ذلك ما كان له من منٍّ ماحق، أو أذى، أو رياء، فيحرقها.

وكذلك عاقبة أهل الرياء والمن، تبديد للجهد، وضياع للثواب، وشعور بالندم، والحسرة على ما فات.

والجدير بالمؤمن الخائف من ربه أن يقدم لغيره ما يحفظ عليه كرامته فى دنياه وأخراه، فلا ينطق إلا صدقاً، ولا يقدم صالحاً. والسخاء الحقيقى ما خلص من تلك المعكرات، والشوائب التى تضيع الثواب.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: كيف يستثمر المؤمن أمواله؟

إن الدعوة للإنفاق، والعطاء، وفرض الزكاة فى أموال الأغنياء لتعطى لفقراء المسلمين، وأصناف المصارف التى حددها القرآن الكريم، كل ذلك ليس سبيلاً إلى السرف والتبذير وتضييع المال، وإنفاقه فى وجوه غير مشروعة، وتبديد له فى غير فائدة، وإنما ذلك يعتبر نوعاً من الاستثمار المحقق الفائدة، الذى يعود على صاحبه بالخير والفائدة، فالمال ينمو بالزكاة، ويسجل لصاحبه الأجر فى الدنيا والآخرة، وهذا نوع من الجزاء لن يتحقق فى أى لون آخر من ألوان التبائع والشراء.

ولكن أيكفى بهذا العطاء القاصر على إخراج حق معلوم للسائل والمحروم؟ أو يمكن أن يضاف إلى ذلك مصارف أخرى تحقق فائدة أعم وأشمل؟.

إن مقتضيات الأحوال الآن قد اتسعت فى احتياجات أفرادها، وإسهام رءوس الأموال فى تهيئة الوسائل التى تعجز الحكومات عن الوفاء بها، لضيق إمكاناتها المادية، وعجز مواردها عن تلبية رغبات الناس، وما يجتد من أمور فى الحياة.

إن نظرة واعية لما يكابده المجتمع من أزمات اقتصادية، واجتماعية، وصحية، تلقى على عاتق كل مسئول أن يكون إيجابياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فالمسئولية ليست قاصرة على الحاكم ومن يشغل المناصب المسئولة، وإنما يتعدى ذلك إلى النظرة الشاملة التى حددها رسول الله ﷺ فى حديثه: «كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته»، فصاحب المال راع، ومسئول عن تصريف ماله واستثماره فى وجوه تعود بالنفع على نفسه وعلى مجتمعه الصغير والكبير، فالإسهام فى إعداد المشافى، وتهيئة الأماكن والأدوية؛ للقضاء على الأمراض المتفشية فى المجتمع، والقيام بدور إيجابى فى تعليم الأمة، والقضاء على الأمية، وكذلك مساعدة الحكومة فى مشروعاتها الكبرى التى تعجز عن القيام بها بمفردها، إنما هو نوع من الاستثمار المطلوب فى المال الذى وضع

بين أيدينا، وتحملنا أمانة إنفاقه فى الوجوه المشروعة.

إن مجالات الاستثمار عديدة، ويستطيع كل صاحب مال أن يقدم الكثير من الفكر البناء الذى يطور المجتمع، ويقدم المال الذى يقضى على البطالة المتفشية فى المجتمع، ويهيئ المجال للسواعد الفتية أن تعرق فى استصلاح الأرض، والقضاء على الإدمان، وحل أزمة الإسكان، كلها استثمارات تنبثق من روح الدين، وتتفق مع أهدافه ومراميه، وتمشى مع حاجيات المجتمع، وتقنذى بما فعل الصالحون من آباء لنا وجدود، عرفوا حق الله، وحق العباد، وحق النفس، فأعطوا لكل ذى حق حقه.

٥ - قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧].

سيق هذا المثل بآيات تعرض لنا حال من سبقنا من أمم سارت على النهج، فكان منهم من يتلو آيات الله، ويؤمن بالله واليوم الآخر، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويسرع إلى عمل الطاعات، فكل هذه الأعمال التى قاموا بها، لها أجرها وثوابها عند الله سبحانه وتعالى، وهناك أقوام آخرون لا يرتفعون إلى مستوى أولئك السابقين فى جهادهم، وأعمالهم الصالحة، مع تشابههم فى امتلاك المال، وكثرة الأولاد، والتمتع بأطياب الحياة وما فيها، ولكن الطريق يختلف، والنفس غير النفس.

قال الله تعالى فى حق الفريقين السابقين: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٦].

ثم يأتى بعد ذلك المثل القرآنى، ليعرض حال أولئك الكافرين الذين كانوا حريصين على أموالهم، وأولادهم، وحياتهم، وأنفقوا بعض أموالهم فى الخير، بحال تلك الريح ذات الصر المهلكة للزرع، فهم لا يستفيدون منها شيئاً، وليست مانعتهم من الله، وهم أصحاب النار، وكل الذى بذلوه من مال وأنفقوه، إنما ذهب أدراج الرياح وهلك،

فليس له أثر، حتى ولو أنفق في مجال الخير.

ومن المفسرين من جعل هذا فيما ينفقونه في عداوة النبي ﷺ ومقاومة دعوته، سواء كان المنفقون هم مشركى مكة، أو اليهود، أو المنافقين، رياءً أو تقية، وقد وصف الله هؤلاء الذين أهلكك الرياح حرثهم ﴿بأنهم ظلموا أنفسهم﴾ عقوبة لهم؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم الضلال، أو إفادة أن المنفقين لا يستفيدون شيئاً؛ لأن حرث الكافر يذهب، ولا منفعة له فيه فى الدنيا والآخرة، بخلاف حرث المؤمن، وبذلك يتقرر أن لا جزاء على عمل، وأن لا قيمة لعمل إلا إذا ارتبط بمنهج الإيمان، أو باعته الإيمان.

وهناك شىء آخر نستفيدة من هذا المثل القرآنى، أن الكوارث والمصائب قد تحل بأموال الناس من إهلاك حرث، أو فقدان نسل، عقوبة على ذنوب اقترفوها، أو نتيجة لأسباب خلقها الله بحكمته تبعاً لارتباط الأسباب بالمسببات، مثل ما حل بالسابقين من طوفان مغرق، ونار محرقة، وإهلاك بالجراد، والقمل، والصفادع. حقاً ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، صدق الله العظيم.

ومن هذا التابع فى الآيات القرآنية نرى احتفال القرآن بالجانب المادى الذى ينفع الفرد والمجتمع، والحياة بكل متطلباتها، فالقرآن قد نزل لبشر فيهم القوة والضعف، والغنى الفقر، وذلك ليتسامى بهم عن شهوات النفس ولذائذها إلى ما هو أسمى، من جعل المال فى خدمة الإنسان، وتحرير الإنسان من ربة المال.

والإيمان بإله واحد، يستلزم بأن الكون له قواميس ثابتة، وأن البحث وراءها يؤدى إلى الإيمان بالقدرة الإلهية المسخرة لهذا الكون، والخضوع لكل ما يأمر به الله من أوامر لصالحه، ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رُقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

وقد كان أصحاب محمد ﷺ فيهم الأغنياء والفقراء، جمعهم معاً أصرة الأخوة، يؤاكلونهم ما يأكلون، ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] على حين كان معسكر قريش على خلاف ذلك، واشتد الصراع بين المعسكرين حتى كانت النصر للدين الجديد الذى لا يعترف بالتفرقة، أو التمييز لأحد على آخر إلا بمقياس التقوى والعمل الصالح.

ونزلت فى ذلك المعسكر القرشى وزعمائه آيات القرآن الكريم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي

يَكْذِبُ بِالذِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿١﴾ [الماعون: ١ -
٧].

ونزلت سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْلُوكٍ ﴾ [المسد: ١ - ٥].

عرفت قيمة المال الحقيقية عند أصحاب محمد، فاستخدم فى وجهه الأمثل لنفع
الحياة، وتسيير الدعوة، والأخذ بيد الفقير والمحتاج، حتى أن الغنى منهم كان يخرج من
ماله ما يكفى لسد حاجة جيش يتأهب للغزوة، كما فعل عثمان، رضى الله عنه، فى
جيش العسرة، وكذلك غيره من نماذج الصحابة.

أما تلك النماذج الباهتة، والواهية، الفارغة البال من هموم الناس، من أمثال
القرشيين الذين ضنوا بهم، وحسبوا أنه طريقهم إلى الخلود، والبعد عن العذاب، وكثير
غيرهم ممن هم على شاكلتهم فى العصور المتتابعة، وفى عصرنا الحاضر وفيما سياتى،
فهؤلاء قد حرموا لذة الاستمتاع بالنعمة حينما تبل ظمأ عطشان، أو تسد حاجة فقير،
أو تستعمل فى عمارة مسجد، أو تعليم طفل، أو إقامة مبنى، أو زراعة أرض، أو إنفاق
فى جهاد فى سبيل الله، وكل هذا مسارب حقيقية تنساب إليها نعم الله على عباده،
فتقيم الحياة الخصبية التى يجب أن يجيها المؤمن.

بتلك الدعوات التى ترغب فى الخير وتدعو إليه، وتعمل من أجله، وتبصر بالطريق
إلى تحقيقه فى الحياة من كلمة طيبة، وعمل مثمر بناء، وجهاد فى سبيل الحق ونصرته
على الباطل وشياطينه، والتزام بالصبر، وتحمل للإيذاء فى سبيل الفهم لحقيقة هذا
الوجود، ولطبيعة النفس المؤمنة.

وكذلك التحذير من السير فى طريق الباطل، وضياع الأعمال، والخداع بمغريات
النفس من شهوات، وأموال، وهو، ولعب، ولجوء إلى الظالمين، والسلوك مسالكهم فى
تيارات الحياة المختلفة.

كل ذلك عرضته الأمثال القرآنية فى تعددها وتنوعها، وكل هذا من أجل الإنسان
المؤمن، والحياة الإسلامية الحقيقية التى يدعو إليها الإسلام، كحياة جديرة بالنفع
والاستمرار حتى يأذن الله، حياة قائمة على أسس فاضلة من التعاون والتآزر بين الكبير

والصغير، والغنى والفقر، والقوى والضعيف، وتضامن فى جميع الأوقات والأزمات على مستوى المجتمع والعالم الإسلامى، فلا تكون هناك دولة فقيرة تترشح تحت نير الجوع، والحرمان، والفاقة، والعوز، وأخرى تنعم بطيبات الحياة، وما بها من ترف وطمحة فى المأكلى والمشرب والمسكن.

أفلا نتعلم من طريق رسول الله ﷺ فى أول درس له فى بناء المجتمع الفاضل قائم على التقوى والإيمان؟. ألا نرى كيف استلب الأحقاد من الصدور، والغل من القلوب، ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

تطبيق جدير بالالتفات والأخذ، يقوم على المال وتثميره، وإنفاقه فى وجوه الخير، وإبعاده عن المظالم وما تجره من طحن للناس واستبعاد لأجسامهم وجهدهم.

هذه هى دعوات الإسلام إلى إنفاق المال واستغلاله، والترغيب فيه، والتحذير من مغبات الشح والبخل، وإلقاء النفس فى المهالك.

النفس الإنسانية:

لكل شىء خلقه الله سبحانه وتعالى حكمة من وراء وجوده، وقد تظهر هذه الحكمة أمام تفكيرنا وأعيننا، وقد تغيب عن أبصارنا وعقولنا فترة من الزمن، ثم تبدو بعد ذلك، فلم يخلق الله الكون عبثاً أو لهواً، حاشا لله، وإنما خلقه لحكمة أرادها، وغاية قصدها، وكذلك لم يخلق الإنسان ليكون كبقية مخلوقاته الكثيرة فى أرضه وسماؤه، وبجاره ومحيطاته، وهوائه وسحابه، وشمسه وقمره، وأفلاكه وملائكته، وإنما خلقه ليحقق هدفاً إلهياً، وغرضاً عبرت عنه الآيات القرآنية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رَّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللّٰهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

بتلك القوة القادرة، القاهرة، الخالقة، وبتلك الإرادة الإلهية خلق الإنسان ليعمر الكون، وليكون خليفة له فى أرضه، يعمرها، ويحيا على ظهرها، ويقوم بعبادته وطاعته لله، استجابة لأوامره، واستغلالاً لما خلق الله فيه من عقل مميز.

هيا الله لهذا الإنسان الأسباب الكثيرة التى تحقق هذه الحكمة، وتمهد لها، فخلق مع الإنسان الضعيف الجسم أسلحة الحياة التى تمكنه من التغلب على وحوشها الضارية، وأحجامها الكبيرة، أسلحة وأدوات، ووسائل تميزه على بقية المخلوقات التى تقابل

صعوباتها بمخلب وناب، وتتغلب على أزماتها بحجم ومنقار، فإذا تشابه فى تلك الحواس الظاهرة التى تتمتع بها كل المخلوقات من حواس السمع، والبصر، والشم، والذوق، والجسم، فإن طريقة استخدام هذه الحواس، وحسن استغلالها فى تحقيق أهدافها، مما يميز الإنسان عن غيره.

فالعين تبصر وتؤدى وظيفتها فى رؤية الأشياء بالنسبة لكليهما، ولكن أن تكون طريقاً إلى الهداية والاستدلال وتنمية العقل، فهذا مما كرم الله به الإنسان، وجعله محلاً للتكليف، وكذلك الأذن تؤدى عملها فى السمع، وقد تكون الحيوانات أقوى سمعاً، ولكن أن تكون طريقاً إلى العلم، والمعرفة، فهذا مجال آخر جعله الله سبحانه من خصائص الإنسان، وقد يختلف فيه إنسان عن آخر مما يدل على قدرة الله.

وهكذا فى بقية الحواس والوظائف المتشابهة، أسلحة وأدوات، ولكنها فى جانب الإنسان لها وظائف أخرى تعلو فوق الحاجة المادية إلى الجوانب الروحية والعقلية التى بها يتسامى على غيره، وتجعله مناطاً للتكليف وعمارة الكون، لذلك فالتشابه الظاهرى ليس هو المقياس الحقيقى للتمييز، وإنما فيما يكمن وراءه من انطباعات، وآثار، وهدايات.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

نعم أمم لها خصائصها، وذواتها المستقلة التى تكتب التمييز لفريق على فريق فى مظاهر عديدة من حيث الشكل، والتكوين، والقوة، والخصائص، ومنها الإنسان الذى يدب على الأرض، خلقه الله فى أحسن تقويم من الخلق والخلق، والتكوين النفسى والعقلى، ليتحمل مسئولية الحياة الحقيقية، وحمله أعباء الأمانة التى عرضها ﴿ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَالْيَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ظلم الإنسان نفسه، فقد حرّمها من أداء مهمتها فيما خلقت من أجله، وما هيئت له من تحقيق الكرامة لها، والفوز بالسعادة الروحية، وسلامة الاعتقاد، وذلك بأعماله وسلوكه فى الحياة، ذلك السلوك والعمل الذى جانب الصواب، وكذلك ظلم غيره من الذين تحمّلوا أداء الرسالات والدعوات الصالحة من أنبياء ورسول، فلم يستجب لهم،

وأنكر دعوتهم، ووقف أمامهم موقف المحارب والمعاند لرسالتهم، وبهذا الظلم الذى بدر منه لنفسه ولغيره كان معول هدم هذه الحياة التى أوجدها الله، وأراد لها البقاء إلى حين، فما الظلم إلا أداة للتناوب والتباغض، وتفكك المجتمع، ويؤدى إلى خراب العمران.

وفوق ظلمه هذا، فهو جاهل بمكانته، ودوره فى الحياة وبنائها، وما هو مطلوب منه، كى يحيا تلك الحياة السعيدة عن طريق حسن فهمه، وبصره بمستقبله، واعتباره بما حدث، ويحدث له ولغيره فى ماضيه وحاضره، وجاهل أيضاً بتلك الحكمة من وراء وجوده، وبما خلقه الله من أجله.

هذا هو الإنسان الذى هو محور الحياة، ومن أجله أرسل الأنبياء والرسل، ومن أجله جاءت الآيات القرآنية تشيد به، والأمثال تناولته فى عقيدته، وسلوكه، وعلاقاته، وحره، وسلمه، وبقي علينا أن نعرض لبعض هذه الأمثال التى تناولت تلك النفس الإنسانية لنجلوها، ونكشف عما تحبئه هذه النفس من حقائق وراء مظهرها، وما لها من اتجاهات ونزعات، ورؤيتها لحقيقة نفسها وغيرها فى الحياة.

إن الرؤية القرآنية فى مجالات الأمثال التى تعرضها، وفى كثير من المواطن، لا تمثل هذه النفس الإنسانية فى موطن واحد، وسبب معين، وإنما تشرح هذه النفس وتصورها فى جميع أوقاتها، وفى كل حالاتها ماضياً، وحاضراً، ومستقبلاً، وهذا سر إعجاز القرآن، ودلالة آياته البينات.

١ - قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بَكْمٌ عَمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

هذا المثل القرآنى من جملة آيات كريمة نزلت فى سورة البقرة، وهى سورة مدنية، وأطول سور القرآن الكريم، وقد تناولت أمور التشريع، والدعوة إلى توحيد الله، وتعرضت إلى ما فى القرآن من إعجاز، وما يرد من نسخ، ثم تكلمت السورة عن أحوال السابقين من أنبياء ورسول من لدن آدم، عليه السلام، وخصت بنى إسرائيل بكثير من الآيات التى تناولتهم فى معاملاتهم لموسى، عليه السلام، وطريقة تفكيرهم القائمة على اللجاج، والمجادلة، والمكر، والخداع، كما ذكرت الكثير من قصص بنى إسرائيل.

وأفاضت السورة فى تناول التكاليف الشرعية والفرائض التى فرضها الله سبحانه وتعالى على أمة محمد، عليه الصلاة والسلام، من صلاة، وصيام، وحج، ومعاملات... إلخ، وقد أفردت بالذكر فى آيات الربع الأول النفس الإنسانية التى نحن بصدد تشريحها وتعريفها من خلال هذا المثل القرآنى.

قسمت هذه النفس إلى أنفُس ثلاث، كما ذكر ذلك صاحب تفسير المنار:

(أ) نفس مؤمنة: أخلصت فى إيمانها بالله الواحد الأحد، وكان لها من صلاح العقيدة، وشفافية الروح، وما تجنى من طمأنينة نفس، وعمل صالح، واستقامة على الطريقة، وأخذ بسنة الأولين من السلف الصالح، واستغلال لإمكاناتها وطاقاتها فى الاهتداء لداعى الإيمان، والفهم الواعى، والعلم المستنير، بكل ما دعا إليه الدين من الإيمان بالغيب، والقيام بأداء الشعائر، والإنفاق فى سبيل الله، والتطبيق لأحكام الله، أتاها القرآن الكريم بالدين القيم، والهداية التى عمل بها الأولون، فكانت لهم طريق نجاح فى حياتهم العملية والإيمانية، وانتصروا على أنفسهم وعلى أعدائهم، وطهرت نفوسهم من الشرك، وعادات الجاهلية وتقاليدها.

(ب) نفس كافرة جاحدة: عاندت وأصرت على الكفر بالله، وبما أرسل من كتب وأنبياء، وألغت وظيفه حواسها، كما ألغت عقلها فى الفهم عن الله، وابتعدت عن طريق الحق، وأظهرت العصيان لله، وتمردت عليه، فلم تستجب لدعوته.

طريقان مختلفان، ومسلكان متناقضان يمثلان تلك النفس الإنسانية بالنسبة لدعوة الحق جل وعلا، مؤمن وكافر، يمين وشمال، كل فريق يجذب جزء عمله فى دنياه وفى أخره.

ويبقى بعد ذلك ما بين الطريقتين والمسلكين من اتجاهات تميل مع هذا مرة، ومع الآخر مرة أخرى، وهذا هو ما أتى المثل القرآنى ليعرضه أمام أعيننا، وليبسط حقيقته، فهو ما تحار العقول فى فهمه، وما يلتبس على الجميع شكله ومظهره، ويبدو على سطح الحياة متحكما فى سيرها، متقلبا فى أوضاعها المختلفة، حقيقة هذه النفس الملتوية التى كانت وما زالت وستظل أشد خطراً على المؤمنين فى كل وقت وحين، وعلى كل دعوة بناءة، وأمام كل إصلاح طريق هدم وتعطيل، يسלט المثل على هذه النفس الضوء ليحذر المؤمنين من أعمالهم التى تهدف إلى تخريب المجتمع، ﴿فَاَحْذَرُهمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى

يُؤْفَكُونَ ﴿ [المنافقون: ٤].

أتى القرآن الكريم بسورة كاملة، وهى سورة المنافقون، تظهر سوءة أولئك المنافقين فى عهد النبوة والوحى ينزل من السماء ويكشف أسرارهم.

ماذا قالت الآيات السابقة لهذا المثل؟

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تُّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿ [البقرة: ٨ - ١٦].

هذه هى الآيات التى عرضت حال أولئك القوم، وأظهرت حقائق نفوسهم المريضة، فما سماتها؟

(أ) التظاهر بالإيمان مع كفرهم.

(ب) اعتقادهم بأنهم يخادعون الله ويخدعون المؤمنين بأعمالهم ومظهرهم، والله يفضح كيدهم.

(ج) تغلغل النفاق فى قلوبهم، وهو مرض لا يرجى معه شفاء، وعقابه شديد يوم القيامة.

(د) ادعاء الإصلاح والإصلاح مع إضمار خلافهما.

(هـ) التعالى على المؤمنين والتكبر عن مجالستهم والغرور بالنفس.

(و) التظاهر بالإيمان أمام الناس، والانضمام لأعداء الله فى السر.

(ز) النفاق تجارة خاسرة لا تنفع صاحبها فى الدنيا ولا فى الآخرة.

هذه صفات النفس المتلوية التى استحبت العمى على الهدى، وأتاهها القرآن الكريم

بالدين القيم، فاستوقدت النار، فما أضاءت لها نور الحياة ونور البصيرة، لم تنتفع بها، فعاقبها الله عقاباً شديداً.

ذهب الله بنور أولئك المنافقين الذى طلبوه، ثم تركوه ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧] جزاء إعراضهم عن النور.

تركهم فى ظلمات نفوسهم المريضة بالنفاق، والبعد عن روح الدين، وإيذاء الجماعة بما يقذفونه من طعن فى الدين والأعراض، وظلمات حياتهم التى تضيق بهم، وتجعلهم فى قلق وخوف، وظلمات عقولهم، فلا يهتدون إلى صواب فى فهم آيات الله، والإحاطة بأسرارها، والعمل بموجباتها التى تحقق السعادة الدنيوية والأخروية، ظلمات بعضها فوق بعض، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] فهم لا يبصرون شيئاً من أسرار الحياة وعوامل النجاح فيها بعد أن حرمهم الله من النور الذى أعطاه للمتقين الذين فازوا برضا الله، ونزهوا قلوبهم ونفوسهم من النفاق والتبعية وعادات الجاهلية الأولى.

إن أمثال هؤلاء فى حياتنا ومجتمعاتنا الحاضرة لكثير، ممن فقدوا نور الهداية الدينية، وحرموا من الاهتداء بها، واستطاعوا بما أوتوه من أساليب خادعة أن يتسلقوا زمام الأمور، وأن يؤثروا فى مجرى الحياة، وأن تكون لهم كلمة مسموعة فى دنيا الناس والأحياء.

هذه صورة لأولئك المنافقين الذين كانوا يمثلون دوراً تخريبياً فى المجتمع الإسلامى الجديد، وقد أعطانا المثل القرآنى والآيات السابقة ملامح أعمالهم، واتجاهاتهم فى تقويض دعائم الدعوة الجديدة، وتوضح الصورة أكثر وأكثر حينما تتم الآيات القرآنية فى ذلك المثل اللاحق، لتكتمل هذه الصورة فى ذلك التصوير المبدع فى قوله تعالى.

٢ - قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٩، ٢٠].

فى هذا المثل تشبيه معجز لأولئك المنافقين الذين سيطر عليهم القلق والاضطراب، واستبدت بهم المخاوف والحيرة من الأمر، فهم حينما يلتقون بالمؤمنين يطلبون الهدى

والنور، وحينما يلتقون بإخوانهم شياطين الإنس، ينكصون على أعقابهم عما طلبوا فجأة، ويرجعون إلى الظلام والضلال.

صور متعددة تابعت لتكشف خبيثة تلك النفوس التى تعيش فى جحورها، ثم تنفث سمومها، وتبث دعايتها ضد كل دعوة صالحة تختبئ وراء ما يخدع من لسان معسول، وكلمات تنم عن خداع وحقْد، يجد متنفسه فى إثارة الأحقاد والكرامية فى صفوف المجتمع، وتمزيق أواصر العلاقات بين الأفراد والطوائف بالكلمة الخبيثة التى ينطق بها: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦﴾.

وقد اهتدى صاحب تفسير المنار إلى رأى من القول قال فيه: إن هذا المثل يمثل من بقى له بصيص من النور، فله نظرات تهديه أحياناً، وتصل به إلى فهم معانى الآيات بالفطرة، أو الاستدلال بالحوادث للنظر فيما بين يديه، ولكنه تسيطر عليه دواعى التقليد والبدع، فيعيش فى ظلمات حوالك يخبط فيها، ويسمع قوارع الإنذار، ويرى نور الهداية، فإذا أضاء ذلك البرق سار، وإذا انصرف عنه بشبه الضلال قام وتخيّر، ويعرض عن دعاة الحق، ونذر الكتاب، فهو يضع إصبعيه فى أذنه، حتى لا يسمع نصح الناصح، يخاف من تلك النوازع أن تقتله.

ولكن أهذه صورة النفس الإنسانية المقبولة؟! إنها صورة مريضة لنفس تعيش فى الحياة ولها دورها، ولا يمكن إهمال ما تقوم به من أعمال مأكرة، وإلا ضاع المجتمع وأهله، وما كانت هناك صراعات أو حروب أو دعوات صالحة لبناء المجتمع.

بجوار هذه النفس نفوس أخرى صالحة توجهت إليها الآيات والأمثال القرآنية بالنداء والأوامر، كى تنفق وتبذل المال، والجهد، والدم، فى سبيل الدعوة، وفى سبيل الحياة، وقد تعرض الباب السابق لكثير من هذه المظاهر المعطاءة التى تقدم القليل، ويكون لها الكثير من الأجر والجزاء، وتبذل العلم والمعرفة، ويكون البناء للنفس والأمة، وتعطى ما لها من جهد ودم فى سبيل المحافظة على العقيدة، والدفاع عن الدين، ويكون لها كرامة الاستشهاد، وجزاء ذلك فى ﴿ وَجَنَّاتُ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

صفات تلك النفوس المخلصة التى تستوجب التقدير، وتحظى بالاحترام، وتعطى
مثالاً للنفس السوية التى لم تشبها أمراض النفاق، ولم تدنسها أرجاس الشرك، وعرفت
ذاتها، وصدقت فى حياتها، فكانت عماد الحياة، وأمل المستقبل، وحامل لواء النهضة
والتقدم فى كل عصر.

بناء الشخصية الإسلامية:

تسعى جميع الهيئات والأجهزة التى تتولى أمر الإرشاد والتوجيه، والتربية والتعليم،
فى كل زمان ومكان، إلى تحقيق هدف سام نبيل، وهو العمل على بناء الشخصية المتميزة
للفرد والمجتمع.

وتختلف فلسفة بناء هذه الشخصية تبعاً لما يحكم المجتمع من أنظمة اقتصادية، أو
سياسية متباينة، وتظهر الفروق الكثيرة فيما نجده من وسائل التوجيه، أو طريقة التعليم
والتربية فى ناتج هذه الفلسفات، أو المتمخض عن نزعاتها، وآرائها، وكلها آراء
واتجاهات إذا كتب لبعضها التوفيق فى تحقيق هدف، أظهرت قصوراً وفشلاً فى آخر،
وبذلك كانت سمة هذه الاتجاهات الملحة إلى التغيير والتبديل فى كل خطواتها،
وعلاج ما تجد من عثرات فى تطبيقاتها، وإصلاح القصور فى نظرياتها.

وكل هذا لأنها استمدت نورها وضوءها من إشعاعات فكر قاصر، وتقليد ممسوخ
لنظريات وأفكار قديمة لا تراعى مصلحة الفرد، ولا مصلحة الجماعة، ولا ترضى
جوانب الشخصية الكاملة من إنماء للشعور، وتوجيه للسلوك، وتربية للعقيدة
والوجدان، وتنظيم للفكر.

ولماذا نطلق القول فى هذا وأمامنا ما يحدث فى تلك الدول العظمى، وبخاصة ما نراه
فى الدول الاشتراكية فى وقتنا الحاضر، تحولات خطيرة تشهدها تلك المجتمعات التى
قامت على فلسفة اشتراكية، عجزت عن إرضاء حاجة الإنسان الضرورية، وابتعدت
عن الجوانب الروحية التى تميز الإنسان عن غيره من بقية المخلوقات، فإذا استطاعت أن
ترضى حاجة الجسم الشهوانية من مطعم، ومأكل، وملبس، وقليلاً ما يحدث هذا، بدليل
ما نراه الآن من أحداث هروب جماعية من دولة اشتراكية إلى دولة غربية النظام، من

ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية، وتغيير النظام فى بولندا على أنقاض الحزب الشيوعى الذى أسقطته الجماهير، وكثيراً من الأمثلة على هذا الواقع المرير الذى تعانىة تلك الدول التى أهملت الجانب الإنسانى فى الإنسان، وما يجب أن يتميز به من حرية وإرادة وعقيدة.

تنذر هذه الأحداث بانهايارات متوقعة لتلك الأنظمة العفنة التى قامت على أسس خاطئة من التربية والتوجيه، وحضارات هذه الدول حضارات هشة تعمل على أن تهيب للإنسان كل وسائل الترفية والتقدم المادى، ولكنها ترهقه روحاً ونفساً، وتحرمه من كل معانى الاستقرار النفسى، وتجرده من القيم الموروثة التى تصله بالحياة والناس.

وما يحدث فى هذه المجتمعات يحدث نظيره كذلك فى المجتمعات الرأسمالية التى تقوم على إعطاء الحرية المطلقة فى كل التصرفات، وطغيان رأس المال، والتفاوت بين طبقات الشعب تبعاً للون والجنس والدين، وحضارات هذه الدول تقوم على مبدأ الصراع والتدافع فى سبيل الوصول إلى الغاية، وكل شىء يقيم بثمن وفائدة، وبذلك أصبح التعاون بين الناس ضرباً من المساومة والخداع والمجاملة، ولا محل للتعاون والحب، وإنما يعيش الإنسان منقسماً على نفسه، منفصلاً عن مجتمعه، لا يشعر نحوه بأية مسئولية، وساد التوتر والقلق، والإفراط فى المسكرات، وتناول المخدرات، كما كثر الانتحار والانحراف.

انحرافات فى اتجاهات متباينة ذات اليمين وذات الشمال، كان لها آثارها الضارة فيما يعانىة العالم الآن من أزمات اقتصادية، حيث تتحكم الدول الكبرى الغنية فى الدول الصغرى الفقيرة، بكثرة الديون، وازدياد الفقر، والمعاناة، والتخلف، وكذلك أزمات اجتماعية أدت إلى تفكك عرى المجتمعات، وتخلخل أنظمتها، والمحال أخلاقها، وتفشى روح البطالة فى شبابها ورجالها.

ولم يكن حظ هذه الأنظمة الأخرى إلا مماثلاً للأولى فى آثارها، وتوقعات أحداثها، وكثرة أضرارها، وأعانها على ذلك الترف المقيت الذى تعيش فيه شعوبها من جراء استعمارها لشعوب العالم القديم، وامتصاص خيرات هذه البلاد المستعمرة من قديم الزمان.

ولكن إذا نظرنا إلى الجانب الإسلامى من هذا المنطلق المتجدد الذى ينطلق من

حاجيات النفس البشرية، ورغابتها، واتجاهاتها فى الحياة، وجدناه قد ربط بين هذه الجوانب التى تهيم على الإنسان، ورغباته وانطلاقته، برباط الوحدة، الوحدة فى المشاعر والسلوك، والعقيدة والعمل، الوحدة بين الإيمان القلبي والعملى، وقد ظهر هذا النموذج المثالى فى الإسلام، فكان الفرد والمجتمع وحدة واحدة فى التكاليف والمسئوليات، ومن مظاهر ذلك عبادة الله وحده، والافتداء بفعل الله نحو عباده من رزق، ومغفرة، لأجل الفعل نفسه، لا لغرض نفعى.

وقد رسمت الآيات القرآنية المنهج القويم فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

إسلام الوجه واستسلامه المعنوى والعملى لله الذى أوجد له العقيدة التى تصنع الحياة، والأجر مضمون لا يضيع عند رب العباد فى الدنيا والآخرة، والإسلام دين يزرع فى قلب المؤمن الإيمان بالله سبحانه وتعالى ويجعله على بصيرة من أمر دنياه وأخراه، ومتى آمن الإنسان بربه، وعرف حقيقة هذا الإيمان، وذاق طعم الطاعة، ازداد تمسكاً به، وفهماً لمبادئه القويمة التى سار عليه الرسول ﷺ وطبقها فى حياته وبين صحابته، حتى ينال رضا الله، ورضا الناس.

ونحن إذا أردنا أن نخطط لبناء هذه الشخصية الإسلامية، فإننا نعرض نماذج من الآيات القرآنية تحدد لنا طريقة هذا البناء، وما يجب أن يكون عليه، والإنسان يعرف طريقه من التقابل والموازنة فى المواقف، ومن النماذج التى تصور تفكيراً معيناً، وآراء فى العقيدة والفهم للأمور.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

هذه نماذج من التفكير السقيم، والآراء الفجة التى تدل على سفاهة وقصور، ومواقف لأناس اختلفت بينهم المشارب، وتباينت النزعات، فضلوا عن سواء السبيل.

نجد فى هذه الآيات أن كل فريق يطعن الآخر فى اعتقاده، وأنه ليس على شىء من

اليقين، وأن الدين الذى يعبده كل فريق ليس ديناً حقيقياً يتعبد به، ويشترك فى هذا أهل الملل الأخرى، حتى مشركو قريش الذين وصفتهم الآية بأنهم لا يعلمون، فنفت عنهم العلم؛ لأن الأمية قد تفتشت فيهم، وانتشرت الجهالة وسيطرت على أنفسهم وعقولهم، فلا يعلمون من حقائق الأمور شيئاً، حتى عن الكتب السابقة والشرائع التى أنزلت.

لذلك فهو يشتركون فى هذا المعمعة، ويدفع الجميع تعصب لما يعتقد، وخرافات تتحكم فيهم، واعتقادات باطلة، وأنهم وحدهم الناجون من النار، ومن عذاب الله يوم القيامة.

يسجل الله سبحانه وتعالى على الجميع ما يقوله، ويحكم بينهم يوم القيامة، ويبطل ما لهم من دعاوى باطلة، فالدين واضح، والحق سبيله معلوم، لا يتعبد بأسماء ولا بألقاب، وإنما هو إيمان خالص، وعمل صالح، لا يدعو إلى تفرق فى دين، أو اختلاف فى أصول.

وإذا كانت الأهواء والنزعات قد طغت على أهل الكتاب فى تفكيرهم، فأعرضوا عن الإيمان بمحمد ﷺ، وطعنوا فى هذا الدين الذى أتى به، وإذا كان هذا الطعن لا ينهض حجة على بطلان الدين الذى جاء به، فإن الآية تصورهم بأنهم لا يرضون إلا بمن يتبع دينهم، وكل فريق يخالف فهو فى النار وعلى ضلال.

هذا تفكير طبعوا عليه من قديم، حتى فى أيام أنبيائهم، ورسولهم، وجداهم معهم، ويبدو هذا واضحاً فى قصة بنى إسرائيل مع موسى، عليه السلام، حينما قتل واحد منهم، وأرادوا معرفة قاتله، فذهبوا إلى موسى، وطلبوا منه أن يدهم على القاتل، فأمرهم بذبح بقرة، وأن يأخذوا جلدها، ويضربوا به القاتل، فيحييه الله تعالى، ويدهم على قاتله، أمور واضحة لا تحتاج إلى لجاجة ومراجعة، ولكنهم أخذوا يسألون: ما لونها؟ ما عمرها؟ ما صفاتها؟ أسئلة، ولجاجة، والتواء فى التفكير لا تدل إلا على سوء طوية، وخداع.

وهو لون من الفكر المارق، كما يسميه الأستاذ أحمد بهجت، تحت عنوان: الفكر البقرى، نسبة إلى قصة البقرة، فكر ضال أخذ عليهم حياتهم، وسيطر على نفوسهم؛ كراهة الاهتداء، وعدواناً على الحق وأهله، ومن سماته الفجاجة، والالتواء الذى لا يعرف طريق الحق، وينحرف عن الجادة.

والآيات المعروضة تدعوننا إلى العلم الذى يقوم على البرهان، والدليل، والتحرى فى الحكم على الأشياء، وتنعى على أولئك المقلدين الذين ألغوا عقولهم، وتحكم فيهم التعصب للرأى، واتباع الهوى، كما تبث فينا روحاً تسمو على أى لون من ألوان التفكير الضال، أو التعصب المقيت، فالدين الإسلامى جاء بشريعة مكملة لتلك الشرائع، ولا تتناقض معها فى الأصول، وللإنسانية جمعاء، لا لشعب بعينه كما فى تلك الديانات السابقة.

وهناك جانب عقلى يرجع إليه كل عاقل فى المقارنة بين الأشياء والموازنة بين فريقين أو اتجاهين، وهو أنه لا مجال لإعطاء الحق فى الحكم على الأشياء لمن سبق على ما سيأتى؛ لأن ذلك ليس فى مقدور البشر الذى لا يعلم الغيب، ولا يدرك المستقبل، فهؤلاء السابقون لم يعاصروا الأحداث، ولم يشهدها، فليس من حقهم الحكم عليها بالصواب والخطأ، أو الصحة والخطل، ولذا فلا يقبل فى حكم العقل أن يأتى أصحاب الديانات السابقة بآيات أو أدلة تحكم على ما سيأتى من أحداث وديانة أخرى.

أما الصواب من الرأى، فهو أن يكون العكس صحيحاً، وهو أن القرآن الكريم وخاتم الديانات ينطق بالحكم والحق فى حق السابقين؛ لأن هذا الحكم قائم على التجربة والواقع، والفهم، والتطبيق، باعتباره شاهداً على الأحداث، فما يقوله الإسلام وما ينطق به محمد، عليه الصلاة والسلام، هو الحق بالنسبة لمن سبقه فى تبيانه لنفوسهم، وشرائعهم، وأحداثهم، وحكمه على كل ما بأيديهم من آيات وكتب سماوية سليمة من التغيير والتبديل والتحريف.

وما زال موقف أولئك المعاندين لشريعة الله وقرآنه، ورسالة محمد ﷺ يحتاج إلى توضيح من آيات القرآن الكريم التى لم يدخلها تحريف أو تبديل: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦ - ١١٨].

مواقف أيضاً يشترك فيها أصحاب الكتب السابقة مع مشركى قريش، فالأولون ينسبون إلى الله الولد، وهم يعلمون تمام العلم من واقع دياناتهم وكتبهم أن الله برىء

من هذا الذى ادعوه، وأنه واحد أحد، وله ما فى السموات والأرض يخضع لمشيئته، وإذا أراد شيئاً كان بقدرته الفاعلة.

أما مشركو قريش الذين تحكم فيهم الجهل، وسيطر على نفوسهم جانب الغفلة، فقد أبانوا عن هذه الجهالة بتلك الاقتراحات الباطلة من تكليم الله إياهم، أو إنزال آية، تشابهت مواقفهم مع مواقف الأمم السابقة من اليهود الذين طلبوا من موسى، عليه السلام، أن يروا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة.

وهؤلاء الغافلون من أهل مكة أيضاً يطلبون آية تشهد بنبوة محمد، أو يفجر الله لهم ينابيع الماء، إلى غير ذلك من تلك الخوارق المادية التى تدل على الجهل بالشرائع وبالكتاب، من هذه الاقتراحات ما يدل على إنكارهم لرسالة محمد واختصاصه بالوحى دونهم، ولم يكن ذلك إلا عن جهل وعدم معرفة بحقيقة أن الله سبحانه يختار لرسالته من يشاء، وأن الله أجرى على يديه آيات قرآنية، وعقلية، وكونية، عجز الفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثلاها، ولكن هذا دأب الكافرين فى معارضة الحق.

لذلك ختم الله هذا المثل بقوله: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨]، والذين يوقنون هم من خلصت نفوسهم من شوائب الشرك والتقليد، والآراء الفاسدة، وتوجهت إلى طلب الحق فى الأمور الاعتقادية بالبرهان والدليل.

وبالإضافة إلى هذا الجانب الاعتقادى والعقلى الذى يتميز به المؤمن لكى يمارس دوره البناء فى الحياة كما يجب أن تكون، عليه أن يستفيد أيضاً من تجارب الآخرين، وأن يتحمل بأساء الحياة، وما بها من سنن تجرى بقضاء الله وقدره، ومن انتصار مرة، وهزيمة أخرى، حتى يكون كأولئك الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الدين إبان ظهوره، يتعلم منهم، فلا يقنط من رحمة الله إذا ألم به مكروه، ولا يحزن إذا نزلت به كارثة، فتلك الأيام نداؤها بين الناس.

١ - قال الله تعالى: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

أنت هذه الآية عقب آية تنهى عن الجزع والحزن، والوهن الذى يصيب كل مهزوم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فلا يليق بالمؤمن أن تمتلكه هذه النزعات التى تتنافى مع كمال الإيمان، وروح الاعتقاد، بل هى من صفات أولئك الكافرين الذين تجردوا من الإيمان بالله، وتحكمت فيهم شهوات النفس وحب الدنيا، أما أولئك الأقوياء فى عقائدهم، فهم يستسلمون لقضاء الله وقدره إذا نزل بهم مكروه، ولا يجزعون من الأحداث التى تضعف النفس، فالله جلت قدرته قد حكم فى محكم قرآنه أن الغلبة والفوز لمن تمكن الإيمان من قلبه، والذى يعمل من أجل الحق وإزهاق الباطل، فقال فى كتابه العزيز: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

ثم جاءت الآية الثانية: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، جاءت هذه الآية لتوجه البصائر إلى ما يقع فى الحياة من سنن الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، هذه السنن تحدث فى الحياة ومع الإنسان فى عاداته، وسلوكياته، وحرابه، ومواقفه المتعددة، سنن تجرى من الله جل وعلا لتكون فى جانب الحق تارة، ولتكون فى جانب الباطل تارة أخرى، ينتصر الإيمان فى معركة، وقد ينتصر الشرك فى معركة، فقد انتصر المسلمون فى غزوة بدر الكبرى على الرغم من قلة عددهم وعدوهم، وانهزم المشركون وقوى الباطل، ثم هزم المسلمون فى معركة أحد أمام الكفار.

كل هذه السنن تجرى تبعاً لحكمة إلهية أرادها الله، وجعل لكل شىء سبباً، فما كان من هزيمة المسلمين، وإنما لأسباب عديدة، لا لنقص فى الإيمان، ولا لضعف فى العزيمة، ولا لغرور أصاب القوم، وإنما كان لمخالفة الجند لأمر القائد، وترك أماكنهم التى أمرهم رسول الله ﷺ بالبقاء فيها؛ لحماية جيش المسلمين والتبلى عنهم إذا تعرضوا لهجوم مباغت، وهكذا كانت النتيجة مترتبة على عمل من أعمال الإنسان، وليست بأمور خارجية عنه.

ولذلك جاءت الآيات القرآنية تعلم، وتظهر حكمة الله فى هذه الهزيمة التى لحقت بالمؤمنين فى هذه المعركة لتكون طريقاً إلى العظة والاعتبار، ودرساً يستفيد منه كل من يبغى الفهم الحقيقى لجوهر الدين ومراميه، فإذا كان المسلمون قد هزموا فى معركة أحد، فقد هزم الكفار أيضاً فى معركة سابقة، وأصابهم ما أصاب المسلمين من خسائر فادحة، وليس هذا الأمر صدفة وجزافاً، وإنما لأسباب جديدة بالفهم والدرس، فالنصر يتحقق بالأعمال التى تحقق النجاح، والاستعداد، وجانب الحذر، والقيادة الحكيمة،

والارتباط العقدي بين الجنود... إلخ، كل هذه الأمور التي تحقق النجاح والانتصار في كل معركة من معارك الحياة.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، حكمة الله التي تحتاج إلى وقفة ودراسة، وفهم: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ لا فرق بين مسلم وكافر، ولا فرح مستمر، ولا حزن مستمر، وإنما هي أحوال متغيرة من حال إلى حال، يحدث هذا في الحياة بالنسبة للأفراد والمجتمعات والدول، وتظهر آثار هذا فيما نلاحظه في حياتنا الحاضرة من تقلبات وأحداث متغيرة في كل ما يتعلق بأنظمة الناس وعاداتهم. وكما ظهرت هذه الحكمة الإلهية والاستفادة بشمارها في الغزوات اللاحقة لغزوة أُحُد وما حدث فيها، فقد تميزت صفوف الجند في الاستبسال والقتال من أجل الدفاع عن العقيدة، وتم بذلك إعداد الجماعة الإسلامية ذلك الإعداد الذي وقف على أبواب التاريخ يقرع أبوابه، ويدك حصون الباطل، ويقضى على أنواع الفساد ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ بما تحمله هذه الكلمة من ابتلاءات وامتحانات لقوى الصبر على الشدائد، وهى ولا شك طريق إلى تحقيق التوازن بين الناس، واستقرار النظام، وتحقيق العدل بين الدول، ويعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منهم شهداء في ميدان الجهاد والقتال، أو شهداء يشهدون على الناس يوم القيامة بما عملوا.

هذا دور المؤمن، أما الكافرون فقد ظلموا أنفسهم وارتكبوا الموبقات، وساعدوا على الفساد في الأرض، وانتشار البغى على الناس، وهضم الحقوق، فلا مكان لهم عند الله، حتى لو انتصروا في معركة، فهو انتصار سريع الزوال.

وهكذا نتعلم من الحياة ومن سنن الله التي يجريها في كونه وبين مخلوقاته، نتعلم الكثير من الدروس، فهذه الحياة تجمع الحلو والمر، والسعادة والشقاء، والعاقل من فهم هذا، وعاش أيامها، دون حزن وتنغيص، ويقبل ما بها من تناقضات، فلا يأسى على فقد إخلاص، ولا يحزن لضياح أمانة، ولا بد وأن يتحمل، فقد يجد من صديق طعنة، أو من يحسن الظن به غدراً، أو ممن يجب جفوة، فليس الجميع على خلق حميد، وطبع رضى، ففيهم العاقل والسفيه، والمخلص والعدو، وقديماً قال المثل العربى: إن لم تغض عن القذى لم ترض أبداً.

وإذا كان هذا هو دور المؤمن فى استقبال الحياة والتغلب على مشقاتها، فإنه ولا

شك بحاجة ملحّة إلى الحذر، والدهاء، والمكر، وكل ألوان الأسلحة التى تستخدم استخداماً كريماً فى مدافعة الحياة دون أذى أو إضرار بالآخرين، فهذه الصفات تكسب صاحبها تفوقاً وتميزاً على الآخرين، يكتسبها من ممارسة الحياة، ومخالطة الآخرين، وكثرة التجارب، مع يقظة فى العقل، ودقة ملاحظة للأمر، وبصر بالمواقف، بهذا يكون المؤمن عامل نفع فى الحياة لا معول هدم يلحق الأذى بالآخرين، ويضر نفسه ومجتمعه، كما كان يظهر سابقاً فى أخلاق اليهود، وما لهم من كيد وتدبير جرّ عليهم الكثير من المتاعب، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

مكر، ومكر موازنة، ونتيجة واضحة، وغلبة لله سبحانه وتعالى فى هذا الموقف، وهكذا كل موقف مشابه.

ويحضرنا فى هذا الموقف كيف تستغل هذه الصفات استغلالاً طيباً تؤدى إلى النفع لأصحابها ولغيرهم، من شخصيات لها دورها فى المكر والدهاء فى تاريخنا العربى، تذكر كتب الأدب أن داهية من دهاة العرب وهو معاوية بن أبى سفيان، صاحب المقولة الشهيرة: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ لأنهم إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شدت.

التقى وهو مؤسس دولة بنى أمية، مع قائده زياد بن أبيه، واليه على الكوفة، فى موقف فيه إرشاد وتعليم، فقد توفى المغيرة والى الكوفة، وخاف زياد أن يولى معاوية مكانه رجلاً آخر يسمى عبد الله بن عامر، فأرسل إلى معاوية يخبره بوفاة المغيرة، ويشير عليه بتولية رجل آخر يسمى الضحاك بن قيس مكانه.

ففظن معاوية لما يدور فى خلد زياد، فكتب إليه: قد فهمت كتابك فليفرخ رَوْعُكَ^(١) بالمغيرة، لسنا نستعمل ابن عامر على الكوفة، وقد ضمناها إليك مع البصرة. فلما ورد كتاب معاوية، قال زياد: النبع^(٢) يقرعُ بعضُهُ بعضاً.

٢ - قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاؤٍ^(٣) فِيهَا

(١) يفرخ روعك: يهدأ بالك.

(٢) النبع: من شجر الجبل، وهو من أكرم العيدان.

(٣) المشكاة: فتحة فى الحائط غير نافذة، والمراد الأنبياء التى تجعل فيها الفتيلة، ثم توضع فى القنديل.

مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةِ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ (١) يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ (٢) يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ (٣) يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿النور: [٣٥]

جاءت الآية السابقة لهذا المثل ممهدة لتوضيح حقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل إلى المؤمنين آيات واضحة، مفصلات لكل حاجيات الإنسان في حياته الدنيوية من شرائع، ومعاملات، وعقائد، ثم عرض الله سبحانه أمثلة لما حدث للسابقين في مواقفهم من أحداث الحياة، ومن الرسل، وما حلَّ بالمكذابين من عقاب، جزاء عنادهم وكفرهم وعدم استجابتهم للدعوات الصالحات التي دعو إليها، وما كان في مقابل ذلك من مواقف لمؤمنين نعموا في دنياهم بصفاء العقائد، والقلوب، والأرواح، وسعدوا بها في معاملاتهم، كما سعدوا بها في أخراهم بما حظوا به من رضا الله سبحانه وتعالى، عليهم، وما أعده لهم من جزاء وفضل عظيم.

وكل هذا الذي عرض مجملاً في آية واحدة إنما سيق ليكون طريق عظة واعتبار يهتدى به كل من يعبد الله، ويتقيه، ويؤمن بكل ما جاء من مثله على أيدي رسله، فالؤمن هو حصيلة هذه الدعوات التي نزلت على رسل الله، والتي خصه الله بها وكرمه، من الله نور السموات والأرض.

وسورة النور قد حوت الكثير من أوضاع هذه النفس البشرية، وبخاصة المتدنية التي ترتكب الموبقات من قذف، وشهوة، وفاحشة، ووضعت لها الضوابط التي تقيم من عوجها، وتردعها حتى تعود إلى صفائها ونقاها، وتستعد لاستقبال النور الإلهي الذي يفيض في الكون الكبير، أرضه وسماؤه، ويسبح فيه، فتلتقى هذه النفس بمشاعرها بهذا النور في ألفة ومعرفة وفرح؛ لأنها من خلق الله، وقد هيأها الله سبحانه وتعالى لتكون نقطة اتصال بين السماء والأرض عن طريق وحى الله الذي كرمها به، وجعلها أهلاً لتحمل أمانته من رسالة، وإرادة، واختيار، وبذلك كان تمييزها، وتقديرها بهذا التصوير الرائع الذي عرضته الآية القرآنية.

(١) دري: منسوب إلى الدر لفرط ضيائه وصفائه.

(٢) لا شرقية ولا غربية: لا يتمكن منها حر ولا برد.

(٣) نور على نور: يريد أن النور الذي شبه به الحق نور مضاعف قد تناصر فيه المشكاة، والزجاجة، والمصباح، والزيت، حتى لم يبق بقية مما يقوى النور.

فقد قال ابن كثير فى (ص ٦٠)، المجلد السادس من تفسيره: شبه الله قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، فى صفائه فى نفسه، بالقنديل من الزجاج الشفاف، وما يستهديه من القرآن والشرع، بالزيت الصافى الذى لا تكدره كدرة.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿مثل نوره﴾ يعود على الله عز وجل، أى مثل هداه فى قلب المؤمن كمشكاة، أو يعود إلى المؤمن الذى يدل عليه السياق، وتقدير الكلام: مثل نور المؤمن الذى فى قلبه كمشكاة.

ورأى صاحب الظلال: أن هذا النور، نور الله الذى لا ندرك كنهه، ولا حقيقته، ولا مداه، نور أشرفت به الظلمات، ويتجلى فى بيوت الله التى تتصل فيها القلوب بالله حين تذكره وتخشاه، ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع﴾ [النور: ٣٦]، فلتلقى مع النور المتألق فى السماء والأرض، مع قلوب الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

ويقول الأستاذ أحمد بدوى^(١): المراد بالنور هنا هو النور الذى يغمر القلب، ويشرق على الضمير، يهذى إلى سواء السبيل، أو لا ترى أن القلب ليس فى حاجة إلى أكثر من هذا المصباح يلقى عليه ضوءه فيتهدى إلى الحق، وأقوم السبل؟

ثم ألا ترى فى اختيار هذا التشبيه إيجاء بحالة القلب، وقد لفه الظلام والشك، فهو متردد، قلق، خائف، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه، فيجد الراحة والأمن والاستقرار؟ فهو كسارى الليل يخبط فى الظلام على غير هدى، حتى إذا أوى إلى بيته، فوجد هذا المصباح فى المشكاة، وجد الأمن سبيله إلى قلبه، واستقرت الطمأنينة فى نفسه، وشعر بالسروور يغمر فؤاده.

وهكذا كان النور فى القلب، والفهم، والعقل، والعقيدة، والشرع، طريقاً إلى الإيمان الصحيح الذى لا ينحرف ولا يضل، ويجد سبيله إلى الهدى والتطبيق فى الحياة العملية والروحية، وحتى يقضى على عوامل الشك، والكفر، والزيغ، والإلحاد، وبهذا النور تتحقق تلك الشخصية السوية الإنسانية التى ميزها الله عز وجل، وجعل الملائكة تسجد لها، وقال: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) انظر: بلاغة القرآن (ص ١٩٥) من الأمثال فى القرآن، د. محمود بن الشريف (ص ٨٨، ٨٩).

نور يهدى ولا يضل، يرفع ولا يضع، يحقق للإنسان الحائر فى دنيا القلق، والتوتر، والمتاعب الصحية النفسية، والعقلية، والروحية، التى تأخذ بيده إلى مرفأ الأمن والأمان اللذين امتن الله بهما على قريش فى سابق عهدها: ﴿الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

إن ما يعانى منه العالم الآن هو الحرمان من الأمن والأمان، والخوف من التعرض للمحن التى تحمل فى طياتها الكوارث المخفية التى تلحق بالعالم، كوارث الحروب، والتلوث، والجوع، والتصحر... إلخ، لذا فإن الدول تتسابق وتتعاون، وبخاصة تلك الدول التى تقدمت علماً وتطبيقاً فى إجراء بحوثها وتوجيه طاقاتها إلى بث الطمأنينة فى نفوس شعوبها، وتحقيق الطمأنينة النفسية بجانب الطمأنينة المادية من مأكّل ومشرب ومسكن فى الحياة.

ولكن هل تنجح تلك الجهود فى تحقيق ما يريدون إلا على أشلاء شعوب أخرى ضعيفة عانت وتعانى من الظلم والإرهاب.

المنهج: مقدمة:

ماذا نقصد بالمنهج؟ أهو ما تعارف عليه الناس فى اقتصاره على ما هو مألوف وموضوع لتلك المواد والمقررات الدراسية التى يضعها الربون والإخصائيون للمراحل المختلفة حسب السن؟ أهو ما يركز عليه ذلك المنهج العلمى من إعطاء المعلومة، والاهتمام بالتلقين، والحفظ، وتخزين المعلومات؟

كل هذا ليس بالوارد فى موضوعنا، وإنما نقصد ذلك المنهج الذى يبنى الحياة بكل متطلباتها، ويبنى الإنسان بقيمه وثقافته العديدة، ويحقق رسالة العلم الحقيقية، ويتعد عن تلك الأطر الضيقة التى تهتم بمرحلة من العمر ضيقة، وتنسى المراحل الأخرى من العمر، وهى جديرة بالعناية والرعاية، حتى تكون مناهج مستوعبة، شاملة عامة، تخرج من حدود الزمان والمكان، ولا تهتم بجنس دون آخر.

إن هذا المنهج الذى نهدف إليه إنما يتحقق عن طريق رؤيتنا الواعية لمشكلات عصرنا، وإحاطتنا بكل احتياجات حياتنا، إن المنهج الذى نقصد إليه هو التربية الناجحة التى تهتم بالعلم وأساليبه من أجل تنمية الفكر والتفكير، وتشجيع المبادأة والإبداع، وإيجاد روح التنافس الشريف، والقودة الصالحة فى المجتمع، وبناء الأمة على أساس من

المستقبل القائم على النقاء، والطهارة، والإيمان، والعمل، والعلم، وكل ما من شأنه تملك زمام النفس والحياة.

وإذا أردنا أن نخطط لبناء مجتمع أو أمة، فلن يكون الأمر إلا عن طريق بناء الفرد النواة التى يتكون منها ذلك المجتمع، وتكوين الوعى لدى جماهير الأمة يستحيل بناؤه بمعزل عن الدين، والفهم العميق له، ودوره فى التقدم، فإذا كانت المجتمعات الغربية قد أفلست فى الماضى عن أن تحقق نجاحاً فى أن تتخذ من الدين وسيلة إلى النهوض والتقدم والرقى، فدفعها ذلك إلى تنحيته عن معارك الحياة، وإبعاد من اتخذوه سلعة وتجارة، فإن الدين الإسلامى ليس على هذا النحو، فهو الحياة بكل ما فيها من متطلبات، تعنى بشأن الفرد والجماعة، والأخذ بيد الإنسان كى يحيا حياته التى خلقه الله من أجلها، فالدين ليس حكراً على أحد، وليس نزعة للتسلط، وإنما هو أول مصدر من مصادر الوعى لدى الإنسان بحقيقة الحياة الكونية والاجتماعية، والمتمشى مع فطرته التى فطره الله عليها، يعدل من مساره ويتسامى بغرائزه، ولا يقف ضد حاجيات نفسه المادية، والروحية، والسلوكية، والنفسية، إلا بمقدار ما يوجه ويرشد.

لذا كانت لتعاليمه التى نزلت من أربعة عشر قرناً من الزمن، سمة الصلاحية والاستمرار، لا يدخلها تغيير أو تبديل، بخلاف ما نرى من نظريات تقوم العقول البشرية بوضعها لتنقذ الإنسان فى اعتقادهم من براثن الحياة، ومن شر ما يحيط به فى أجوائها تحت أسماء الاشتراكية أو الرأسمالية، إلى آخر ما يصنفون ويدعون، ثم ما تلبث أن تتهاوى تلك النظريات بفعل التطبيق، وتظهر الأيام قصورها، وحاجاتها إلى التغيير والتبديل لتوائم الحياة بأحداثها ومتطلباتها.

رسالة الإسلام تحقيق الهداية للبشر فى اعتقادهم، وتوجيه حركة الحياة للفرد والجماعة، عن طريق ما تثبته من قيم نبيلة للأفراد والجماعات.

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا ^(١) فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ^(٢) فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَكَوْشِنَا لِرَفَعْنَاهُ بِهَا ^(٣) وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ^(٤)

(١) خرج من الآيات بأن كفر بها.

(٢) فاتبعه الشيطان: لحقه الشيطان بعد أن اُخار هذا الانسلاخ.

(٣) لو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات إلى درجة الكمال والعرفان التى تقرن العلم بالعمل.

(٤) أخلد إلى الأرض: مال إلى الدنيا وحطامها.

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ (١) يَلْهَثُ (٢) أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

جاء هذا المثل القرآنى بعد آيات تعرضت لموقف الخلق من لدن آدم، عليه السلام، حيث أخذ الله عليهم العهد بعبادته وحده، والإيمان بربوبيته، وإقرارهم على ذلك، وتنصلهم مما يفعله الجرمون من غفلتهم عن هذه الحقيقة، واتباعهم لغيرهم فى عبادات فاسدة، وإقرارات أخرى زينها لهم الشيطان ومن اتبعه، فضلوا عن سواء السبيل، فصلت الآيات ذلك حتى يكون الاهتمام إلى الحق طريق من يطلبه ويسعى إليه، ويهديه الله إليه بالفهم الواعى، والعلم النافع، والقلب السليم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

وإذا كان أول طريق إلى تحقيق هذه الهداية هو العلم والانتفاع به فى مجال الإيمان بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ وما يساندها من آيات ودلائل كونية ونقلية، فإذا كان عالماً بها، حافظاً لقواعدها، عارفاً بأصولها وأحكامها، عاملاً بها، كان الإنسان مؤمناً حقاً، أما إذا تباين عمله مع علمه، ولم ينظر فى تلك الآيات نظر اعتبار، فلا بد وأن يسلب هذه النعمة، وهذا المعنى يظهر فى تلك الآيات البينات التى تعرض المثل القرآنى، فقد صور المثل حال الذى أعطى العلم، ولم يعمل به، فسلبه الله تلك النعمة، فأشبهه فى حالته تلك الحية التى تنسلخ من جلدها، وتركه على الأرض.

صورة معجزة، واضحة الدلالة لهؤلاء المكذبين بالرسول مع ما أتى به من آيات واضحة وحجج قاطعة، الذين يشبهون حال ذلك العالم الذى حرم ثمرة علمه، فكل منهما لم يستفد شيئاً ولم ينظر نظر اعتبار، فخرج من الآيات، وكفر بها، ومال إلى الدنيا وحطامها، وما فيها من شهوات، وتمتع بلذائدها، وقد كان فى إمكان ذلك العالم أن

(١) إن تحمل عليه: تزجره وتطرده.

(٢) يلهث: يخرج لسانه من النفس الشديد عطشاً أو تعباً.

يكون فى راحة بال وطمأنينة نفس بما آتاه الله من علم، ولكن هكذا الدنيا، فكلما زاد الإنسان غنى ازداد رغبة وطمعاً، فهو كمن يشرب من ماء البحر ليروى عطشه، ولكن هيهات، وكذلك العالم الذى لا يستهدى بعلمه، ولا يتخذ منه طريق دلالة يظلم نفسه، فلا هو استراح بالمعرفة والعلم، ولا استراح الجاهل بجهله.

ولذلك يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يحذر من يعلمون شيئاً أن يتتهوا إلى تلك النهاية البائسة، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذى لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذى لا يظلمه عدو لعدوه، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم، فالعلم بكل صورته وأشكاله يحقق الهدف من المعرفة والإيمان، ويبحث فى الوجود والطبيعة، وفى كل ما ينفع الناس دنيا وأخرى، وهو قوة وزاد لا يدخل عقل إنسان، إلا وينتقل إلى نفسه وأسلوب حياته، ومعيشتها، وطريقة تعامله فى مجتمعه مع تباين الناس فى علمهم، ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وأمر الله سبحانه وتعالى رسوله، عليه السلام، أن يدعو قائلاً: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

فإذا نظر الإنسان إلى الكون وما فيه بالتأمل، وحاول أن يفهم السنن التى جرت وتجرى فى تسخيرها، لاهتدى إلى مفتاح الكون لإدارته بقدرته الله، وهذا يزيد قربى من الله، وقد كان ذلك أول خطوة خطاها أبو الأنبياء، عليه السلام، كما ذكرت ذلك الآيات القرآنية: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وبهذا الأسلوب استطاع الإنسان الهداية إلى خالقه الأعظم، وتحرر من أسر العادات الباطلة، والخرافات الجاهلة، والخضوع للآخرين، وقد أثبت التجارب أن العلماء بأبحاثهم واكتشافاتهم هم أقرب الناس إلى الإيمان الصحيح القائم على الأدلة والبراهين، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

٢ - قال الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا مِنَ الْقَاتِلِينَ ﴾ [التحریم: ١٠ - ١٢].

سبقت هذه الآيات بأمر للرسول، عليه الصلاة والسلام، بمجاهدة تلك العناصر المناهضة للدعوة، والتي تمثلت فى عنصرى الكافرين والمنافقين، وهذه المجاهدة هى لون من ألوان العلاج لهؤلاء وأمثالهم فى كل عصر وحين، تختلف فى أشكالها وأنواعها، فلا بد وأن الجزء من جنس العمل، والدواء مما يتناسب مع المرض مرارة وشدة، فقد أمر الرسول بمجاهدة فى طياتها غلظة وشدة لا تعرف الرحمة والشفقة، فهم نماذج سيئة للإنسان الذى ضل سواء السبيل، ولم يتبع الهدى، لذلك كان مأواهم جهنم وبئس المصير.

ثم جاءت الأمثال أيضاً بنماذج من الأعمال الطالحة، والأعمال الصالحة من أقوام سابقين تحمل فى ثناياها العظة والاعتبار، نماذج من جنس النساء تمثل نزعتين من النزعات اختلفتا هداية، وضلالاً، ومسلكاً، وعاقبة، وطباعاً، وأخلاقاً، وتحملت كل نفس وزر عملها، فلم تنفعها صلة قبرى، أو وشيجة نسب، كما لم تضرها سيئة ليست من كسب يدها.

هذا هو الصرح الثانى فى هذا المنهج القرآنى بعد العلم، واستخدام العقل والتدبير، وهو إبراز ذاتية الإنسان، وحرية فى العمل، وتحمله للمسئولية فى نشاطاته المختلفة فى الحياة، والعمل من أجل الكرامة والعقيدة.

امرأة نوح، وامرأة لوط، انفصمتا عن زوجيهما الصالحين بأعمالهما الفاسدة، فكانتا من الكافرين، ولم تنفعهما صلة الزوج، ولم تنقدهما من عذاب الله؛ لأنهما تأمرتتا على زوجيهما، وأفشيا سرهما إلى قومهما، فكانا عوناً للكافرين، ومشاركين للباطل فى وقفته ضد الحق وأهله.

هذه القرابة الأسرية مرفوضة؛ لأنها قامت على غير هدى وطاعة، وقد وقف نوح، عليه السلام، هذا الموقف من ابنه، وهو يوشك على الغرق حينما أراد الاعتصام بالجبل ليحميه من الطوفان والغرق، وكان من جملة الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]، صدق الله العظيم.

فالقرباة هى الطاعة والدين، ولا قرباة لعاص، ولا لخارج عن أوامر الله.

ثم ذكرت الآية ذلك المثل الرائع لوقفه الحق ضد هجمة الباطل، وما له من أعوان من العتاد، والفكر، لامرأة فرعون، ومريم ابنة عمران فى الطاعة لله، والإيمان برسله، والصلاحية من الأمر، والثبات فى المواجهة الظالمة التى تتعرض لهما ولسمعتهما.

من خلال النموذجين نرى تربية القرآن الكريم للمؤمن الذى يتحمل نتيجة أعماله ﴿الَّتِى تَزُرُّ وَازْرَعُ وَزُرَّ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٨ - ٤١].

وعلى المؤمن أن يندمج فى مجتمعه، ويفهم حياته وما تستوجبه من عمل لغده، وتحرير لإرادته ونفسه من عوامل المهانة والذل، ومن كل الموبقات التى تودى به إلى المهالك، فقد رأينا خائن العقيدة لا تنفعه قرابة، ولا تغنى عنه صلة نسب، ولو كان برسول الله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وهذه النماذج الناطقة المصورة التى ضربت وتضرب، حتى فى مستقبل الأيام، للكافرين والمؤمنين تقدم أيضاً الدرس لزوجات الرسول، عليه الصلاة والسلام، وللنساء فى كل جيل، لتتحمل كل واحدة تبعة أعمالها، ومسئولية ما يقع منهن.

بل إن القرآن أوضح فى مجالات لا تحتمل اللبس أن هذه القربى لها تبعاتها العظمية فى مضاعفة الأجر إذا كان العمل صالحاً، ومضاعفة العذاب إذا كان الأمر سيئاً: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا وَمَن يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١]، صدق الله العظيم.

٣ - قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

تقدمت آية قرآنية ذلك المثل تفيد تفضل الله على عباده بإرسال رسول إليهم، يحمل الهداية والنور إلى الناس، برسالة هى الرسالة الخاتمة لكل ما سبقها من رسالات تحمل توصياتها وشرائعها، وتشمل كل ما تفرق على أيدي الأنبياء والرسول، وذلك لتكون

مشعلاً على طريق الحياة، وتبصرةً بالمواقف الجادة التي تنتصر على كل فكرة سابقة لا تحمل ضوءها ونورها من الله جل في علاه، ويكفى أن الله شهيد على ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

هذه مكرمة خص الله بها رسوله، والذي تتضح صورته، وصورة صحبه ومن آزره ونصره في دعوته، وإعلاء كلمة الله في المثل الذي نعرضه في الآية.

فالله يضرب المثل بأولئك الذين خلصت نياتهم، وأخلصوا أعمالهم لوجه الله، وفي سبيل دعوته بمحمد ﷺ وصحابته الذين آزره، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، فكانوا من المفلحين الذين يتراحمون فيما بينهم، ويتآخون برباط الإسلام، ويكثرون من العبادة والطاعة لله، ولا يقصدون من أدائها إلا ابتغاء وجه الله ورضوانه، قد صفت وخلصت من الغرض، وهم يهبون أنفسهم للدفاع عن الدين والعقيدة، والاستشهاد في سبيل الله، وهم أشداء على الكفار أعداء الله.

ظهرت آثار أعمالهم الصالحة على صفحات وجوههم، وهكذا المؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله، أصلح الله ظاهره للناس.

قلة قليلة بدأت بمحمد ﷺ، ثم قويت واستحكمت، وترقى أمرها يوماً بعد يوم، فكانت كما قال صاحب الكشاف: كما يقوى الطاقة الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها.

وظاهر المثل: أن الزرع هو محمد ﷺ، والشطاء: أصحابه. قيادة حكيمة اختارها الله من بين خلقه لتؤدي أمانة الوحي بالقدوة الطيبة والموعظة الحسنة، وتحمل الرسول الكريم الكثير من ألوان الإيذاء، والعنت في سبيل تبليغ دعوة الحق، ومحاربة الباطل، وكان حريصاً على هداية القوم، يتعرض لهم في كل مكان، ويسلك لذلك كل طريق، حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

القائد والجند تجمعهما رابطة العقيدة، وبينهما مدد مشترك يبعث فيهما القوة والتماء والروح، مدد روحى من القرآن الكريم، ومن نور الله يستمد الضوء، فيكون الزرع الذي استغلظ واستوى على سوقه، ويكون الشطاء الذي آزره، وكان عوناً له في سير الحياة.

مثل للمؤازرة الحميمة، والمساندة التي لا يمكن أن تنفصم إلا بفعل الله سبحانه

وتعالى. هذه الصورة ذكرت فى الكتب السماوية القديمة، التوراة، والإنجيل، وأبرزت صفات محمد وصحبه فى جهاد الدعوة بتلك الصورة المشرقة التى تدعو إلى الاقتداء بجليل الأعمال، والإخلاص فى الدعوة وتحمل تبعاتها، استجابة لأمر الله وإتماماً لنوره، حتى يصل إلى كل قلب واع، وروح متفتح إلى الإيمان بالله، والتنزه عن دنس الشرك، ووسوسة الشيطان، واتباع الهوى.

ومن الملاحظ أن تلك الصفات التى وصف بها محمد وصحبه إنما تناولت تلك القيم النفسية، من قوة فى الحق، وتراحم بين الناس، ومواخاة، وإخلاص طاعة، وكلها صفات وقيم تغطى على تلك القيم التى تواضع الناس عليها فى وقتنا الحاضر من تفاخر بالمال وكشورته، وطغيان بالمركز والجاه، وتعالى على الآخرين باللون والحسب والنسب، قيم باطلّة زائفة لا تصمد على الأيام، وهى ما تلبث أن تذروها الرياح ولا يبقى منها شىء.

ولكن هل استطاعت هذه الصورة أن تصل إلى تلك القلوب الغلف فتهدبها إلى سواء السبيل؟ هل وجدت الأرض ممهدة؟ هل أurst دعوتها فى بناء هذه الأمة دون مكابدة وعناء؟

٤ - قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

سبق هذا المثل بآية قرآنية تلفت النظر إلى ذلك اليوم الذى يجب أن يعمل حسابه كل مخلوق، وأن يزن أعماله قبل أن توزن عليه، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب فيه، وهو يوم القيامة الذى تقف فيه الأنفس والخلائق خاشعة بين يدي ربها ذليلة، وتحاول أن تبرئ ساحتها مما لحق بها من سيئات، وأن تنفض عنها غبار الذنوب والآثام، وتحاول أن تظهر حسن نياتها بما عملت فى دنياها، والله عليم بكل نفس، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، فهو يعطى لكل ذى حق حقه: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

هذا هو اليوم، وهو موقف تتعرى فيه النفس الإنسانية، وتظهر على حقيقتها، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١].

ثم جاء المثل عقب ذلك ليسوق ما يحمله من حقيقة تلك القرية وقاطنيها، المنعمين بخيراتها، الرافلين فى حلال الأمن والطمأنينة النفسية والمادية، ثم تتبدل بهم الأحوال بفعل أنفسهم، وتغير أخلاقهم، فيكفرون بنعم الله، فيذيقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

والمثل يضرب لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، وكفروا وتولوا، فأنزل الله نقمته بهم، وهؤلاء القوم قد يراد بهم أهل مكة التى كانت آمنة مطمئنة، مستقرة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، ويتخطف الناس من حولها، وهى آمنة، ثم كفرت بأنعم الله عليها، وحدث فضلها، فلم تشكر الله على ما أعطها من نعم، وخصها به من منح، وليست هناك منحة أعظم، ولا نعمة أوفى من بعثة محمد ﷺ، ولكنها استقبلتها بالجحود والكران، فكانت نعمة الله عليها شديدة، إذ بدل حالها، فألبسها الله لباس الجوع والخوف بعصيان أهلها لأمر الله وكفرانهم، فدعا عليهم رسول الله بسنين كسنى يوسف، عليه السلام، فأصابتهم سنة أذهبت كل شىء، وسيطر عليهم الخوف بما حققه رسول الله ﷺ من انتصارات فى غزواته المختلفة، حتى تم فتح مكة، وذلك بسبب تكذيبهم لرسول الله الذى بعثه الله من بين أظهرهم داعياً، ومبشراً، ونذيراً، وعاد عاقبة الظلم على أهله.

وإذا كانت هذه صورة قائمة لذلك المجتمع المكى الذى ساند بعضه بعضاً على الباطل، ووقف ضد نور الله يحاول أن يطفئه، فكانت يدُ الله الغالبة، وجاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، وتكسرت الأصنام، وحطمت تلك المعبودات يوم فتح مكة، كما تحطمت معها أنصارها وأعوانها من مفسدين وظالمين بما كانوا يصنعون.

فهى أيضاً صورة لكل من سار على درب الضلال فى كل حين، ضلال الفكر والاعتقاد، وضلال العمل، والفسوق، والعصيان، والمصير هو المصير، فالقانون الإلهى يجرى على الناس جميعاً لا يتخلف، فما دام هناك كفر وعصيان وابتعاد عن الحق وأهله، كانت هناك نعمات من الله من جوع يؤدي إلى نقص فى الأموال، والأنفس، والثمرات، والإمكانات المادية، وخوف يسيطر على الأفئدة، فتحرم نعمة الأمن والأمان فى الحياة، وتتبدد القوى المادية والمعنوية التى هى عماد الحياة الحقيقية، وذلك كله جزاء تلك الأعمال السيئة التى اقترفتها الأيدي، والنوايا الخبيثة التى أضمرت فى القلوب.

٥ - قال الله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يَقْلَبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿ [الكهف: ٣٢ - ٤٣].

تعرض الآيات السابقة لهذا المثل لحال من ذاق حلاوة الإيمان، وعرف الطريق إلى الله، ولم ينضم لحظيرة الكافرين والمنافقين، بل كان منه العمل الصالح، والمسارة إلى الخيرات، والجهاد فى سبيل الله، فحفظ الله له أعماله فيما كتبه له من ثواب عميم، وأجر عظيم، فى جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وأسبغ عليهم من نعيمه وخيراته ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذلك كله فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَافِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿ [الكهف: ٣٠، ٣١].

أما ما سيق فى هذا المثل القرآنى، فهو الجدير بإعمال النظر والفكر، فعن طريق الموازنة يعرف العاقل طريقه، وفى أى الفريقين يتمنى أن يكون، ومع من يعمل فى دنياه، وبأى سلاح يتسلح لمواجهة أخراه، ذلكم ما نراه فى هذه الرؤية العاقلة، والحوار البناء.

بصيص من نور فى قلب وفكر يعرف طريق الحق، فينصح ويبدل الخير لغيره حتى

يضرب الله هذا المثل لأولئك المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، الذين آمنوا بالله ورسوله، أخذ هؤلاء الكفار يفتخرون عليهم بما عندهم من كثرة مال، وضياع، وتجارة، وأحساب، وأنساب، يصور هذا كله في صورة رجلين، أحدهما له جنتان مثمرتان، وقد حوتا ألوان الثمار، وزخرتا بكل ألوان الجمال البادى في المياه الجارية، والزروع، والنخيل، والأعنان، مما كان دافعاً بصاحبها إلى الغرور، والتباهى على الآخر بكثرة ما لديه، وأنه لن يفنى أبداً، وأن حظه في الآخرة، إن كانت هناك آخرة، سيكون أوفر ثراء، وأكثر رزقاً، وظلم نفسه بهذا التفكير الأخرق، وبكفره، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا، ونسيانه للآخرة، وبذلك عرضها للعقاب يوم القيامة.

صورة مؤلمة لمن يخذع بالمظاهر البراقة التي قد تخذع، وتغرى بما لا يحمل في طياته من القيم الرفيعة التي يعتز بها الإنسان، يخذع بمتاع زائل، وجاه عريض، وسلطان مزيف، ولذائد رخيصة، وينسى تلك القيم التي تعلى من شأن الإنسان، وإن كان فقيراً مجرداً من المال والسلطان، من جهاد النفس، والزهد في الحياة، والعلم، والعمل، والبذل في سبيل الدعوة.

عرف الرجل الظالم لنفسه هذه الحقائق بعد أن اتضحَت الصورة أمام عينيه، وتكشفت الحقائق، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢].

أما النموذج الآخر، فقد استطاع أن يسبر أغوار الحقيقة، وأن يفهم بتوفيق الله إياه جوهر الأمور، وأن المظاهر خادعة، وأن وراء المظاهر منشئها وخالقها الأول، الجدير بالعبادة والطاعة، وأن هذه النعم هي: ﴿ فَضَّلُ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولا يجرم على النفس إلا ما كان ضاراً بها، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أحلّ الطيبات، وحرمّ الخبائث، ليست هذه الطيبات غاية في ذاتها، ولكنها سبيل إلى غاية أجل وأعظم من تقوية للبدن، والجسم، فقوى الإيمان لا ينظر للمال والحطام إلا نظره للأمور المتقلة، والأعراض الزائلة المتحولة، فلو منحها شكر، ولو حرمها صبر،

وهو فى كل ذلك عزيز النفس، بعيد عن الدنيا وارتكاب الخطايا^(١).

وهكذا تكاملت أمامنا فيما عرضناه صورة المجتمع الراض للخير، وما كان له من عاقبة سيئة، ثم ظهور تلك النبتة الخضراء التى تحمل فى ثناياها الإيمان والفكر المستنير، فتأخذ بيد الحائر فى متاهات الحياة، والفكر، والعقل.

ويبدأ يتكون ذلك المجتمع المتكامل المؤمن، الذى يشق طريقه إلى تحقيق حرية الحياة، والعقيدة، والفكر، ويبدل فى سبيل ذلك كل مرتخص وغال من دم ومال، وهذا طريق البناء الصحيح فى تحمل أعباء الحياة، كما يبدو فى الآيات التالية.

٦ - قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

سبقت ذلك آيات بينات مهدت وفرشت لما يأتى به المثل القرآنى، فقد تعرضت إلى حكمة الله جل وعلا، التى اقتضت أن تكون هناك مجموعة من الخلائق خلقها الله فى أحسن تقويم؛ لتقوم بدورها العبادى عن طريق ما وهبت من تفكير وعقل، وما حباها الله به من مبعث أنبياء مبشرين لهم بالجنة، وحسن المآب، إذا صلحت منهم الأعمال، وخوفين لهم من عذاب الله إذا أساءوا السلوك، وانحرفوا عن النهج، ولم يكتف بإرسال الرسل، بل أرسل مع هؤلاء الأنبياء كتباً تبين حقيقة العبادة، وجوهر الدين، وما يجب أن يكون عليه الحكم بين الناس فى القضاء والمعاملات والعبادات... إلخ من ألوان الفرائض التى فرضت وشرعت على يدى إبراهيم، وموسى، وعيسى... إلخ، هذه المواكب من الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله من بين خلقه.

ولكن بعض النفوس التى جبلت على الكفر والعناد، أبت إلا أن تذهب فى فهمها لهذه الكتب مذهب المصلحة الخاصة، والبعد عن روح الدين، والتأويل للمقروء منها، حتى خرجوا بها عن صفاتها ونقائنها إلى غير المقصود منها، وقد جر هذا الاختلاف الكثير من المتاعب للرسل والأنبياء، والبعد بالرسالات إلى غير ما وجهت إليه، وقد هدى الله القلة القليلة التى أحسنت الفهم، ولم تخرج عن المنهج الذى وضع من قبل الله فى كتبه ورسالاته، واستطاعت أن تواصل حمل مشاعل الهداية على طريق الله وصراطه المستقيم.

(١) من كتاب العظات الدينية فى الأمثال القرآنية والنبوية.

قال الله تعالى فى هذه الآيات: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ويلى هذا مقارنة فى المثل القرآنى بين حالين، وعرض لنموذجين، تظهر من خلاهما تلك الدعوة النبيلة من الله عز وجل للمؤمن أن يكون أهلاً لتحمل أعباء الحياة، وما تستلزمه من جهاد ومشقات فى سبيل الوصول إلى الغاية والفوز.

فالابتلاءات والاختبارات هى المحك الطبيعى لإفراز النفس المؤمنة الجديرة بالانتماء للإسلام، ﴿لَتَبْلُؤَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يصدق هذا على السابقين فى عهد الرسول ﷺ وصحابته، وعلى اللاحقين الذين أتوا بعده، وعلى كل جيل يأتى، فليس الانتماء بالاسم موجبا لاستحقاق الرحمة يوم القيامة ودخول الجنة، بل طريق ذلك تحمل الإيذاء فى سبيل الله، وفى طريق الحق وهداية الخلق: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

هذه سنة الله الجارية فى خلقه، لا تتغير ولا تتبدل، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وقد جرت سنة الله على أن الإيمان الحقيقى لمن اعتبر واتعظ بما حدث للسابقين الذين نزلت بهم الشدائد، وأحاطت بهم قوى الأعداء، ولم يروا بادرة من بوادر الفوز تلوح لهم، واعتقدوا أن وقت العناية الإلهية والنصر الذى وعدهم الله به قد حان، أو أبطأ حدوثه، فاستعجلوه بقولهم: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

منهج تعرضه الآيات، جدير بالاعتبار والتقدير، وهو طريق إلى التربية الصحيحة للأفراد والمجتمعات والشعوب، إذا أرادت أن يكتب لها نجاح فى هذه الحياة، وفى تجارب الآخرين وأحداثهم، وبخاصة المتماثلون فى النهج والطريق والمشكلات، سبيل إلى التعلم والاستفادة، ولا خير فى شعوب وأمم وأفراد، أصمت آذانها عن سماع القول والحق، وعميت عن رؤية الأحداث، وإن تحقيق أى فوز فى الحياة مرهون بالتدبير،

والأخذ بالأسباب، بعد الاعتماد على الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات، فلا يأتى عشوائياً، ولا عن طريق الصدفة كما يدعى الماديون والقائلون بهذه المقولات الفاسدة التى لا تدل على إيمان، ويأخذون بظاهر الأمور.

فالفوز بالآخرة مرتبط بالعمل، والصبر على صنوف الآلام والمتاعب والإيذاء، وأما التمنى والتغنى بالشعارات دون أن يصحب ذلك جهاد ومشقة، فبضاعة خاسرة لا تجد لها وزناً وتقديراً يوم توزن الأعمال، وتجد ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأسمى ما يقدمه المؤمن من عمل فى دنياه تلك الروح التى تحررت من الخوف، والذل، والحرص على الحياة، والاسترخاء إلى الدعة وطيب العيش، كما يتحمل المسؤوليات فى الأعمال المنوطة به.

ومن الأشياء التى توجه الآيات الأنظار والعقول إليها، أن آصرة العقيدة هى التى تربط المجتمع المسلم برباط التحاب، والآخرة، والأخذ بتعاليم الإسلام وأدابه القائمة على التكليف التى فرضها الإسلام، كما أن العلم الذى يكون النفوس المسلمة، ويصنع الحياة، هو القائم على النظر والاستدلال، ويربط بين العقل والقلب والعمل.

والدارس لمشكلات الشعب، والحياة الحاضرة، وما يجد من أزمت تأخذ بخناقنا، وبشبابنا وأولادنا وزوجاتنا، ومقارنة ذلك بما عرضناه من صور نابضة بالحياة، ومجاهدة النفس، والجهاد فى سبيل الله، والعمل على إيقاد جذوة الحياة بما فيها من قيم ومثل رفيعة، يرى من خلال هذه الموازنة والمقارنة أن أسباب ما نكابد وما نجد فى حياتنا من أزمت ومشكلات يرجع فى أساسه إلى تلك المصادر التى تولت تغذية عقولنا وأرواحنا بلبانها، وأرضعتنا بثقافتها، وأمدتنا بنماذجها البشرية؛ لتكون قدوة لنا فى الحياة، والعمل، والسلوك، والخلق.

إن هؤلاء الذين يعانون من تلك المآسى إنما يتلقون زادهم الفكرى وقيمهم المثلى من مصادر تشبع فيهم النهم، وتروى الظمأ الذى يستبد بنفوسهم وأرواحهم، مصادر لا يستطيع أى إنسان أن ينكر تأثيرها وإسهامها فى صنع قيم الإنسان، وتنمية عقله، وتغيير سلوكه، وبخاصة بعد تلك النقلة الجبارة فى العلم، والتقدم الحديث فى الاتصالات التى قربت بين الشعوب على اختلاف لغاتها ومذاهبها، وما تمارسه من عادات وأخلاق.

فإذا نظرنا إلى الإذاعة المرئية واستمعنا إلى المسموعة منها، وجدنا أنها تتجه في الكثير من برامجها إلى إرضاء الجوانب الشهوانية التي تسيطر على اتجاهات الشباب، وتغذى عقله بتلك الآراء الفجة المسمومة التي تؤلف خصيصاً لهذه الفئات، كى تفسد من تفكيرها، وتغرس فيها قيماً بعيدة كل البعد عن معتقداتها، وما مشكلات الأحداث، وكثرة حوادث اغتصاب الفتيات، ومسلسل قتل الأزواج، إلا ولادة طبيعية لما يجرى أمام الأبصار فى برامج مهزوزة، فلا يجد من أصاب العطن عقله بالعقم، وشلت يده عن العمل نتيجة البطالة والكساد، وسقمت البرامج التعليمية عن تقديم ما يتناسب مع إدراكه وحاجياته الحقيقية فى الحياة، فلا يملك إزاء هذا إلا أن يقلد ما يرى ويسمع فى ليله ونهاره، وقد يدفعه ذلك أيضاً إلى تلمس الغيوبة عن الحياة التى يجيهاها، ولا يشعر بجداولها فيما يتناوله من مخدر، وأقراص تنسيه آلامه وقلقه وحيروته فى الحياة.

إنها مسئوليتنا جميعاً، ولا نملك أن نحول بين هذا الشاب ونظائره ممن يتفوقون معه أو يختلفون سلوكاً ومنهجاً، ويقعون فريسة التقليد فى المظهر، والمشرب، والمأكّل، ولا نملك أن نحول بين سمعه وبصره ورؤية الأشياء المبتوثة فى جهاز التليفزيون، وشرائط الفيديو، والإذاعات الأجنبية، وبخاصة تلك الإذاعات التى تعمل عملها على تقويض دعائم الأمة الإسلامية بتقويض شبابها، وبث روح الانحلال فى أخلاق رجالها ونسائها، وإذا لم يكن قد كتب لها النجاح فى حروبها المستمرة، فإنها تملك ولا شك الوسائل الكفيلة بتحقيق انتصارات أخرى أقوى تأثيراً، وأشد فتنةً لعضد هذه الأمة ومعقل قواها بالتأثير فى أرواحها، وتغيير سلوكها واتجاهاتها فى الحياة.

لقد أتاح التقدم العلمى لكل إنسان أن يشاهد وأن يسمع ما يقع فى الحياة بلغته وبغير لغته، ما يثير فيه الانتباه، ويغرس فيه القيم، ويشحذ منه الفكر، ويؤدى به إلى الانطلاق، ولكن ما الضمانات التى تكفل لنا نجاح هذه الأدوات فيما ترسله، وما تذييعه من برامج ومعلومات؟ لا سبيل إلى إنكار ما تقدمه من نجاحات علمية تفيد الحياة، والدارس، وتربط بين عقول العلماء والشعوب برباط المصلحة والنفع، وهو هدف نبيل لا ينكره إلا مكابر.

ولكن علينا أن نحسن استقبال ما يرسل إلينا عبر هذه الأقمار الصناعية، والإذاعات المسموعة، كما أحسنوا إرسالها، وذلك بحسن التطبيق والفهم المشترك بين العلماء الذى يخدم الحياة، وسرعة الاستجابة للمتغيرات التى تنشأ عن ذلك، ومحاولة إشراك الشباب

والأجيال فى هذه الطفرات العلمية بوضعها فى البرامج التعليمية، وتدريب أبنائنا على حسن استخدامها لتيسير سبيل الحياة.

أما الجانب الآخر، فهو ما يتعلق بالعادات والتقاليد والقيم التى تتصل بما لنا من أصالة، وترتبط بما نلقى من تعاليم سماوية خصنا الله بها، وجعل لنا كتاباً فيه هداية لنا وتبصرة بثئوننا، فهذا ما يجب أن يغرس فى النفوس؛ لتكون وقاية لنا ولأولادنا ضد هذه التيارات الوافدة إلينا ولا نملك لها منعاً، كما لا نملك لأنفسنا ولا لشبابنا حجزاً وحرماناً.

وبجانب تلك الوسائل المسموعة والمرئية، تقف وسيلة أخرى أسبق فى التأثير والوجود، وهى: الصحافة، فما كانت تلك الصحف التى تلقاها إبراهيم، وموسى، وعيسى، من قبل الله سبحانه وتعالى، إلا تربية للأمم والشعوب والأفراد، بما تحمله من تعاليم السماء، ووصايا تعلقى من شأن القيم، وترفع من درجة الأعمال الصالحة إلى أن تكون المعيار الحقيقى الذى يميز بين إنسان وإنسان.

هذه الوسيلة مع تطور الأيام وظهور الطباعة والمطبعة، لعبت دورها البارز فى إثارة الأذهان، وتعميق الفكر، واستطاعت بما ينشر فيها على أيدي محرريها أن يشكّلوا من طاقات الإنسان، وأن يوجهوا السلوك إلى اتجاه معين حكمته ظروف الحياة القديمة بما لها من تقاليد، ودفعت إليه من سياسات، كانت طريق هداية، ورسول بناء، ونداء حرية، وتحرير مستضعفين، أدت رسالتها؛ لأنها أحست بواجبها نحو نفسها، وشعبها، وحاجيات أمتها.

أما إذا أسىء استغلالها، كما يحدث فى تلك الصحافة الرخيصة، فإنها ولا شك تصبح معول هدم يفسد على الإنسان دينه، وخلقه، وقيمه، بما تبثه من فكر رخيص، وقصص منحل، وأحداث تقع فى الشرق والغرب تغرى بالتبعية والتقليد، وبخاصة ممن يخدعون بالتقليد فى المظاهر البراقة، وأشكال المجون والترف، وأخطار هذا لا تقع تحت حصر فى حياتنا اليومية.

والشارع بما فيه ومن فيه من مجريات، وأحداث، وأناس، وما يقع من صراعات وتدافعات، يلقى على أذن الطفل الكثير من الكلمات، ويعرض على عينيه الكثير من المشاهد، ويوحى إليه بأمور تغاير طبعه، ويثبت فى أعماقه الكثير من المظاهر التى تعج

بها الحىة، وفىها ما فىها من المفسدات، من تهالك على المتع واللذائذ، وما ىتشر فى بىئات كثرىة من مخدرات تفعل فعلها فى إفساد الأسر والشباب، وما تعودهم من عادات الإدمان التى لا ىفلح معها علاج، ولا ىنفع فى كبح شرورها قانون، أو استشفاء.

ولذا نجد فى أحداث هذه الأيام، أن كثرىاً من الأحداث الصغار السن قد قبض عليهم جهاز الشرطة فى تلك المواطن التى تتشر فىها هذه المخدرات، يقدمون للمدمنىن المخدرات، وىعملون تحت أیدى عصابات توجههم هذا التوجه الشائن الذى ىفسد عليهم أنفسم، وحقابهم، وأسرههم.

هذه أبرز المصادر الفعالة التى تؤثر فى صنع هذا الشباب، وما تؤدى إلیه من سوء استخدام ىعمل على زیادة هذه المشكلات التى ىعانى منها المجتمع، وىعانى منها الشباب.

وقد ساعد على ذلك ظروف أخرى اقصادیة قاسیة مرت بهذا المجتمع عقب تلك الحروب العدیة التى خاضها الشعب، والشباب، والمجتمع، ضد أعداء الحىة، فكانت هذه المأسى وهذه المشكلات، وكلها من خارج النفس، ومن صنع أیدینا؛ لذا كانت العثرات والسقطات، والبعد عن الصواب.

وبعد: أئمة ترابط بین الأمثال القرآنیة؟ أتوجد بینها وحدة فى الأهداف، والاتجاهات، والمعالجة؟ هذه تساؤلات تجیب عنها تلك الدراسة المطولة التى سبقت، فهى على اختلاف صیغها ومضمونها ومواقعها، تهدف إلى استكناه حقیقة الإنسان، ووظیفته فى الحىة، والحكمة من وجوده، وتبىان خصائصه التى ىستحق بموجبها عمارة الكون، وخلافة الله فى الأرض.

لقد سخرت مظاهر الكون بأرضه، وسمائه، وجباله، وأنهاره، ودوابه، ومخلوقات، من أجل هذا الإنسان الذى میزه الله بالعقل، وكرمه بإرسال الرسل، وفضله على بقیة مخلوقات، وجعله أهلاً لتحمل الأمانة التى عرضها على السموات والأرض والجبال، فأبىن أن ىحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، حملها بما له من إمكانيات التدبیر، والعقل، والفهم، والحریة، والاختیار فى الأمور، وتحمل المسئولیات التى ىترتب علیها الثواب والعقاب، والجزاء فى الدنیا والآخرة.

انفرد ذلك الإنسان بتلك الميزة التى تجعله يعيش حياتين: دنيوية يكابد فيها، يسعد ويشقى، ويمرض ويصح، ويتطور فى خلقته من صغر إلى كبر، وحياة أُخروية يجد فيها جزاء سعيه فى دنياه، ونتيجة عمله الذى قام به، وحريرته التى اكتسبها، وهكذا ينفرد بتلك الخاصية التى لا تحظى بها مخلوقات أخرى من دواب ومخلوقات، وأرض وسماء.

بل إن هذه المخلوقات إنما جعلت فى هذه الدنيا لتخدم ذلك الإنسان الذى يبحث عن مصيره فى دنياه وأخراه، وعن ذاته، وكيف تتحقق، وعن وجوده، وكيف يكون، تخدمه بلا مقابل ولا جهد، فالزرع ينبت فى الأرض ويستوى على سوقه ويعطى ثماره، والشمس تشرق فترسل الدفء إلى الأجسام المقرورة، وتثير الرياح والسحاب كى يحمل فى طياته المطر الذى يبعث النماء والخير، كى يجيا الإنسان، عطاءات عديدة من قبل خالق الخلق بمقتضى روبيته لهذا الإنسان، والذى أمر ملائكته بالسجود له، وقال لهم: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، لا يسأل عما يفعل، فقد خلق ذلك الإنسان وهو يعلم بجقائقه علم انكشاف وإحاطة، وإدراك لما يتطلبه، لحكمة إلهية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

هذا هو المحور الذى تدور حوله الأمثال القرآنية، والترابط بين غاياتها فى تحرير هذا الإنسان من كل إصر يعوق عقيدته، من أن تنطلق نحو الإيمان الحق بالله الواحد، والابتعاد عن مواطن الأهواء، والنزعات الضارة المفسدة لتلك الفطرة النقية الصافية التى خلقها الله سبحانه وتعالى، لتتشرب روح الحياة كما خلقها خالقها، ولتسير فى ضوء هداة، واضحة المنهج، متمتعة بطيبات ما أحل الله، بعيدة عن نزعات الشيطان، محققة ذلك الإنسان المميز بعقله، وحريرته، واختياره، والذى يستحق كلمة الله فى حقه: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

المقارنة بين الأمثال القرآنية:

بالقراءة المتأنية والواعية لسور القرآن الكريم، يستطيع الإنسان القارئ أن يجد ألواناً من التفاوت والاختلاف فى الأمثال التى عرضت، تفاوت واختلاف يرجعان إلى طبيعة المكان، والزمان، والناس، والموضوع المعالج، إلى غير ذلك من أوجه الاختلاف، وقد استطعت بتوفيق من الله جل فى علاه، أن أحدد بعض هذه الأوجه، أعرضها فى الآتى:

١ - الأمثال التى وردت فى القرآن الكرىم فى السور المكىة أكثر من التى وردت فى السور المدنىة، ويرجع ذلك إلى بدء الدعوة فى مكة، وحاجة الناس إلى وسائل عديدة من الإرشاد والتوجه، حتى تصل الدعوة إلى نفوسهم وقلوبهم وعقولهم، عن طريق الاسترشاد بالأحداث والوقائع، وبخاصة أن الأمية والجهالة فاشية فى القوم، وكانت التقاليد والعادات آخذة برقابهم، ومهيمنة على عقولهم، فهم لا ينفكون يقولون: هذا ما وجدنا عليه آباءنا.

والتغلب على هذه العقدة المسيطرة جد عسير، ما لم تستخدم تلك الوسائل المؤثرة فى النفس والعقل، فهم بمثابة أطفال وجدوا أنفسهم فى مقاعد للسمع، ويحتاجون إلى إدراك ما يزيل ما بهم من جهالة، ويرفع عنهم الغشاوة، ويفتح أعينهم على أنوار الحياة بكل معطياتها، ولا يتأتى ذلك بالتعليم المباشر، وبالنصح الغالب، وإنما تقوم وسائل الإيضاح بمهمتها خير قيام بعرض بعض قصص السابقين، ووصف أحوال الغابرين بتلك الصورة الموحية التى تستخلص نتائجها، ويستهدى بها العقل إذا وصلت إلى سمعه، واستقرت فى أعماقه، وقد تكون كما نفعل الآن بمثابة فيلم يعرض على الصغار، فيثبت فى أذهانهم المعلومة، وينقل إليهم التجربة، ويعرفون النتيجة بتلك الصور التى تستولى على مشاعرهم، هم فى دور التكوين والتعليم، فلتؤد وسيلة الإيضاح مهمتها بكل طريق.

ومن التجارب والأحداث والوقائع تكون الخبرات الصادقة، والنتائج القريبة، ولم لا؟ اليس هؤلاء الناس أقرب إلى جو هذه الأمثال، وما بها من صدق وفكر، وتأثير بما يشتهر على ألسنتهم من حكمة صادقة يرسلونها إرسالاً، فتدوى مع الزمن، وتصدق فى كل حين، أليست الحكمة التى يتحدثون بها فى ندواتهم ويتناشدونها فى أشعارهم إلا قسيماً لذلك المثل الذى يردد بين الحين والحين، فيكون له تأثيره وأثره؟

إن الأمثال الحكمية بما ترسله من إشعاعات الفكر، وتأثيرات القول، وعمق التجربة، لتعلى من شأن قائلها على مدى العصور والأيام، وتعلى من شأن معتنقها ومصديقها لو ساروا على نهجها وهداها، لذلك كانت الأمثال فى هذا الجو، وفى هذا الميدان، من متطلبات الدعوة، تأتى فى آيات الله لتنزع الجهل والجهالة، وتقتلع بذور الشرك، وتضع اللبنات الأولى فى بناء ذلك المجتمع الذى يحتاج إلى كثير من مواد البناء من مثل، وحكمة، وأمر، ونهى، وتبيان... إلخ.

وعن طريق هذا المثل الذى يقوم على التشابه بين قصتين، وحالتين، دعوة لأولئك الناس إلى استخدام عقولهم فى التفكير الذى يقوم على الموازنة والتمييز بين شيئين ليختار العاقل الصالح من الأمر، وإعلامهم بأن العقل والفكر علامتان للإنسان الجديد الذى يدين بدين الإسلام، فلا خضوع لتقاليد، ولا إرهاب لسلطة مهما كانت مراكزها، ولا بجنس أو لون، وإنما الناس جميعاً إخوة سواسية، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فى هذه البيئة الصخرية الحجرية فى طبيعتها، وفكر أصحابها، وتقاليد أسرها وعائلاتها، وتكوين مجتمعاتها، كان من الحكمة الإلهية أن يكثر قرع الأذان بتلك الدقات الشديدة من الأمثال؛ لتصل إلى مجامع القلوب، فتقوم من غفوتها، وتستيقظ من سباتها العميق الذى يجلب عنها الرؤية لذلك النور الإلهى الذى بدد الظلام، وأزال الغشاوة عما لحق بالصدور والقلوب من الشرك بالله، والانتماء للباطل بصوره وأشكاله.

وإذا كانت الفترة الزمنية الأولى فى بدء الدعوة قد امتدت إلى ثلاث عشرة سنة، مما أتاح للرسول، عليه الصلاة والسلام، أن يعمل على نشر الدعوة بين ربوع مكة وما جاورها، وأن يهيم أولئك الرجال الذين اتبعوه وآمنوا بالقرآن الكريم ليحملوا رسالته فى كل مكان، فإن المجتمع الجديد الذى ستنقل إليه الدعوة تختلف فيه الصورة عن المجتمع المكي، فهذا المجتمع المدنى يقوم على الزراعة، وطبيعته تختلف عن طبيعة مكة، فالأرض الخصبة تعطى، وتنبت الخير والرزق، وتنعكس تلك الطبيعة على أهلها براءً، وسماحة، وليناً، واستجابة لدعوة الخير من أول نداء وجهه الرسول إليهم فى بيعاتهم التى بايعوا فيها رسول الله ﷺ، فهذا المجتمع تفتح ذهنه لهذا الفكر الوافد، وبدت ملامح اليقظة فى حركاته بفعل تأثيره بغيره من المجتمعات الأخرى التى اختلطت به، وتميزت بفكرها، وكتبها السماوية، فكان الأمر سهلاً، لا يحتاج إلى كبير معاناة فى توصيل الحقائق المباشرة التى تبنى الحياة بكل اتجاهاتها المختلفة.

فليس فيها ذلك الفكر المتسلط، ولا رهبة أصحاب السلطة الدينية، كما فى مكة، ولا تلك التقاليد البالية التى تعوق الفكر الجديد عن الوصول إلى قلوب الناس وعقولهم.

وكان القرب من اليهود فى ذلك الوقت سبيلاً إلى معرفة مظاهرهم الدينية،

واختلاطهم بهم، وتناقلهم لأمثالهم وأقوالهم، لذلك كانت منهم الاستجابة السريعة لكلمة الإسلام والإصغاء لتعاليمه دون حاجة ماسة إلى ضرب الأمثال الكثيرة التي يحتاج إليها المعاندون والجاحدون لآيات الله.

٢ - تشابه صياغة المثل المكي والمدني في كثير من المظاهر الخارجية، من حيث اشتغالها على الممثل له، والممثل به، والإتيان بكاف التشبيه، الأداة، في صورة قصصية، وصفة مجازية تصور حال كل منهما. إلا أن هناك أشياء جديرة بالملاحظة تعطى فروقاً لها دلالتها، مثل:

(أ) يكثر في المثل المكي استخدام الفعل ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وما أخذ من هذا الفعل من المضارع والمصدر، وما لهذا الاستخدام من وقع، فهو يقرع الأسماع، فيدعوها إلى الالتفات والتنبه.

(ب) يكثر في المثل المكي أيضاً التعقيب بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وهذا التعقيب بعد ذكر المثل له دلالته، فهو يبين الحكمة من إيراد المثل، ويوقظ في النفوس والعقول ما هي بحاجة إليه من رغبة في الهداية وبعُد عن الجهل والضلال.

(ج) البدء في المثل المدني يكثر فيه استعمال المثل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

٣ - اعتمدت الأمثال المكية في أدواتها التأثيرية على كثير من مظاهر الحياة المكية، فهذا المجتمع يقوم التعامل فيه على التجارة، والقوافل، والعييد، واستغلال مواسم الحج، وما يجلبه ذلك من نفع مادي يعود على الجميع، ونفع ثقافي، حيث تتناقل فيه السير والأحداث التي تلوكها الألسنة، وتبقى في عقول الناس راسبة، بالإضافة إلى أسواق أدبية شهيرة، تعقد فيها حلقات الشعر، وتعرض فيها نماذج الشعر الجيد، ويتبارى في ذلك الكثيرون، حتى إذا حكم لأحدهم بالتفوق، كتبت قصيدته بماء الذهب، وعلقت على الكعبة، أسواق شهيرة، أسواق عكاظ، وذى المجنة، وذى الحجاز.

في هذا الجو المفعم بالتأثيرات المادية والثقافية، كان لا بد وأن تكون الأمثال القرآنية

معرضاً لما تريد أن تقتلعه من النفوس من أفكار سقيمة، وتفرقة ظلمة، وقيم جاهلة، وهضم للحقوق، وأن تكثر من ذكر الأحداث للاعتبار والاتعاظ فى تلك الحياة التى انغمسوا فيها، تتكلم عن العبيد، وتذكر الأحداث التاريخية، وتندد بالشركاء فى التجارة، والشرك فى العقيدة، والكفر، والعناد.

أما فى المجتمع المدنى، فساق الأمثال معتمدة على مظاهر الحياة التى تحيط بالناس، فتأخذ من مظاهر الطبيعة، وما فيها من ظلمة ونور، ورياح وغيث، ونباتات وجمادات، وأصوات ومخلوقات، ما توجه إليه أنظار الناس؛ ليكون محل تدبر وإبصار، فتكون الهداية، وكما تأخذ من مظاهر الحياة الخارجية التى تحيط بفكرهم، كاليهود وأشياهم، فتندد بمواقف أصحاب هذه الكتب من الرسول ودعوته، وذكر أحوال الأمم السابقة، وما حل بهم جزاء كفرهم وعنادهم، وما يجب أن يكون عليه المؤمن الحق من صفات، وإخلاص الإيمان بالله صاحب القدرة المطلقة، والاهتمام بالقيم النبيلة، وعدم الاعتزاز بالحياة الدنيا وما فيها.

٤ - أما مضمون الأمثال وموضوعاتها، فتختلف اختلافاً واضحاً بين المكى والمدنى، اختلافاً دعت إليه ظروف الدعوة الإسلامية، واختلاف الناس والمجتمع، والحالات التى تستدعى علاجاً معيناً، ويبدو ذلك فى الآتى:

المجتمع المكى مجتمع جاهلى تتحكم فيه تلك العادات الباطلة، والتقاليد البالية، وتسيطر عليه أفكار وثنية خائبة تلغى العقل ودوره، وتسمح للطبقية أن تعلق، وللعنصرية أن توجد، وللرأسمالية الظالمة الباغية أن تتحكم، كل هذه العناصر جعلت صوت الحق يخبو، ونور الله يتدد بين قوم قساة القلوب، غلاظ الأكباد، نفوسهم قدت من صخر، لا تلين لدعوة، ولا تستجيب لنداء كريم، حتى كانت كلمة الله، ونزل الوحي على محمد ﷺ ابن هذه البيئة، ولكن الله اختاره من صفوة خلقه ليعالج هذا الأمر بالقرآن الذى يوحى إليه، وبكل الطرق التى يسلكها رسول الله، فكانت هذه الأمثال وهذه الآيات التى تعالج الكفر بالله، وتندد بدعاة هذا الكفر وأصحابه، وتقبح أعمال الكفار الذين يتخذون الأصنام آلهة من دون الله، ويلغون عقولهم وتفكيرهم، وتقبح لهم اتحاد الشركاء، وترجزهم عن المعاصى، وتحبب إليهم الإيمان، وتكره إليهم الكفر، والفسوق، والعصيان.

كما تناولت الأمثال أيضاً البعد عن موجبات غضب الله التى تصيب الفرد والجماعة، ودعتهم إلى الإيمان بالبعث، والحساب، واليوم الآخر، وأظهرت قدرة الله فى عقاب من يستحق العقاب، ونددت بموقف الكفار من الرسول، وعنادهم، ومعاملتهم له... إلخ.

دارت كل هذه المعانى فى أثواب الآيات القرآنية وأساليبها، وكان للمثل المكى دوره البارز فى هذا المجال، يعالج السلوك الإنسانى إزاء رسالة الله ودعوته.

أما فى المجتمع المدنى، فالأمر مختلف، فقد عاجلت الأمثال الكثير من العيوب التى تبرز فى هذا المجتمع المتحضر من نفاق، وخداع، وبخل، وشح، وجبن، وعود عن الجهاد.

لم تتعرض مباشرة لسلوك الناس وتصرفاتهم إزاء الرسالة، وإنما هى بيان لما فى الكون والملكوت الواسع الذى يدبره الله أمره، فهذه الحياة الدنيا مثلها ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٢٤].

اختلفت البيئة، فاختلج الاتجاه والعلاج، واختلف الزمان، فكان لكل وقت دواء، واختلف الناس، فكان لكل دواء.

الأمثال العربية:

من خلال دراستنا للأمثال القرآنية، وما تناولته من اتجاهات عليا لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنها من التنزيل، تنزيل رب العالمين، الرحيم بعباده الذى خلقهم، وعرف احتياجاتهم، وما يعلى من مكائدهم وشأنهم، فوضع لهم الأسس الحكيمة التى يسرون عليها، ورسم للإنسان طريق النجاة بما ساقه له من قيم، وقدمه من مثل، ودعا إليه من أوامر، وما وضعه من تكاليف.

من خلال هذا كله، اشترأت النفس إلى محاولة إيجاد علاقة وترابط بين الأمثال القرآنية وما تعرضه علينا كتب التراث والأدب من تراث إنسانى نطقت به الألسنة، وحفظته العقول، وسجلته فى صفحات التاريخ من أمثال كان لها صداها وتأثيرها فى الفكر الإسلامى، حقيقة ما روته الكتب الأدبية يحوى بين جنباته الكثير من الأمثال العربية التى وصلت إلينا من العصر الجاهلى، وفيها ما فى هذا العصر من عادات وأمور قد لا تتفق مع القيم الإسلامية وما يدعو إليه القرآن، ولذا فإننا سنحاول بإذن

الله أن نعرض نماذج من بعض الأمثال التى تتشابه فى نزعاتها واتجاهاتها البناءة فى الحياة مع الأمثال القرآنية فى سمو أهدافها، ونبيل أغراضها، وهذه الأمثال عاشت وتعيش فى أفكارنا، وترتبط بعقائدنا، وتصلنا بماضينا.

وقد يكون فيما نذهب إليه من إيجاد علاقة فى الهدف والاتجاه، لون من التكلف والعسر؛ لأن المصادر القديمة لم تتعرض لهذه المناحى ولم تقدم لنا ما يرضى عقولنا من موازنات ومقارنات بين هذا وذاك، ولكن ما دامت النية قد خلصت لخدمة هذا الطريق، فإن فى أفراد باب بتعلق بالمنهج القرآنى وارتباطه بالأمثال العربية المتفقه معه فى الاتجاه والمأخذ، ما قد يعنى القارئ اللبيب الذى يستطيع أن يتبين من التقارب الذى نطقت به الألسنة التى تشربت حب الإسلام، وتعلقت به أرواحها وقلوبها، وعقولها، وعقائدها، فنطقت بذلك معبرة، وجرى على ألسنتها من لفظها الخاص ما ينبىء عن شدة الحب والارتباط بتعاليم الإسلام، وارتباط الناس به فى حياتهم الخاصة والعامة، وفيما يجرى بينهم من تعامل وعلاقات.

وفيما أسوقه من نماذج أمثال، إنما أعطى دليلاً على أن الخلق المسلم إنما استوحى فيما نطق وفيما عمل طريق القرآن، ودعوته، ومنهجه.

وقبل أن نعرض لهذه النماذج المختارة التى تعتبر نواة لدراسة أوسع فى أنواعها، وأقسامها، وأغراضها، والتى عقدنا العزم بمشيئة الله أن نجعلها مبسطة بين يدى القراء فى دراسة مستقلة، أن نعرض لبعض الحقائق العامة التى تثير الطريق لما سيطرح من أمثال عربية، تعالج مواقف الحياة، وتعرض أحداثها، ووقائعها، وعظاتها، وهى تكمن فى الآتى:

١ - هذه الأمثال فى أغلبها مجهولة الصاحب، لا يعرف لها قائل، ولا تسند إلى شخص معروف، ولكنها سلكت طريقها إلى الحياة عن طريق المشافهة والرواة حتى وصلت إلينا فى تراث له فى النفس إعزاز وتقدير، قد استحوز على هذا الفضل، وهذه المكانة بالنظر إلى مضمونه ومعناه، أما معرفة الصاحب، وكيف نشأ المثل، فلم يحظ ذلك باهتمام الرواة.

٢ - كان من أساليب بقاء هذه الأمثال، والحفاظة عليها، ما تتسم به من صدق، ومن توافق مع الحياة فى تطبيقاتها، وما تحويه من قيم رفيعة، واتجاهات بناءة مقتبسة من القرآن الكريم، والحديث النبوى.

٣ - إيجاز هذه الأمثال، واعتمادها على اللفظ القليل، والمعنى الكثير، أغرى بسرعة تداولها وحفظها، والتمثل بها، فى اللحظات المشابهة لما قيلت فيه.

٤ - تعرضت هذه الأمثال لأحداث حدثت، ونظقت بها السنة المشاركون لهذه الأحداث، أو المشاهدين لها، أو السامعين لأوصافها، فكان ذلك دافعاً إلى الحرص عليها، والتمسك بمعرفة أصولها ومناسباتها.

٥ - كانت هذه الأمثال صورة واضحة لأحداث الحياة، وشخصياتها المتباينة، فيها الرجل والمرأة، والكبير والصغير، والفتى والفتاة، والعالم والجاهل، والحاكم والمحكوم.

حقائق كثيرة نورد بعضها فى هذا المقام، تاركين لما نختاره من نماذج مهمة ألفت الضوء على ما تزخر به من صور رائعة لقيم رفيعة من القرآن والحديث، وما يعد أنموذجاً للفكر العربى والعقلية العربية، وأسلوب الحياة فى تطبيقاتها العديدة على أيدي أفراد وجماعات، وأحداث فى الحياة، دون تكلف أو حاجة إلى معرفة قواعد نحوية، أو أوزان عروضية، أو أنماط من الأساليب تبعها الأدباء والعلماء.

هذا بالإضافة إلى أنها اتخذت فى أسلوبها الأعم والأغلب، أسلوب الأمثال الحكيمية التى تعرض المعنى فى ثوب موجز من اللفظ، ولا تعرض صياغتها اللفظية على طريق الأمثال القرآنية القائمة على التشبيه التمثيلى، ومن وجود مشابهة بين حالين مختلفين، وإنما تكتفى بذكر قضايا مسلمة محكوم بصحتها من واقع الحياة، ويمكن اللجوء إليها والاستشهاد بذكرها إذا كانت هناك حال مشابهة لها.

١ - المنهج الذى قامت عليه الأمثال:

أ - بناء الإنسان:

حددت هذه الأمثال بصورتها الموجزة، طريقها فى خدمة الحياة بكل متطلباتها، وذلك بالنظر إلى الإنسان وواقعه، ولم تخرج به إلى عالم الخيال، والعيش مع الأحلام والتمنيات، دعت إلى أن يكون إنساناً مكتمل الإنسانية، بعيداً عن الانزواء والجهالة، وأن يكون ذا شخصية لها سماتها البشرية من عقل مفكر، مبدع، مالك لزام نفسه، متحكم فى نزواته وشهواته، له منهجه الواضح فى الحياة، لا يلتوى به الطريق، ولا يتخذه الأمانى والآمال الزائفة.

وبناء هذه الشخصية على أسس من الواقع والصلاحية للحياة عن طريق خبراتهم، وتجاربهم، ودعوات الحياة، وعلى هدى ما رسمه منهج القرآن الكريم، وما وصفه لنا من خلال الأمثال القرآنية التى تكلمت عن هذه الشخصية المسلمة، والنفس المسلمة التى صاغها القرآن الكريم فى أوامره وتكاليفه، وطبقها محمد وصحبه الكرام فى معالجة أوضاع الحياة.

ونحن إذ نعرض لهذه الاتجاهات من خلال الأمثال العربية التى نسوقها فى ثوبها الذى وردت به، نلمس جانباً من تيارات ثقافتنا العربية له فى تكويننا العقلى مكانة لا تقل شأنًا وأثراً عن مكانة الشعر، وبقية ألوان النثر، ولا أعالى إذ قلت: إن هذا الأثر سيظل قوى المفعول، محفوراً مع الزمن فى العقل والوجدان؛ لأنه مأخوذ من الحياة، ومستمد من الأحداث، ومرتببط بالوقائع والواقع، فقد تلفظت به شفاه، وطبقه أشخاص، ورسمته فى دنيا الواقع أحداث كانت من الحياة وإلى الحياة تعود، وخاطبت العقلاء من القوم، صغيرهم وكبيرهم.

قامت الأمثال على مخاطبة الإنسان، والنظر إليه، وسبر أغواره، والإحاطة بشأنه، وتصوير أحواله النفسية، والوجدانية، والاجتماعية، والعقلية، وكل ما يتعلق به فى حياته الخاصة والعامة، خاطبت الإنسان الذى حظى بالتكريم من خالقه، ففضله على بقية مخلوقاته بتلك القيم التى يمثّلها فى حياته، ويطبّقها فى معاملاته.

خلق الله الإنسان حراً، له إرادته الخاصة، واختياره فى الحياة، فهماً، وسلوكاً، وعملاً، وعقيدة، دون أن يقع تحت تأثير معتقدات بالية تأتية من كبير أو صغير، أو معبودات باطلة تسيء إلى آدميته، وفطرته، فطرة متحررة تعطيه هذا المدد من الحرية والاختيار فيما يملك من أدوات، واستخدام حواس خلقها الله له، وهياها لخدمته، وقد لا تكون هذه الأدوات كافية للهداية والتوجيه فى الحياة، وقد يكون العقل قاصراً، فلا يبلغ بصاحبه إلى برّ الأمان الفكرى والعقدى، لذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يعالج هذا القصور البادى فى الإنسان بإرسال الرسل الداعية إلى الخير، وعدم الاغترار بالعقل، والاستفادة من تجارب الآخرين فى الإمام بشئون الحياة، وعدم الاستبداد بالرأى، والأخذ بنصح الناصح ما دام خالصاً، هذا هو الإنسان السوى الذى يهدف إلى إبرازه وتكوينه المثل العربى فى تعبيره ورأيه.

يتصدر المثل العربى قائمة هذه النظرة بقوله:

١- دع امرءاً وما اختار:

يرى ذلك التنديد بمن يهدرون قيمة الإنسان فى فكره المتحرر، ورأيه الذى ينبع من عقله، ويجاولون السيطرة عليه بالإرهاب الفكرى، وإملاء الإرادة، حتى لا تكون هناك شخصية متميزة متحررة، إنهم بذلك يمسخون هذه الشخصية، ويلغون صفاتها المتميزة فى فكرها الحر، وعملها المنطلق فى رحاب الحياة دون قيد أو عائق، يريدون أن يرسموا له الطريق، ويجددوا له الاتجاه، حتى يكون كالألة الصماء التى تدور وتعمل تبعاً لأوامر صانعيها.

وما هكذا الإنسان وما خلق له من تعمير للكون والحياة، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

فالإنسان مجزى بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والجزاء من جنس العمل، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدرثر: ٣٨]، وقد عبر عن ذلك مثل عربى آخر بقوله:

٢ - يداك أوكتا وفوك نفخ:

ويضرب هذا المثل لمن يجنى على نفسه بأفعاله وأعماله، فهو بقصوره وتقصيره يتسبب فى إيذاء نفسه.

والإنسان بمسؤولياته، ويتحمله لأعباء الحياة، وتفكيره، والجزاء فى الدنيا والآخرة مبنى على ما قدم بنفسه وبتفكيره الحر، دون سيطرة أو رقيب إلا من داخله، من أعماق نفسه، ومن معتقده، وهكذا تكون الانطلاقة الحرة المتمثلة مع الحياة المتطورة، وما تستدعيه من الفكر الحر، والاختيار المطلق الذى لا يتقيد إلا بتعاليم الدين وما يضعه من قواعد وتكاليف يحاسب عليها الإنسان من رب الإنسان ورب الأرض والسماء، رب العالمين ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأصل هذا المثل أن رجلاً كان بجزيرة، فأراد أن يعبر على زق قد نفخ فيه، فلم يحسن إحكامه، حتى إذا توسط البحر خرج منه الهواء المضغوط، ففرق الزق، فاستغاث صاحب الزق برجل، فقال له: يداك أوكتا وفوك نفخ.

وإذا كانت الانغلاق فى الفكر، والتوقع فى الزمان والمكان، من الأمور المرفوضة

فى حياتنا الحاضرة، فالانطلاقة البهيمية فى الشذوذ الفكرى، والتحرر من كل معتقد صائب، ومن كل دين وقيمة، لها من الخطورة والضياع ما للأولى من المهانة والاستخفاف بالإنسان وإمكاناته، وأولى بالإنسان أن يأخذ طريقه فى الحياة دون جهالة مميته، أو عجب قاتل، حتى يكون كما قال الشاعر:

إذا المرء لم يدر ما أمكنه ولم يأت من أمره أزينه
وأعجبه العجب فاقتاده وتاه به العجب فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوماً ويبكى سنه

وإذا كانت الحرية هى اللبنة الأولى فى بناء الإنسان، فإنها لا تكمل إلا إذا صحبتها عزمات قوية، وإحساسات بالكرامة التى ترتقى بالإنسان إلى عزة تنزهت عن الهون، وابتعدت عما يشين خلق الإنسان، أو يجعله مضغة فى الأفواه، أو يصمه بوصمة عار تنتقل من نفسه إلى عقبه، قوانين للحياة ليست غريبة عن دعوات الأديان، بل هى فى صميمها وجوهرها.

فكم من نداء ودعوة سمعناها من أفواه الرسل، عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وهم يدعون قومهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم دون انتظار لمكسب مادى رخيص، أو ابتغاء أجر على دعوتهم، ﴿لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنْ لَمْ يَجِبْ لَهُمْ يَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَاقِبَتِهِمْ﴾ [غافر: ٤٤].

وما لنا لا نذكر هذا الموقف لرسول الله ﷺ وهو يستعرض ما تفتقت عنه حيل المشركين وتفكيرهم المريض، ليشنوه عن طريقه ودعوته، وقوله: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»، مغريات الدنيا بما فيها من مال، ومكانة، وملك، لا تقف بصاحب العقيدة عن طريقه، أو تبعده عن مسلكه الذى هياه الله.

وهكذا طريق الإنسان الحر الكريم على نفسه وعلى قومه، سواء كان رجلاً أو امرأة، طريق سلكه أولئك العظماء من الذين مهدوا الطريق وساروا، فلم يهنوا ولم يضعفوا، ولم يقفوا أمام مغريات الدنيا بمختلف ألوانها وصنوفها، موقف الخاضع لها، الدليل أمام مغرياتها، وقد نطقت بذلك أمثال العرب فى هذا المنحى الكريم، فقالت كما روت ذلك كتب الأدب:

٣ - تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها^(١):

وتفسيره: أى لا تأكل بما يدره عليها ثدياها من أجره الرضاع للأطفال، وإن ألمها الجوع.

وأصل هذا المثل أن الحارث بن سليل الأسدى زار حليفه علقمة بن خصفة الطائى، فرأى ابنته الزباء، فأعجب بها، وطلب من أبيها أن يزوجه إياها، فقال له أبوها: أنت كفاء كريم، ولك من حسبك ومنصبك وبينك ما يرغب فيك، ولكن أقم حتى ننظر فى أمرك، ودخل على زوجه يستشيرها فى الأمر، ويعلمها بعزمه على تزويج ابنته بالخطاب، فقالت له: لا تفعل حتى نعرض الأمر على ابنتنا، فقالت الأم لابنتها: أى الرجال أحب إليك؟ الكهل المتاح، أم الفتى الوضاح؟ قالت: لا، بل الفتى الوضاح^(٢)، قالت: إن الفتى يغيرك، وإن الشيخ يميرك^(٣)، وليس الكهل الفاضل الكثير النائل كالحديث السن الكثير المنّ، قالت: يا أماه، إن الفتاة تحب الفتى كحب الرعاء أيقن الكلاء، قالت: أى بنية، إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب، قالت: إن الشيخ يبلى شبابى، ويشمت بى أترابى.

فلم تنزل أمها بها حتى غلبتها على أمرها، فتزوجها الحارث، ورحل بها إلى قومه، وبينما هو جالس فى فناء بيته، إذ أقبل بعض الشباب من بنى أسد قومه، فى فتوتهم وقوتهم، فتذكرت حالها، وقارنت بين حاليتها، فبكت على شبابها الضائع مع رجل كهل، فلما رأى زوجها ذلك قال لها: ثكلتك أمك، تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها، ثم قال لها: الحقى بأهلك، لا حاجة لى فيك، وقال:

تهزأت أن رأتنى لابساً كبيراً	وغاية الناس بين الموت والكبر
فإن بقيت لقيت الشيب راغمة	وفى التعرف ما يمضى مع العبر
فإن يكن قد علا رأسى وغيره	صرف الزمان وتغيير من الشعر
فقد أروح للذات الفتى جذلاً	وقد أصيب بها عيناً من البقر

(١) انظر: كتاب ألوان (ص ٨٢).

(٢) الوضاح: الحسن الوجه.

(٣) يميرك: يقدم لك أطيب الطعام ويميزك فى المعاملة.

عنى إليك^(١) فإنسى لا يوافقنى عورُ الكلام^(٢) ولا شرب على الكدر

وإذا كانت سمة الإنسان فى الحياة، إرادة وكرامة فوق حرية يتمتع بها، فى قوله وعمله ومسلكه، فإنها أيضاً لا تكمل بمعناها الواسع إلا إذا اتصلت بالحياة بناء وعملاً نافعاً، ومشاركة إيجابية فى الحياة تمد يد العون لمن يحتاج، وتقدم الخير للجميع، ولا تبخل بعبء، ولا تضن عن مشاركة، هو إنسان لم يخلق لنفسه فقط، وإنما هو سبيل سعادة الآخرين، وحياة لمن يبعى الحياة، وسلم لمن يريد الطمأنينة فى يومه وغده، وهو كما عبر رسول الله ﷺ فى حديثه، جليس صالح بكل ما تحمله هذه الكلمة البناء من معانى النفع، والخير، والهداية، والأثر الطيب فى النفس وفى الآخرين: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافح الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة...».

إنسان يعمل ويحفظ ماء وجهه من السؤال والشحاذة، ويحفظ غيره من الضياع، ويفيد الآخرين بألوان الخير والمنفعة، ويترك بصماته فى كل شىء علماً، ورزقاً، وخيراً، واجتهاداً، وقدوة، أليس هذا هو ما يدعو إليه القرآن والرسول فى العمل الطيب، والشفقة، والبذل، والعطاء، والأجر المضاعف لصاحبه فى جميع مجالات الحياة. وقد جاء المثل العربى مصوراً هذا الاتجاه فى قوله:

٤ - رب زارع لنفسه حاصدٌ سواه:

وأصل هذا المثل أن صعصعة بن معاوية ذهب إلى عامر بن الظرب، يخطب ابنته، فقال: يا صعصعة، إنك جئت تشتري منى كبدى، وأرحم ولدى عندى، النكاح خير من الأيمة، والحسيب كفاء الحسيب، والزوج الصالح يعد أباً، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك.

ثم قال لقومه: يا معشر عدوان، أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم، ولكن من خُط له شىء جاءه، رب زارع لنفسه حاصدٌ سواه.

فلولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به، ولكن

(١) عنى إليك: ابتعدنى عنى.

(٢) عور الكلام: يقصد به القبائح والأمور التى تنكرها الطبايع السليمة الشريفة.

الذي أرسل الحيا^(١) أنبت المرعى، ثم قسمه أكلاً، لكل فم بقلة، ومن الماء جرعة.
وقد يعمل الإنسان عملاً صالحاً يحتاج إلى تأن في جنى ثماره، والوصول إلى نتائجه، فأولى به أن لا ييأس من بلوغ الهدف، وأن يقف موقف الأمل في تحقيق الرجاء، دون استسلام لهوى، واستعجال لنتائج قد تتأخر، أو قد يعوقها عائق عن سرعة الإنجاز وتحقيق المراد، وأما إذا تحكمت فيه شراهة النفس، وتعجل أموره، فلن يكون حاله إلا كحال من عبر عنه المثل العربي:

٥ - استعجلت قديرها فامتلت:

فقد أبت نفسها الشرهة إلا أن تحقق مغنمها سريعاً دون انتظار لنضج اللحم فوق النار في قدرها، فأخذت بعض ما فيه ووضعت في الرماد الحار لتأكله سريعاً، وبذلك فاتها الكثير من أجل القليل.

ب - الإنسان والمجتمع:

وهكذا تصور الأمثال العربية النفس السوية في منهجها في الحياة، وطريقتها في معالجة شئونها، ويبقى بعد ذلك أن تتلاءم مع الآخرين الذين يعيشون معها في ظل مسؤوليات ضخام تحتاج إلى أسلحة مادية، وطريقة ناجحة، وإعداد نفسى.

وقد يستدعى ذلك بعض التنازلات من قبل صاحبها في سبيل اندماجه في محيطه، وتحمله لأعباء الآخرين.

وهكذا الحياة بقوانينها والتزاماتها تأبى إلا أن تستوفي حقها كاملاً من الإنسان السوى بإتمام العمل وإتقانه، والشجاعة في تحمل مسؤولياته، والإخلاص في إنفاذه، والخبرة بأموره.

وكل هذا وفق منهج قرآنى استقر في أعماق النفس البشرية والإنسانية من قديم الزمن وحديثه، وتعرضه الأمثال العربية بتلك الكلمات البسيطة:

٦ - أعط القوس باريها:

فصانع القوس أدرى بأسراره، وأعلم بإمكاناته، وهو الذى يستطيع أن يصلح عيوبه.

قوانين صادقة من الحياة فى ماضيها وحاضرها، حياة لا تقوم على جهالة وجاهلين، إنما على علم بأسرارها، وحذق بأمورها المختلفة، سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، ودينياً، وتربوياً، والاستعانة بكل هذه الخبرات لإدارة شئون الحياة، وللنجاح فى تسلم زمامها.

أما إذا تدخلت الأهواء، وتحكمت النزوات فى الاختيار، وتغلبت الأغراض الخاصة على العامة، فهو أمر مؤذن بانتهاء الحياة، وعلامة من علامات الساعة، حينما يسند الأمر إلى غير أهله، فتضيع الأمانات.

وأمثلة ذلك كثيرة فى الحياة والمجتمع، فأولئك الذين يتصدون للفتيا دون سند من دليل أو علم بشرية، أو فقه لقانون، وأولئك الذين يتصدرون واجهات الحياة الاقتصادية والمالية، أو يقودون الأمة إلى معاركها العديدة فى الحرب، والسياسة، والتخطيط، والتربية، والتعليم، دون بصر بالحياة، واستعداد لمجابهة أزماتها بما تستحقه من أسلحة مناسبة من علم، ومعرفة، وإخلاص فى العمل، وشجاعة فى تحمل المسئوليات، إنما يسيئون إلى أنفسهم وإلى دينهم، ومجتمعهم، ووطنهم بأعمالهم هذه التى تهدم ولا تبني.

ومن الأمور التى تحقق النجاح المنشود، أن يستعد المرء لكل ما يقع فى الحياة من أمور حسنة أو سيئة، يتلقاها ويحسن فهمها ووضع نتائجها موضع التنفيذ فى مكانها اللائق بها، حتى لا يؤخذ على غرة، فيجلب على نفسه هزات تؤثر فى تفكيره، وتقضى على نشاط جسمه وعقله، وقد تفضى به إلى عثرات فى طريق حياته، واضطراب فى تفكيره، وما يصدق على الفرد يصدق على الجماعة، والمجتمع، والدولة.

والمثل العربى:

٧ - قبل الرماء تملأ الكنائن:

فالاستعداد واجب للملاقة كل أمر صعب، وكم تعرضنا لكثير من ألوان المحن والأزمات فى معيشتنا التى لم نحسن التخطيط لها، فما نعانيه من ازدياد عدد، وتضخم سكان، وكثرة ديون من قبل من يتحكم فى رقابنا، ويمنع عنا ما نحتاج إليه من غذاء، وسلاح، ومال، إنما يرجع إلى أننا لم نضع كل هذه الأمور موضع حساباتنا وتقديرنا، فكان من ورائها ما نلقى من متاعب وآلام.

ولقد عَرَفْنَا المنهج القرآني منذ أربعة عشر قرناً من الزمن ما يجب على المؤمن العارف بربه أن يستعد لآخرته، بإعداد تلك الكنانة التي تحوى الأعمال الصالحة، وأفعال الخير قبل أن يقف بين يدي ربه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وإذا نجحت كل تلك الخطوات فى سبيل تحمل المسئوليات، وإسناد الأمر إلى صاحبه القوى الكفيل بإنجاحه بما يملك من قيادة بصيرة، ترى الأمر وتعالجه، وتضع خطواتها على الطريق الأكمل المأمون، البعيد عن المزالق والمخاطر، والمسلح بقوى الإيمان، والمعرفة، وتحمل الصعاب، كان ذلك هو طريق الفوز والنجاح له ولغيره. وقد عبر عن ذلك المعنى مثل عربى قديم له دلالة النافعة فى مثل هذا الموقف، يقول:

٨ - عند الصباح يحمد القومُ السُّرى:

وأصل هذا المثل أن خليفة رسول الله ﷺ، أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، أمر قائده خالد بن الوليد، رضى الله عنه، وهو سيف الله المسلول، أن يسرع إلى معاونة جيش المسلمين بالعراق، وإلى نجدتهم، فأراد خالد أن يجتاز طريق الصحراء اختصاراً للوقت، وتلبية لأمر الخليفة، وإحساساً بالمسئولية إزاء هذا العمل الجسيم، فعرض الأمر على معاونيه، فقال له رافع بن عمرو الطائي: لقد سلكتها فى الجاهلية، وتحتاج إلى خمس ليال للإبل الواردة التى شربت وارتوت، فاشتري خالد بن الوليد مائة من الإبل، وعطشها، ثم سقاها الماء حتى رويت، ثم كمم أفواهها، وسلك بها الصحراء، حتى إذا كان اليوم الثالث خاف العطش على الناس، والخيل، فنحر الإبل، واستخرج ما فى بطونها من الماء، فسقى الناس والخيل، ومضى فى طريقه، حتى إذا كانت الليلة الرابعة، قال رافع: انظروا هل ترون سِدرًا عظامًا، فإن رأيتموها، وإلا فهو الهلاك، فنظر الناس، فرأوا السدر، فأخبروه، فكبر، وكبر الناس، ثم هجموا على الماء، فقال خالد بن الوليد:

لله درُّ رافع أنسى اهتدى فوز من قرار إلى سُرى

خمسًا إذا سار به الجيش بكى ما سارها من قبله إنس يرى

عند الصباح يحمد القومُ السُّرى (١) وتنجلي عنهم غيابات الكرى (٢)

(١) السرى: السير ليلاً.

(٢) غيابات: ظلمات. الكرى: النعاس.

ينجو بنفسه وقومه، ويحقق الأمان والطمأنينة، وتكشف أمامه الحقائق، وتوضح الأمور بلا لبس ولا غموض بعد مخاطرة، واقتحام للشدائد، وخبرات بالطريق ومسالكه، وحذر... إلخ، كل هذا كان عدة للقوم، فكانت النتائج فى جانبهم، والدولة لهم، والغلبة على الأعداء.

أما إذا استنم الجميع إلى لهواتهم، وشهوات نفوسهم، وانغمسوا فى ملذات الحياة دون بصر بالعواقب، وحذر من مغبات الأيام، فلن تكون النتائج إلا فى صالح أعداء الحياة، وأعداء البلاد، والعقيدة، والوطن، وليس أمر الهزيمة المرة التى حاقت بالبلاد عام ١٩٦٧م عنا ببعيد.

ج - طريق التربية الناجحة:

إذا تحدد أماننا الطريق إلى بناء الحياة، وتكوين المجتمع الصالح، بتلك اللبنة السليمة فى تفكيرها وعملها، وبالرجل الخبير بعمله، والعالم بأسراره، والثقة فى نواياه، فإن طريقة إخراج هذه النماذج البشرية لحياتنا تختلف من حين لآخر، تبعاً لاختلاف الأساليب والأدوات، وتبعاً لنماذج القيادات التى تتولى تربيتها وتعليمها، وما قد يصل إلينا فى وقتنا الحاضر من مذاهب عديدة، شرقية وغربية، وتجارب تستخدم فيها ألوان عديدة من النظريات والآراء، والتفكير الفلسفى والنفسى، لا تقتصر على وطن ولا جنس، وإنما تصل إلى دراسة كل ما يتعلق بنوازع النفس، وقدرات العقل، وطاقات الإنسان الكامنة، وكل ذلك لكى تصل إلى تربية سليمة للإنسان، تتسامى بغرائزه، وترتفع بطاقاته العقلية إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان فى عصره الحديث.

وهناك طريقان فى الحياة والتربية، كان لهما أثرهما فى وقتنا الحاضر فى اهتزاز القيم والمثل العليا التى تحرص عليها الأمم والشعوب، ولكن يبقى هناك سؤال يفرض نفسه على طريق الموازنة والمقارنة بين أحوال متعددة فى اتجاهاتها، وهو كيف كانت النظرة إلى الأفراد والجماعات فى تربيتها وبناء أشخاصها ومجتمعاتها؟

لا نتظر أن نضع أمام ناظرنا يا أخى فى هذه العجالة منهجاً محدد الاتجاهات، واضح القسما لما نريد، وإنما هى قيسات من تلك النماذج التى حوتها الأمثال العربية التى تهتم بالناشئة، وتحرص على مصالحي الأفراد والجماعات على حد سواء، مهتدية

بتعالىم القرآن والسنة المحمدىة، وواقع الحىاة وما تفرضه من أمور تحكم مىزان الحىاة، وىنظر إلیها من خلال المعاشة والاختلاط، حتى ىشب الصغىر وىتكون المآتمع، وتصلح أحوال الحىاة.

وما لا شك فىه أن للمنزل والمآتمع دورهما فى البىناء لهذه الحىاة، بدءاً بالطفولة وما تحتاج إلیه من رعاىة وحنو، وإعطاء حق كل فرد فى الحىاة الحقیقىة، وما تستلزمه من اهتمامات عدیة فى المآتمع، والمأكل، والمشرب، والتعلیم، والتربىة، وإعداده للمستقبل، ىشارك فى ذلك كل من ىملك هىمنة، ومسئولیة إخراجہ إلی عالم الوجود، من أب، وأم، ومآتمع، وقبىلة، وحكومة، ومربىن.

كلمة آخىرة:

وإذا نظرنا إلی ما تعانى منه بیوتنا ومآتمعاتنا من تخرب وتدمىر لشبابنا وزوجاتنا، وما ىجرى من أحداث تنبىء بشر مستطىر، إنما ینجم ذلك كله عن فقدان الرعاىة من جانب الآباء وأولیاء الأمر، ممن أعطاهم الله القىادة لهؤلاء الشبابة والزوجات، فلا هىبة، ولا احترام، ولا خوف، ولا تقدیر، انعدمت الرقابة، كما انعدم الجزءاء، نفشت فى المآتمع وسائل التخرىب للأجسام والعقول، من مخدرات تعصف بالقوى، وتهلك الأجساد، وكثرت حوادث القتل من الأبناء للآباء، والاعتصاب بین الفتىات، ألوان كثرىة من الفساد الذى لا ىعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى.

أعلاج ذلك فى تلك القوانىن الكثرىة الثغرات فى بنودها ونصوصها؟ أعلاج ذلك فى تلك القوانىن التى ىكثر التحاىل علیها، والتى لا تحظى بتقدیر؟

إن شبابةً، وزوجات، وفتىات، یتلقون تعلیمهم وىأخذون تعلیمهم وىأخذون منهج حىاتهم من تلك الصور البغیضة المنقولة إلیهم عبر وسائل التلقى التى تصدع آذانهم فى كل لحظة بأخبارها وأنبأها، وتشغل عیونهم بالمرائى المختلفة الناطقة والمسطورة فى تمثىلیات وقصص، وأحداث من مختلف أنحاء العالم، لن ننتظر من وراء ذلك إلا التأثير المقىت المتمثل فى تقلید ما ىرون، وما ىسمعون، وما ىقرءون.

ینطبع ذلك كله فى حركاتهم، وأفعالهم، وأزىائهم، وألسنتهم، وضغط الحىاة علیهم

بكل أثقائها، فلا يكون نتيجة ذلك إلا إهمال الشأن، والتراخى فى التربية، والجهل بوسائل العلاج، والنقص فى الخبرات التى تنجح فى مثل هذه الحال.

فإذا أردنا أن نخطط لإقامة بناء إنسانى مدعوم بالقيم، والمبادئ، والأخلاق، ومنتسح بالعلم النافع، وبعيد عن تنافرات الحياة، فلا بد أن نعيد للمنزل دوره فى البناء، فالرجل يتحمل مسئولياته فى التربية والإرشاد، والأم تقوم بدورها المؤثر بنفسها فى حضارة أطفالها منذ الصغر حتى الكبر.

مسئولية كاملة عبر عنها رسول الله ﷺ: «كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته»، مسئولية كاملة عما يقع فى الحياة من تقصير، وإهمال، وتأخير، مسئولية عن هزات الحياة بكل ما يتفشى فيها من عادات قبيحة، ورتائل تصيب الأفراد، صغارهم وكبارهم، مسئولية كاملة إيجابية فى نفعها ودفعها، تزويد بكل نافع من القول، وقوة فى السلوك، وتربية حصينة لمجابهة المستقبل بكل ما فيه، ودفع ووقاية من كل أمر مدمر، ومخدر، ومهلك.

المسئولية ريادة، وحكمة، وبصر بالأمور، توجب على القائم بالأمر، والمسئول عنه ألا يندع، ولا يورد أتباعه موارد الختوف والهلاك من أسرة، ومجتمع، ودولة.

لا يتبادر إلى الذهن أننا ندعو إلى أن ترجع المرأة إلى سابق ما كانت عليه فى الجاهلية الأولى، من إهدار لكرامتها، وهضم لحقوقها، وإهمال لشأنها، إنما ندعو إلى إبراز ما أنعم الله به عليها من فطرة حانية على بيتها، وأداء صحيح لرسالتها فى الحياة، وصيانة لنفسها وزوجها من كل أمر شائن يغض من مكانتها، ففى ذلك كله شفاء لنفوس مزقتها أمراض الحياة المادية، واهتمام بأطفال حرموا الرعاية فى دراستهم، وتولى أمرهم خادمت جاهلات بشئون التربية والتعليم، ومراقبة لشباب وفتيات يحتاجون إلى دراسة احتياجاتهم المادية والمعنوية، ويرغبون فى اللجوء إلى الشخص الواعى الذى يسدى إليهم النصح والتوجيه، دون حساسية أو غلظة فى المعاملة، أو سوء فهم لأمر العلاج.

من أولى بذلك كله؟ من يستطيع أن يقدم هذا العون؟ إن الأب وقد شغلته مسئوليات الحياة، جدير بأن يضيف إلى أعبائه المادية ما يستطيعه من نصح وإرشاد،

وىأتى بعد ذلك وقبله أيضاً الدور الفعال الذى تقوم به الأم فى المراقبة والرعاية، وتهيئة البيت السعيد الذى يمكنه أن يحقق ما تصبو إليه كل أسرة سعيدة من سكينة النفس، ورقى العقل، وتوفير النجاح فى الحياة لكل فرد من أفرادها، رجلاً أو امرأة، شاباً أو فتاة، وبذلك تكمل الوظيفة الحقيقية للأم فى الحياة الناجحة التى نبتغيها اليوم لمجتمعنا الحاضرة والمستقبل.



محتويات الكتاب

المقدمة.....	٣
الفصل الأول التمهيد القرآن الكريم وظيفته الأصلية، وكيف يتخذها المسلمون.....	٧
انتفاع الموتى بقراءة القرآن.....	١٠
بدع حول القرآن.....	١١
الغاية من إنزال القرآن.....	١٢
وجوب طاعة الله وطاعة رسوله، ووعيد المخالفين.....	١٦
الأمر بتدبر وتفهم القرآن.....	١٧
وعيد المعرضين عن القرآن.....	١٨
فضائل قراءة القرآن وفضائل بعض سورته وآياته.....	١٩
تحزيب القرآن.....	٢٤
لا تعرض عن قراءة القرآن.....	٢٤
بدعية جمع القراءات في سورة أو آية واحدة.....	٢٧
بدع وضلالات متعلقة بالقرآن العظيم.....	٢٧
ذكر أسباب إعراض الناس عن القرآن.....	٣٢
حكم الجهر بقراءة سورة الكهف بالمسجد، وسماعها من المذيع في المسجد.....	٣٧
الفصل الثاني إلزام القرآن للماديين والمليين.....	٣٩
١ - معنى المادة والماديين.....	٣٩
٢ - إلزام القرآن للمليين.....	٨٠
كلمة للتاريخ.....	١٣٦
الفصل الثاني الأمثال في القرآن الكريم.....	١٤٦
محتويات الكتاب.....	٢٨٨